FIFA WORLD CUP
Qatar2022
27.11.2022

عارف حجّاوي

هَكَذا أكْتُبُ

@ketab_n

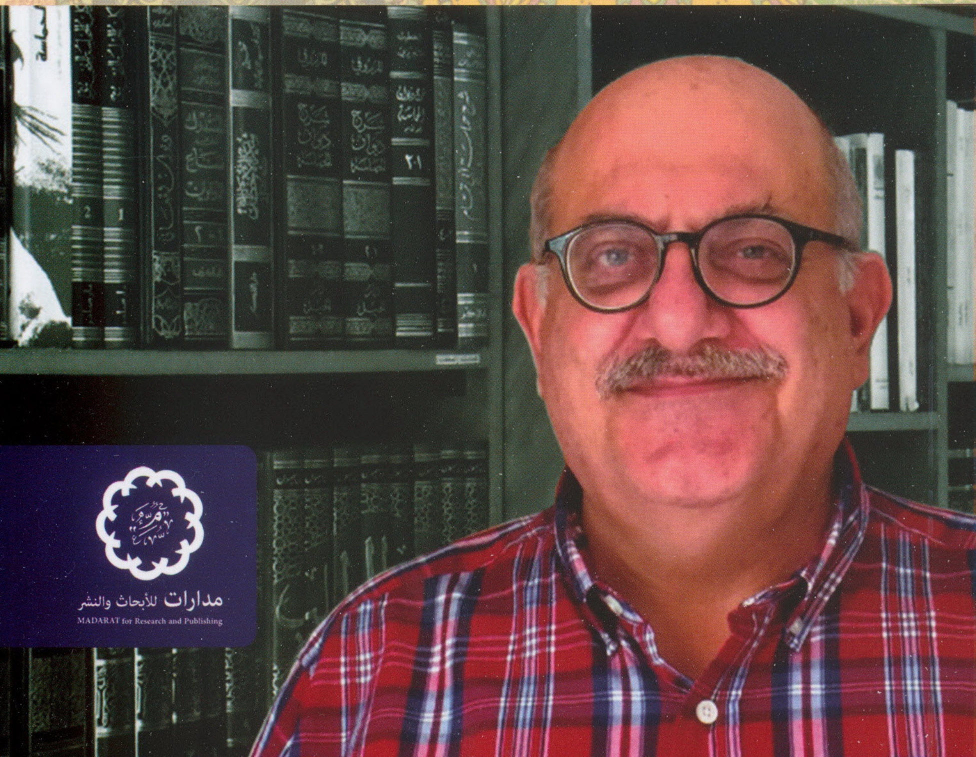

مدارات للأبحاث والنشر
MADARAT for Research and Publishing

عارف حجّاوي

هكذا أكتب

مدارات للأبحاث والنشر
MADARAT for Research and Publishing

مَكْتَبَةُ لِسَانِ العَرَب
أ. علاء الدين شوقي
رابط بديل
lisanerab.com
www.lisanarb.com

هَكَذا أكتُبُ

عارف حجَّاوي

- ولد في نابلس بفلسطين، ١٩٥٦، وفيها نشأ.
- متزوج وله ابنتان، وحفيدان. ويقيم في مدينة رام الله.
- عمل في التدريس المدرسي والجامعي، ثم عمل في الصحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون.
- صدر له: **سلسلة الزُّبدة: أنطولوجيا الشعر العربي في خمسة أجزاء**، (القاهرة: دار المشرق، ٢٠١٦).

هكذا أكتب

عارف حجّاوي

جميع الحقوق محفوظة

عارف حجّاوي ٢٠٢٢©

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧١٩٢/ ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6459-50-2

الطبعة الأولى: صفر ١٤٤٤هـ - سبتمبر/ أيلول ٢٠٢٢م

مدارات للأبحاث والنشر

٥ ش ابن سندر - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية

☎ ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢

info@madarat-rp.com

facebook.com/Madaratrp

جميع الآراء الواردة في الكتاب تعبّر عن رأي المؤلّف، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ

صدق الله العظيم

العنكبوت: ٦٩

المحتويات

مقدمة ١١
تمهيد ١٣

عن الإعلام

البقرة العميا ٢١
الأسد إلى موسكو غدًا.. ٢٣
إعلام مريض لشعوب مريضة.. ٢٥
البي بي سي قلم حبر جاف ٣٠
التصالح مع الجزيرة ٣٥
حياتي في التدريب الإعلامي ٣٩
الصحفي الشامل.. ٦١
المدير جمرة كبيرة.. ٧٠
الوثائقي قصة ٧٢
الوثائقي يتميَّع ٧٥
إيجابيات الوثائقي وسلبياته.. ٧٩
دردشة إعلامية.. ٨٦
كيف «الحال»؟ ٩٨
كيف تقرأ نشرة الأخبار في الإذاعة؟ ١٠٠

كيف تنجح الإذاعة الرسمية؟ ١٠٣
ما بعد الصواميل ١١٧
عن المذيعين ١٢٤
ورطة المذيع، وورطتنا معه ١٢٩

عن التعليم

التعليم الناجح في ثلاث حكايات ١٣٩
في صدره ١٢ لغة ١٤٣
الهبرة المحظوظة ١٤٥
تأملات في التعليم والمدارس ١٤٧
تعيش الكرتونة ١٦٤
٨×٩= ؟ ١٦٦
سأفتح جامعة.. قريبًا ١٦٨
سأفتح مدرسة.. قريبًا ١٧١
عن التعليم.. تنبيهات جاحظية ١٧٦
عن التعليم المدرسي ١٨٧
فضيحتان في جامعتين ١٩١
مدرستان أجنبيتان في نابلس ١٩٤

عن اللغة

قصة ذبابتين ١٩٩
المُدراء والتقييم ٢٠٣

رسالة إلى مدقق لغوي ٢٠٥
ويل لكل هَمزة! ٢٠٧
الكراكيب ٢١٠
الإرعاب النحوي ٢١٢
خزانة مليئة بالجثث ٢١٦
الحرف العربي والانتقام من الماضي ٢٢٠
النحو: اتركوه ولا تصلحوه ٢٢٢
قل للزمان: ارجع يا زمان ٢٣٦
صرح مُعجمي كبير ٢٣٨
الألمان يتكلمون الألمانية ٢٤٢
اللغة الأم.. لغة المعرفة والوجدان ٢٤٦
الروانف والشناتر ٢٤٩
اللغة والديناصور ٢٥١
أبو همروش ٢٥٥
أنا وأنت واللغة الإنجليزية ٢٧٧
بلغم ٢٩٤
توفل عربي ٣١٣

مقدمة

قصة هذا الكتاب عادية، لكنّي رأيتُ عند القراء فضولًا بشأن أي كتاب يُقبلون عليه: يريدون أن يسمعوا قصته.

كنت أحسُّ بدافع إلى الكتابة المستفيضة، للتعبير عن آرائي، ولمجرد استعمال اللغة ومعابثتها. كنت أقتنص الساعات اقتناصًا لأسكب الكلام على صفحة الحاسوب، ثم يخبرني عدَّاد الحروف أنني كتبتُ بضعة آلاف من الكلمات. فأرى أن هذا مما لا يصلح للنشر في موقع أو صحيفة، فأرمي ما كتبت في ملف في الحاسوب. وما زال هذا دأبي حتى امتلأ حاسوبي بأشياء تناسيتها. لقد اشتغلتُ بالتدريس والإعلام سنواتٍ كثيرةً كتبتُ وترجمتُ فيها أكثر من عشرين كتابًا بين صغير وكبير. ولكن الشغف بالكتابة كان أقوى من الاكتفاء بهذا.

تسلَّل صديقي محمد عبد العزيز الهجين إلى قلب حاسوبي، واستنسخ جُلَّ ما فيه من نصوص. وأخذ يحثني على نشرها في كتاب، فما لا يصلح للموقع الإلكتروني قد يصلح للكتاب. أردتُ أن أضمَّ إلى هذه النصوص أشياءَ من طرائف اللغة، لتسلية القارئ، وشاورتُ في ذلك الصديق عبد القدوس الهاشمي، فنَهاني، وأيَّده محمد عبد العزيز. أرادا أن يكون الكتاب قماشة واحدة. قلت إن بعض النصوص مُسرف في الطول، فقالا: لا بأس.

وجاء الكتاب طويلًا جدًّا، فرأينا -الناشر وأنا- أن نجعله كتابين. فهذا الـذي بين يديـك فيه الكثير عـن اللغة والإعـلام والتعليم، فسـمَّيته **هكذا أكتب**. والكتاب الآخر فيه أفكار وآراء تتجاوز اللغة فسمَّيته **هكذا أفكر**.

وقـد اعتنـى المحرِّر، فـي دار مدارات الزاهرة، بـكلا الكتابين فصحَّح أخطائـي، واجتهـد في أن ينفي عـن الكتابين المفـردات القديمة والعامية والمبتذلـة، فكنـت أوافقه مـرة وأخالفه مـرات. على أنه وقانـي الزلل في مواضع كثيرة.

سيرى القارئ أن بعض الأفكار تتكرر، ولا أعتذر عن ذلك. هي تتكرر في أثواب شتى، وبعض المتعة في الكتابة وفي القراءة يتجاوز الفكرة إلى طريقة التعبير عنها.

أشـكر صديقيَّ اللذين سـاعداني بالرأي والجهد، وأعلم يقينًا أن كثيرًا ممـا جاء فـي هذا الكتاب من أفـكار ليس مما يؤيدانـه، ولكنهما رُزقا من سَعَة الصدر ورحابة الأفق الكثير.

عارف حجاوي

١ يونيو/ حزيران ٢٠٢٢م

٢ ذو القعدة ١٤٤٣هـ

تمهيد

ما أفعله الآن: أعددتُ قهوتي وجلست كي أحرِّر مقالاتي غير المنشورة، التي يُفترض أن يضمها الكتابُ الذي بين يديك وآخر صنوٌ له. ولكن شغف الكتابة استولى عليَّ. لا أريد أن أحرر شيئًا كتبتُه سابقًا، لا أريد أن أجترَّ، هذا أكل بائت، أريد أن آكل في هذا الصباح أكلًا طازجًا، أريد.. أن.. أكتب.

الآن فهمتُ ما الذي كان يعتريني خلال السنوات الثلاثين الماضية: كان يعتريني جنون الفكرة، أو شيطان العبث، أو شبقُ الحرف. كنت أجلس إلى حاسوبي (وقبل الحاسوب: إلى قلمي وأوراقي) وأكتب بسرعة متلذِّذًا بالكتابة، مستمتعًا بتشكيل اللغة بين يدي، ثم ألقي كل ما أكتبه في الحاسوب غير مبالٍ بنشره.

وأنت تقرأ مقدمتي هذه، فالرجاء أن تضيف بين الحين والحين كلمة « جدًّا»، وكلمة «كثيرًا»، وعبارة «ليذهبوا إلى الجحيم». لن تجد فيها هذه الكلمات، فسوف أكتبها، ثم أشطبها.

أذكر لك مواقف شهدتها ومواقف قرأت عنها: القومية العربية العظيمة الجليلة الكبيرة، كلمة قومية صارت هي الصدق بعينه. حتى أم كلثوم تقول: «بقوميتي» في أغنيتها «على باب مصر تدقُّ الأكفُّ». الذي ينتقد عبد الناصر يستحق قطع لسانه. يذهب عبد الناصر إلى حلب، فيمشي فلاح من ريف حلب ثلاثين كيلومترًا على قدميه لكي يراه (قصة واقعية). تجتمع الجماهير تحت تلك الشرفة ويقولون: «هايل هتلر».

ثمانـون مليـون ألمانـي وقعوا تحت سـحر هتلر؛ هو النبـي، هو الحقُّ المطلـق. بـدأ هتلر بقمع كل معارضة، وفرَّ مـن البلاد من فرَّ من الأحرار. ولكـن بقـي في ألمانيـا ملاييـن المثقفين والعلمـاء الكبار، وتلـوث الجو بالدوغما، وكلُّهم آمن بهتلر.. حتى الخراب.

وقبل خمسـمئة سـنة أقام كالڤن في جنيف بسويسـرا جمهورية رعب، وأحـرق المعارضيـن علـى الخـازوق؛ لقـد امتلـك الحـقَّ البروتسـتانتي المطلق. وفي روما كان هناك من يملك الحقَّ الكاثوليكي المطلق.. قالت المحكمـة لغاليليـو: «الأرض لا تدور».. وحكموا عليـه بالإقامة الجبرية حتى الموت.

الحقُّ المطلق كان في قلب صديقي الماركسي الذي سألته يومًا ببراءة خبيثـة: «طيـب يا صاحبـي، فأين أخطـأ كارل ماركـس؟» دارت عيناه في محجريهمـا، ولـم يفهـم السـؤال، ثم قـال: «ماذا تقـول يا هـذا؟ ماركس يخطـئ!» لا يا صاحبي هذه ليسـت الاشـتراكية الطوباوية، إنها -واسـمع جيـدًا- «الاشـتراكية العلميـة» المدعومـة بالديالكتيـك، هـل فهمـت؟ «العلمية».

أها، حقٌّ مطلق مرة أخرى.

الأسـد إلى الأبـد. ورئيس كوريا الشـمالية قبل السـابق «الجدّ» يُدعى عندهـم اليـوم الرئيـس الأبـدي، هـذا وعظامـه أصبحت مكاحـل، لكنهم يكتحلون بها إلى اليوم.

شـهدتُ فـي زمني تقديس بعض الفلسـطينيين للماركسـية، وشـهدتُ انهيار الشيوعية.

المعتزلة في زمنهم امتلكوا الحقَّ المطلق، وقتلوا عليه بعض الفقهاء وعذَّبوا آخرين، لكن بغداد ظلت قلب المذهب الحنبلي. وامتلك الحنابلةُ الحقَّ المطلق، وتراشقوا مع المعتزلة بالنصوص والتأويلات. وغزانا الصليبيون حاملين في صدورهم الحقَّ المطلق، وكان في صدورنا حقٌّ مطلقٌ مغاير. كفَّرونا وكفَّرناهم.

ثم تركت أوروبا التكفير واستعاضت عنه بالاستعمار؛ فخلقوا حقًّا مطلقًا جديدًا هو «عبء الإنسان الأبيض». فالإنسان الأبيض هو المتحضر، ومن واجبه «الإنساني» تحضير السُّمر والسُّود.. ولا بأس أن يقوم على الهامش بنهب ثروات بلادهم.

داروين كان رجلًا شكَّاكًا، ونتركه إلى ابن خؤولته فرانسيس غولتون. هذا عالم جليل له ثلاثمئة وثلاثون كتابًا وورقة بحثية. عالم حقيقي، لكنه ابتدع النظرية اليوجينية «العلمية» الفاسدة، وخلق «حقيقة مطلقة» انهارت بعد سنوات، وبعد أن سببت أذى.

اللَّاديني العربي يردُّ على المسلم السلفي ذي الحقيقة المطلقة بحقيقة مطلقة من عنده. ينسى كل العوامل الاجتماعية والاقتصادية ويجعل الدين أساس كل الشرور. لا نغفر للَّادينيين طفولتهم الفكرية لأنها تؤدي إلى دوغما (بعض المهرِّجين اللَّادينيين يؤيد دولة مجرمة محتلَّة؛ لسبب وحيد هو أن المسلمين يعادونها).

والسلفي يتخرج في كلية الشريعة، ثم يعمل ورقة ماجستير، ثم يأخذُ يتفننُ في الإفتاء، ويجتمع حوله السفهاءُ. لديه ترسانة من الأسلحة:

التكفير، والغضب لله ولرسوله، واغتيال سمعة من يسير غير سيرته حتى لو كان من الأتقياء.

وقعنا في قبضة القومية زمنًا، وفي قبضة الماركسية زمنًا، واليوم نحن واقعون في قبضة السلفية. ثمة حربٌ ناعمةٌ تدور رحاها اليوم بين الأنظمة الترقيعية وبين السلفية. فالأنظمة الحاكمة يهمُّهاالسيطرةُ وجرُّ المنافع لمحاسيبها. لا يهمُّها «الحقُّ المطلق»، فقطَّاع الطرق لا يهمهم الفكر ولا التفكير.. هم قطَّاع طرق. ولكي يضمنوا السيطرة على الناس، يداهنون الفكر السلفي قليلًا، ويداهنون الفكر المهادن قليلًا، ويغضون الطَّرف عن الفكر الفلسفي الذي لا يتعرض لمصالحهم. وقد ينجح نظامٌ من الأنظمة في جعل زعيمه معبود الجماهير، وقد لا ينجح. المهم: النظام وبقاؤه. والسلفيون من جانبهم يستفيدون من تساهل الأنظمة معهم، ويشنون حربًا على المعتدلين وعلى الفكر والأدب. فإن خرج السلفيُّ خارج الوطن العربي فهو يبرز أنيابه التكفيرية.

الحرب بين الأنظمة والسلفيين حربُ مداهنة، وضحيتُها أصحاب الفكر الحُرّ؛ فالأنظمة تكرههم والسلفيون يكرهونهم. فإن كانوا أصحاب فكر سياسي فلهم عند الأنظمة السجن، وإن كانوا من أهل التفلسف فالأنظمة تكون سعيدة بأن يشغل السلفيون أسنانهم بنهشهم.

في هذا الكتاب الذي بين يديك كلام كثير عن المتشددين اللغويين. هؤلاء أيضًا يملكون حقيقة مطلقة.

قد آن أوان البدء بتحرير الكتاب. سأحذف بعض العبارات خوفًا من السلفيين الذي سيبادرون إلى تبديعي وتفسيقي، وربما تكفيري. أخاف

منهم فعلًا. هم نادرًا ما يدفعون سفيهًا من سفهائهم إلى قتل المخالف، ولكنهم، وبكل سهولة، يغتالون سُمعته، ويطلقون عليه كلابهم المسعورة. وأنا لا أحتمي بنظام حُكم، ولا أنتسب إلى جماعة سياسية، ولا أقبل أن يناصرني أشخاصٌ يملكون أي حقٍّ مطلق. أنا فرد، وقررت باكرًا أن أعيش فردًا. تهمُّني عائلتي، وبلدي فلسطين، والوطن العربي بكل ما فيه من أعراق وأديان، ويهمُّني المسلمون الذين أنتمي إليهم. أحبُّ لكل هؤلاء أن يكونوا أفضل. ولكن هذه الهموم لا تجعلني أكذب على نفسي: لا تجعلني أقبل تمجيد حقبة غير مجيدة من التاريخ العربي أو الإسلامي، ولا حتى تمجيد اللغة التي أحبها. أحب اللغة العربية وأعتز بكتابها العظيم: القرآن، ولكنني لا أنسى أن للآخرين لغاتهم وكتبهم المقدسة.

أخيرًا: ما ستراه هنا لا يحتوي على كل كتاباتي السياسية والفكرية. أكثرها سيبقى حبيس حاسوبي، إلى حين.

فإلى تنقيح المقالات. قليل منها نُشر في مواقع إلكترونية، أو جرائد، ولكن أيًّا منها لم يُنشَر في كتاب.

عن الإعلام

البقرة العميا

كنّـا وفـدًا مـن الصحفيين فـي ضيافة وزير إعـلام عقدت بـلادُه لتوها معاهـدةً مـع إسـرائيل. وأخـذ يسـرد علينـا محاسـن المعاهـدة الطريـة، ويستعرض الملحق الذي يؤكد على حقوق الشعب الفلسطيني.

انشـغل كل واحـد منـا بما هو خير من كلام السـيد الوزير، فواحد قعد يرسم دوائر متداخلة، وواحد صنع سفينة من رقعة برنامج الزيارة، وثالث نام، ورابع قعد يسمع الكلام. وهذا الرابع كان مراسلًا بدوي الأصل. قعد يسـمع ومرفقاه إلى المنضدة، ويداه تحملان رأسـه كما يحمل لاعب كرة السلة الكرة يريد تسجيل هدف.

بعد أن أنهى الوزير كلامه رمى زميلنا البدوي رأسه إلى الأعلى، ورفع يـده. وقـال للوزير: «تنطحني بقرة عميا إن كنـت فهمت كلمة واحدة مما قلت».

وخيَّـم الوجـومُ على القاعـة: تنحنح زميل، محـاولًا العثور على كلمة يرقـع بهـا الفتـق، وتنحنح ثـان، وأبحرت سـفينة الثالث إلى سـلَّة الزبالة. وأسرع الوزير فشكَرَنا وسرَّحنا بإحسان.

هناك عدة دول عربية تقيم علاقات مع إسرائيل. لكل بلد حريته في أن يعـادي من يعـادي، ويصالح من يصالـح. فإن ظننتم موقفي هـذا عبثيًا أو عدميًا فاسمعوا قصة حبَّة البازلاء.

حبَّة باز لاء قفزت من المغرفة ونزلت تحت الطاولة. وأهملتها ربَّة البيت. كانت البازلاءة حارة ساخنة، واستقرت في الوسط وحولها أقدامُ الآكلين. بدأت تبرد، وبدأت تدب على سطحها الحياة. بكتيريا صغيرة صارت تنمو عليها وتتوالد. بكتيريا عصوية الشكل طويلة، وبكتيريا مكورة، وفيروسات صغيرة. وكل مجموعة من المخلوقات تنشئ لها مستعمرة على حبة البازلاء. البكتيريا العصوية تأكل الفيروسات، والفيروسات تلحس من المرق العالق بحبة البازلاء. ملايين المخلوقات على حبة البازلاء. وفي كل دقيقة تموت مخلوقات وتولد أخرى، والبازلاءة تبرد وتصبح أكثر ملاءمة لمخلوقات جديدة. ومخلوقات لا يناسبها الجو فتفنى. كل ذلك يحدث والآكلون يصخبون ويتحدثون وأرجلهم تتحرك، تقترب من البازلاءة وتبتعد عنها. والمخلوقات البكتيرية صارت تدرك أن هناك في البعيد البعيد بازلاءات أخرى: بعضها ساخن يغلي وبعضها ينسحق تحت أضراس الماضغين. وبعض أفراد البكتيريا العصوية ظنوا أنهم قادرون على تحريك البازلاءة والنجاة بها من أخطار البرودة أو الانسحاق تحت الأقدام.

وبعد ساعة قام الآكلون، وأرجأت ربة البيت التنظيف. لكنها في الصباح التالي جاءت بالمكنسة. وكنست من تحت الطاولة حبة بازلاء جافة مجعدة ميتة.

- تنطحني بقرة عميا إن كنت أظن أن كرتنا الأرضية ومن عليها أحسن حالًا.

الأسد إلى موسكو غدًا

هذا مقال عنّي، فأما العنوان فمصيدة.

كنت في التاسعة عشرة. أنهيت السنة الجامعية الأولى، ثم تركت الجامعة لكي أتعلم.

لا أظنك قرأت الجملة الأخيرة جيدًا. أقول لك: «تركت الجامعة لكي أتعلم». فأنا لا أومن بأن الجامعة تعلم البني آدم، بل هو يعلم نفسه.

ذهبت إلى القدس، وقرعت باب جريدة الشعب. فنظر إليَّ صاحب الجريدة من فوق إلى تحت، مثلما يفعلون في السينما. وقال لأحدهم: «خذه للأستاذ فؤاد رزق». قال لي فؤاد رزق: «ماذا تريد أن تعمل؟» قلت: «محررًا».

ما أوقح المراهق!

أقعدني الرجل إلى منضدة بقربه، ورمى إليَّ برزمة أوراق: بعضها من الوكالات، وبعضها مخطوط منقول عن الراديو. قرأتها بسرعة وصنعت منها خبرًا، وتأنقت في عنوانه: «الرئيس السوري حافظ الأسد يتوجه إلى موسكو غدًا».

أصلح ليَ الخبر، ثم شطب العنوان بخط مستقيم، ومن الشّمال لليمين. كأنه مر عليه بقلمه قارئًا، فعندما وصل إلى نهايته عاد عليه بالقلم شاطبًا ماحقًّا. هل جربتَ مرورَ السكين على عنقك؟ هل جربت أن يشطب أحد كلامك ومن الشمال لليمين؟

ثم إنه كتب فوق عنواني المشطوب: «الأسد إلى موسكو غدًا».

وكان درسًا.

لقد دخلت الجامعة وهربت منها ستَّ مرات، في ثلاث جامعات، حتى حصلت على البكالوريوس. وعندما نلت الشهادة ثنيتها أربع طاقات ووضعتها في جيبي الخلفي وذهبت لتصديقها. وفي مكتب رئيس الجامعة أخرجت الشهادة من جيبي، فرأتني المسؤولة فأهوت بيدها على صدرها وشهقت وقالت: «سخَّمت الشهادة». وهذه السيدة، سهام عطا الله، صديقة عزيزة الآن. فإن كانت تذكر الموقف فأنا أقول لها: ما نويت إهانة الشهادة ولا التباهي بعدم الاكتراث بها. لقد طويتُها ببراءة طفل وأخرجتها أمامك ببراءة طفل.

أكتب كلماتي هذه في مصر، فأنا أعمل الآن في كتابة نصوص تلفزيونية لبرنامج اسمه «مقاليد الحكم» بالتعاون مع شركة مصرية. قبل يومين اجتمعت في مقر الشركة بالمخرج، وعمره نصف عمري، وبثلاثة آخرين. وبعد جلسة دامت ثلاث ساعات، قال المخرج: «النصوص مكلكعة». قالها بحرارة الشباب، وقبلتها بهدوء الشيوخ.

طويت أوراقي وذهبت إلى غرفتي فاعتكفت نهارًا على نصوصي المكلكعة فأعدتُ كتابتها. ثم رضي المخرج.

ما أصعب أن يشطب لي أحد كلامي، وما أحلى أن أظل تلميذًا.

إعلام مريض لشعوب مريضة

وقعت هذه الحادثة قبل مئة وخمسين سنة: بعثت الجريدة اللندنية مراسلها إلى ليفربول بإنجلترا لتسقُّط الأخبار من ركاب السفن القادمة من العالم الجديد. رست سفينة قادمة من كندا، وبدأ الركاب ينزلون ويتجهون إلى عربات الخيل. واختلط بهم جمعٌ من المراسلين. وحادثوهم واستخبروا منهم. وفي المساء جلس المراسلون في حانة تعودوا الجلوس فيها، وانهمك كلٌّ منهم في كتابة خبر أو ريبورتاج لجريدته اللندنية. وأما صاحبنا المراسل فقعد محزونًا لأنه لم يعثر على شيء يستحق الذكر. غير أنه في النهاية أمسك بقلمه وأخذ يكتب تقريرًا من خياله.

كتب قصة السيدة آدمز التي «زعم» أنه التقى بها على رصيف الميناء بصحبة زوجها. لقد عملت هذه السيدة في تنظيف البيوت في إنجلترا زمنًا، وزوجها في كندا يسعى في رزقه. وبعد أن انقطعت عنها رسائله، أبحرت بنفسها إلى كندا وبحثت عنه أشهرًا، حتى وجدته ملقى على الرصيف مشردًا، فانطلقت به إلى حياة جديدة وأخذا يعملان بجد حتى جمعا ثروةً كبيرةً. وها هي السيدة آدمز تعود مع زوجها اليوم إلى الوطن للزيارة. وسوف يعودان إلى كندا بعد أسبوعين على متن الباخرة إكس.

هذا الريبورتاج المختلق أعجب رئيس التحرير فنشره على الصفحة الأولى، وسُرَّ المراسل بذلك.

قال له رئيس التحرير: «لقد أبرقتُ إلى مراسلنا في كندا أن ينتظر عودة السفينة؛ ليُجري مقابلة مع الزوجين ويسألهما عن فترة الإجازة التي قضياها في إنجلترا». وسُقط في يد المراسل الكذاب، وانتظر المصيبة يومًا بعد يوم.

وبعد بضعة أسابيع إذا الصحيفة تنشر تحقيقًا مطولًا بقلم مراسلها في كندا، وفيه مقابلة شائقة مع الزوجين المختَلَقين آدمز.

وهكذا كذب المراسل في إنجلترا فاخترع الزوجين آدمز، وكذب المراسل في كندا عندما لم يعثر على الزوجين آدمز فاخترعهما مرة أخرى.

صرنا نتمنى أن يكون في صحافتنا كذب؛ لأنه أهون بكثير من هذه الأخبار المملة التي تنشرها. صحافتنا لم تستطع أن تصبح صحافة صفراء تنشر الأكاذيب والتهاويل، ولم تستطع أن تصبح صحافة رصينة تنشر عميق التحليلات. وبقيت في أحسن حالاتها ناقلة ببغائية عن الوكالات. وفي أسوأ حالاتها ناشرة مقالات كأنها أُنشرت من قبور الخمسينيات. وفيما بين السيئ والأسوأ قد يتسلل خبر محلي ليس فيه رائحة الخبر.

وجاء الفيسبوك فعوَّضنا عما افتقدناه من التفاهة. وصار المتعلّم قبل الجاهل يقول لك أشياء عجيبة، فإن شككت في كلامه قال: «والله جاءني علِى الفيسبوك».

محتمل أن تعيش الصحافة الورقية بضعة عقود أخرى، ليس فقط بسببنا نحن من تعودنا على الإمساك بالجريدة الورق، ولكن لأن تجار الورق وزُرَّاع الغابات سيخترعون أشياء تديم الجريدة بعض الدوام،

وثمة سبب آخر هو عجز الأجهزة الحديثة -حتى الآن- عن مخاطبة القصور التجريدي عند الإنسان، فهذا الكائن ما زال يريد أن يمسك الأشياء بيده.

الصحافة الورقية ليست وسيلة توعية. إن ماتت غدًا فلن نذرف عليها دمعة. وفيها علَّة أخرى غير علَّة النقل الببغائي عن الوكالات، وعلَّة نشر المقالات السطحية: هي علَّة الثرثرة والعدول عما هو لباب إلى ما هو قشور.

بعض صحف العالم حلَّقت في سماء الحرية، وبعضها سقط في مستنقع التفاهة، وصحفنا في بلاد العرب إذا خرجت من عباءة السلطان أحست البرد فتقفعت أصابعها، فالتمست فُرجة في هذه العباءة كي تدخل من جديد وتستدفئ.

صحفٌ خير ما فيها إعلاناتها، ما قولك فيها؟

ولئن تكن الإعلانات خير ما في تلك الصحف فإنها شر مستطير عندما يصبح المُعلن متحكمًا. يرسل إلى الجريدة الإعلان وثمنه، ومعهما إعلان آخر يريدك أن تطبعه وكأنه خبر.

يقولون الإعلام في بلدنا مريض، ونقول: البلد مريضة.

بقي في الجعبة سهمان: أحدهما نُصَوِّبه إلى الحكومة، والآخر إلى الشعب.

إلى الحكومة: الصحافة حرية أولًا، وصناعة ثانيًا. هل نستطيع أن ننشر الأحكام القضائية الصادرة بحق الفاسدين؟ ونجيب نحن: وهل

هناك أصلًا أحكام قضائية بحقهم! هناك ضبطية فقط. وهل الإعلام الحكومي ناجح؟ وإذا لم يكن ناجحًا فلماذا يستمر؟ هو فاشل حتى في الترويج للحكومة، هو أضحوكة. والإعلام الخاص: هل يمكن أن يستقيم بدون حرية؟ الجواب: لا.

وإلى الشعب: أيها الشعب العزيز، الزيادة في عدد السكان في الدنمارك ثلث بالمئة. والزيادة في الأردن أكثر من ثلاثة بالمئة. بالعربي الفصيح الأردنيون أكثر تزايدًا من الدنماركيين بعشرة أضعاف. نحن نتزايد بعشرة أضعاف وتيرة تزايدهم. فهل ثرواتنا تتزايد بنفس النسبة؟ هل صناعتنا وزراعتنا تنمو سنويًا بعشرة أضعاف نمو الصناعة والزراعة في أوروبا؟ أم أننا نستورد اللورباك والمرسيدس والعطور والسجائر وكل شيء منهم؟

هذه الشعوب البارعة في الإنجاب بارعة أيضًا في الشكوى وفي شتم الاستعمار. الفائض البشري عندنا يطحن بعضه بعضًا؛ ولا أحد يجرؤ على القول: خذوا حبوب منع الزفت المغلي.

أضحكني عربي يعيش في ألمانيا. قال لي: يذهب الواحد منهم بلحيته الكثة كي يقبض مخصصات الأطفال من مكتب البريد، فعنده ثمانية أطفال، ثم إذا سجل عليه الشرطيُّ مخالفةَ سيرٍ راح يشتم الصليبيين.

نفكر بطريقة عجيبة. نخلط الماضي بالحاضر خلطًا مضحكًا. ولعلمك فالأحقاد بين الإنجليز والفرنسيين قديمة، وليس بين الشعبين محبة حتى اليوم. لكنهم لا يستحضرون التاريخ في كل لحظة، بل يعيشون ويتعاونون. وهل الغرب يحبنا؟ بالطبع لا. ونحن لا نحبه. والغرب سبب قليل من

مشاكلنا، ونحن سبب قليل من مشاكله. ولكن مشاكلنا العويصة حقًّا هي من صنع أيدينا. والحل عندنا وليس عنده. وبالتأكيد الحل لا يكون بالأحزمة الناسفة.

العداوة بين الصين واليابان ليست ابنة اليوم، وهي مستمرة على نار باردة. ولكن البلدين كليهما يطور نفسه ولا يسترجع التاريخ العتيق في كل لحظة.

وللصين مع الاستعمار الأوروبي قصة أفظع من قصتنا معه. يكفي أن بريطانيا شنَّت حربين على الصين؛ لأن الصين منعت استيراد الأفيون الذي يُصدِّره التجار الإنجليز من مستعمرتهم في الهند.

للشعب العربي أقول: المشكلة ليست في الإعلام، المشكلة فيك.

البي بي سي قلم حبر جاف

عندما التحقتُ بالبي بي سي وجدت «القسم العربي» يحتفل بعيد ميلاده الخمسين. وغادرت البي بي سي وهو يحتفل بعيد ميلاده الستين. واليوم يدعوني القسم العربي للكتابة وهو يحتفل بعيد ميلاده الثمانين.

أنا سعيد. أولًا لأنني ما زلت على قيد الحياة. وثانيًا لأنني أكتب من الخارج بعيدًا عن صراع الديكة. ففي كل مؤسسة يعيش العاقل الأمين نصف ساعات الدوام عاملًا مخلصًا، والنصف الآخر محاربًا، فإن كان أحد يعرف مؤسسةً ليس فيها صراعٌ فليدلني عليها كي أقبّل جدرانها مثلما يقبل الحجيجُ الحجر الأسود.

قد عشتُ حياتي «البيبيسيَّة» عاملًا محاربًا كما ينبغي، وربحت علمًا كثيرًا. والآن إلى البداية.

قَدِمتُ إلى لندن شابًا في أوائل الثلاثين، وخرطوني (هذه من «انخرط») في دورة يسمونها «دورة القادمين الجدد». جاءنا فيها مدربون من أقسام شتى، وكلهم ينتقد البي بي سي بسخرية، مبطنة حينًا ومكشوفة حينًا، لكن بغير مرارة. شيء لا يحسنه في درب التبانة أحد كما يحسنه الإنجليز. أخذت جرعة من اطِّراح تمجيد الذات، ومن القدرة على نقد الذات. وكان في هذا درس.

بعد شهرين حمَلونا -نحن الأجانب الجدد- إلى إيفْشام؛ وهذه قرية في وسط بريطانيا للبي بي سي فيها مركز هندسي. وقيل لنا: «هيا عيشوا

حياةً بريطانيةً». المائدة عجب: أمامي من الملاعق والشوك والسكاكين، والأطباق المختلفات قُطرًا وشكلًا، ما يمكن أن أفتح به متجرًا للأدوات المنزلية، وجاء طعام من هذا المسلوق الذي يتناوله نزلاء المستشفيات في بلدي فلسطين. عرفنا هذا الجانب من الحياة البريطانية. وكان ضيفُ المائدة نائبًا في البرلمان.

انتهينا من الطعام -وأسمِّيه طعامًا للافتقار إلى كلمة أخرى- وقبل أن يلقي النائب خطبته ذهبت إلى المستراح لقضاء الحاجة، وصادف أن وجدت هناك زميلًا إيرانيًّا؟ قلت له ونحن بائلان: «المشكلة أنني لم أكتشف بعد لماذا يدفع البريطانيون كل هذا المال كي يثرثروا بثلاث وأربعين لغة؟ لماذا؟»

لم يُتح لصديقي أن يجيب، فقد خرج من حجيرة في المستراح النائبُ الضيف نفسه. لقد سمعني. يا للإحراج!

وعدنا إلى المائدة، وقد أمست خوانًا أزيلت من عليه الأطباق وبقيت الكؤوس. وقرعت مديرة الجلسة جانب كأسها تلتمس الإنصات، وقدمت حضرة النائب. وتكلم، وذكر أشياء عن الديمقراطية، ولا أدري ماذا. لكن فلسطينيًّا كَوَته بريطانيا بوعد بلفور لا يهمه هذا الكلام. لم يتطرق النائب إلى تعليقي الذي لا بد أنه سمعه في المستراح. فكان لا بد من تذكيره به. وسألته أمام الجمع السؤال عينه لم أخرم منه كلمة. وأجاب بكلام عن الديمقراطية لم يقنعني.

وتذكرت عمي معاوية رحمه الله.. فجاءني الجواب من عقلي.

كان عمي مديرًا للدعاية في الخطوط الجوية الكويتية. وكان يتحفنا ببعض اللطائف، ومنها أقلام حبر جاف جميلةُ المنظر.. وتكتب. وفي

زمن طفولتي -ذلك السحيق- كانت أقلام الحبر الجاف التي نعرفها تكتب حرفًا وتحرن حرفًا، فتأتي الكلمة مقطَّعة تقطيعًا دميمًا. لكن قلم الخطوط الجوية الكويتية، الذي يحمل شعار المؤسسة، كان يسير على الورقة سيرًا جميلًا، وينزُّ فوقها من دم قلبه بانتظام مدهش. قلم جيد.. إذن لا بد من أن المؤسسة التي أهدته إلينا مؤسسة جيدة!

البي بي سي الموجهة إلى العالم بلغاته المختلفة هي قلم الحبر الذي تُهديه بريطانيا إلى الشعوب. أما البي بي سي الموجهة إلى بريطانيا -ويدلعها موظفوها بـ «بيب» - فهي تخدم البريطانيين، ولا شأن لنا بها هنا. وأما البي بي سي الموجهة إلى الخارج - وكنا ندلعها بـ «هاب»، الأحرف الأولى من «هيئة الإذاعة البريطانية» - فكانت قلم حبر جاف. هي هدية دعائية لبريطانيا. وهي هدية جيدة لكي نعرف أن بريطانيا جيدة.

بهذا الفهم عملت في «هاب» عشر سنين راجحة. وازددت معرفة بها عندما وعيت قولهم إنها تبث «وفق المصلحة الوطنية»، «إن ذه ناشنال إنترست» القيد الوحيد: ألا تُلحِق المؤسسة ضررًا ببريطانيا. ولكن، من ذا يستطيع أن يفسر «المصلحة الوطنية»؟ أهل البي بي سي أقدرُ الناس على تفسيرها تفسيرًا واسعًا. وأسوق على هذا مثالًا:

وضعت حرب الخليج أوزارها، وأُخرج العراقيون من الكويت. وقامت سوق السلاح على ساقين من حديد. وبدأ الأمريكيون والإنجليز يَبيعون الحديد لدول الخليج. وقع بيدي تقرير مستند إلى مجلة «جين الدفاعية» يقارن بين مواصفات الدبابة الأمريكية (لعلها شيرمان) والدبابة البريطانية (لعلها تشالنجر). وكانت المقارنة في صالح الدبابة الأمريكية بشكل صارخ.

كنت مُنتِج برنامج إخباري، وكان في مقدوري أن أُضمِّن التقرير في برنامجي أو أن أتجاهله. وقررت أن أُضمِّنه. كان في نوبة الترجمة يومها المرحوم نجا فرج، وكانت ترجمة التقرير من نصيبه، فصرخ بي: «يا رجل، هذا التقرير سيأتيك بالصداع!» وقررت أن أفسر «المصلحة الوطنية» التفسير الواسع. وأذعنا التقرير. ولم أُصب بصداع.

ثمة مثال آخر أسطع.

عندما كان العراق يحتل الكويت، كان رئيس البرلمان الكويتي أحمد الخطيب موجودًا في لندن للاصطياف، وأجريتُ معه مقابلة انتقد فيها الحكومة الكويتية وانتقد الأمير. كانت هذه المقابلة خليقة فعلًا أن تسبب لي صداعًا، فقد كانت بريطانيا في ذلك الوقت ضمن التحالف الدولي الذي شنَّ حربًا على العراق لتحرير الكويت. لكنني بثثتها. وأعترف ههنا بخطأ تحريري، غير أنني لا أندم عليه: كان يجب عليَّ أن أستشير سامي حداد مدير البرامج الإخبارية، ولم أفعل. كان هذا من جانبي نزقًا، وأظن أنني لو كنت استشرته لقرر أن يتجنب الصداع. ومرَّت على الأمر سنة أو سنتان. وللقصة بقية.

كنت في دورة تدريبية وكان يشرف عليها صحفي تقاعد حديثًا من البي بي سي. رآني من القسم العربي فقال لي: «مرحى! أنتم الذين سبَّبتم كل هذا الصداع بسبب المقابلة مع رئيس البرلمان الكويتي!» لم يعرف أنني كنت شخصيًّا المسؤول. وأردف الرجل: «لقد تُرجمت المقابلة إلى الإنجليزية وجرت دراستها على أعلى المستويات؛ لأن وزارة الخارجية نقلت للبي بي سي اعتراضها، كما اعترض الكويتيون على المقابلة». المهم، تقرر في النهاية أن المقابلة ليس فيها مشكلة تحريرية.

كنت سعيدًا بأن المسؤولين في البي بي سي تولوا الرد على الجهات الخارجية بأنفسهم دون الرجوع إليَّ. لم يعلم أحد في القسم العربي ما سببته تلك المقابلةُ من صداع لعلية القوم. تلك البي بي سي في أحسن حالاتها.

في البي بي سي تعلمتُ كثيرًا، وأخطأتُ كثيرًا. وكان صدر البي بي سي أوسع من صحراء الربع الخالي.

سعيدٌ أنني حضرت ذيل العصر الذهبي للراديو. والقسم العربي الآن يبث كما ظل يبث من ثمانين سنة، وأضيف إليه التلفزيون، والموقع الإلكتروني.

لتكن البي بي سي قلم حبر جاف. لكنه من أفضل الأقلام.

التصالح مع الجزيرة

عملت في البي بي سي عشر سنوات، كنتُ في النصف الثاني منها مدير برامج، وعملتُ في الجزيرة عشر سنوات كنت في النصف الأول منها مدير برامج. ودخلت الآن سنتي الحادية عشرة في الجزيرة، ولستُ هنا في معرِض المقارنة. هما كالباذنجان والكوسا.

استطراد: هذا عن زميلي في البي بي سي ثم في الجزيرة، حسين صالح. كنت أجوب معه سوق الخضار بالدوحة يومًا وهو ينظر بعينٍ شَبِقة إلى الباذنجان، ثم يهجم عليه ويملأ الكيس بعد الكيس، ويقول: عجيب يا أخي أمر الناس، يمرون بالباذنجان ولا يتوقفون!

حديثي هنا عن الجزيرة، وقد شارفت على عيدها العشرين. طلب مني مسؤول العلاقات العامة أن أكتب مقالًا لكتاب احتفالي يصدر بهذه المناسبة، واعتذرتُ قائلًا: «إنني لا أكتب إلا ما في رأسي، ولا أريد محررًا يغيِّر لي كلامي». فقبل اعتذاري وأناط بي مهمة أخرى هي تحرير الكتاب كله، فهذه عجيبة. والأعجب منها أنني قبلت. بدأت أقرأ مقالات الزملاء، ومع كل مقال يرتفع مؤشر الندم. لكن، هي كلمة قلتها.

نجلس في المكتب بالجزيرة بين الفينة والفينة نجلد الذات. وأجلد الذات مع الجالدين، لا أوفر هذه المؤسسة الإعلامية من قوارص النقد، وأتفنن في التنقير عن العيب الصغير والكبير. وفي أكثر من مناسبة كنت أغتنم لحظة سكوت في المجلس فأنثني إلى المحاسن: من أسرعهن

خبـرًا؟ الجزيـرة. وأصدقهن خبـرًا؟ الجزيرة. والجزيرة فتحت لفلسـطين بيتًـا، وبثـت عنها عشـرات الوثائقيـات المميزة. وأية قناة هـي الأقوى في تغطيـة الخبـر العالمـي، والتعمـق فـي شـؤون بلـدان الفقـر؟ الجزيـرة الإنجليزيـة. وأيـة قناة سـلكت بين شعوب البلقـان ذوات الإحَـن طريقًا وسطًا أكسبها في البلقان احترام الجميع؟ الجزيرة-بلقان فقط.

كانـت مشـكلتي الشـخصية مـع الجزيـرة ازداوج الانتمـاء: العربـي والإسـلامي. ولئـن لـم أكـن قومـي النزعـة ولا إسـلامي النزعـة بالمعنى السياسي، فإنني كنت دائمًا أجد في هذا الانتماء المزدوج مشكلة. هي في الواقع مشكلتي أنا.

أدخلني في صومعة مراجعة قاسية كتابان قرأتهما مؤخرًا؛ أول الكتابين صدر قبل أشهر، وهو عن التاريخ التجاري للعالم. المؤلف بيتر فرانكوبان الأسـتاذ فـي أكسـفورد. وفـي مائتـي صفحـة، هـي ثلـث الكتـاب، يروي المؤلف تاريخ الإسـلام... فإذا أنت أمام بحر من السـماحة وقبول الآخر يتوسـط الدنيـا ويتوسـط تاريخها. قبله وحشـية الرومان والفـرس، وبعده وحشـية الصليبييـن والتتـار وهمجيـة أوروبـا. ومـن قـال لكـم، والفكرة للمؤلـف، إن الغـرب الأوروبي وريث الحضـارة اليونانية العظيمة؟ كلام فـارغ. فشـعوب أوروبـا قبـل النهضـة كانـت هملًا همجًـا، ومـع النهضة استعارت الثوب الإغريقي قشرة رقيقة، وأخذ شعراؤها يحشدون أساطير الإغريق في قصائدهم، وراح معماروها يبنون على طريقة الإغريق. ومن طريـق العربيـة أخـذوا علمًا كثيـرًا، ودرسـوا كثيرًا من نصـوص الإغريق. يسمون عصر النهضة بلغاتهم «الري-نايسنس» أي إعادة الولادة. والحقُّ أنه عصرُ النايسنس فقط، أي الولادة. فأوروبا نهضت تجاريًا بالكشوفات

الجغرافية ولم تنهض أخلاقيًا وحضاريًا، وظلت همجية حتى أول أمس... وذلك عندما تفوقت عليها أمة أكثر منها همجية هي الولايات المتحدة، التي ما زالت في أوج همجيتها. والفكرة الأخيرة للكاتب الثاني جورج فريدمان في كتابه **السنوات المئة المقبلة** الصادر عام ٢٠٠٩، ويضم تنبؤاته للقرن الحادي والعشرين.

التصنيف بحسب الدين ليس اختيارك. هو مفروض عليك. أنت مصنف كأمة إسلامية لأن الآخرين يصنفونك كذلك. من هنتنغتون فصاعدًا أخذ الغرب بشكل متزايد يحشر المسلمين جميعًا في بوتقة حضارية سياسية.

هذا يذكرني بقصة شاب سجنته إسرائيل في السبعينيات.

بعد انتهاء التحقيق تم ترحيل صاحبنا من الزنزانة إلى القاووش، الغرفة الكبيرة. ورحَّب به الزملاءُ المعتقَلون. وجاء موعد شرب الشاي. قيل له: «مع من ستشرب شايك، مع الجبهة الشعبية أم مع فتح؟» فقال لهم صاحبنا: «أنا لا كذا ولا كذا، أنا رجل وطني فقط». فهبُّوا جميعًا في وجهه وقالوا له: «يا بارد، قل بسرعة مع من ستشرب شايك؟» وساءلوه قليلًا، وسرعان ما صنَّفوه.

العبرة: لا بد لك من معسكر، ولست وحدك من يختار معسكرك.

وقد تصالحتُ مع الاختيار المزدوج للجزيرة: الانتماء العربي-الإسلامي. ومثل هذا الانتماء يفتح صدره واسعًا لكل صاحب دين وكل صاحب قومية. فالكردي الذي رأى نفسه قد ترعرع في الثقافة العربية عربي كردي إسلامي، والمسيحي العربي له دينه وله من الثقافة الإسلامية

نصيبه أيضًا. وكان مارون عبود أسبق مني في فهم هذا الانتماء المزدوج عندما سمى ولده محمدًا. كان هذا الكاتب اللبناني يرى محمدًا نبيَّ العرب، والقرآنَ كتابَ العرب. وعرف كيف يكون مسيحيًا عربيًا يحتضن الثقافة الإسلامية بكل ارتياح.. وسبقه في لبنان نفسه ناصيف اليازجي وأحمد فارس الشدياق والمعلم بطرس البستاني. وسبقهم بمئات السنين يهود وصابئة ومسيحيون عرب كثر.

لقد تميزت الجزيرةُ بالجرأة والتوازن والسرعة والصدق والسعة. وظلت الجزيرة صادقة وسريعة وواسعة. فما عيوب الجزيرة؟ لا يكفي مقال واحد لها. ولكنني قدمت أعلاه نقاط قوتها: الخبر الصحيح والسريع، والاهتمام بالإنسان. هذا مقام احتفال. فإن يكن مقام آخر يكن كلام آخر[1].

---

(١) **ملحوظة تحريرية**: لم يُنشر المقال في ذلك الكتاب الاحتفالي، بل في موقع تابع للجزيرة.

حياتي في التدريب الإعلامي

المدرب الجيد يبدأ بقليل من الكلام ثم يسارع إلى شَغل أيدي المتدربين وعقولهم بتمرين حقيقي. ويراوح بين الشغل الفردي والجماعي، ويستر عيوب المتدربين ولا يفضحها. يرضى منهم بما يستطيعون، غير مصمِّم على تحقيق النتائج المطلقة. فالدورة التدريبية، طالت أم قصرت، هي ورشة ممارسة وحديث في الموضوع. ولا بأس ببعض الخروج عن الموضوع حتى يتدفق المتدربون في الكلام، ويشعروا بكيانهم. فالخروج إلى حديث عن الطقس أو الازدحام على الطرق يسوّي بين الجميع، فلا يفضل ذو المستوى الجيد ذا المستوى الأقل.

على أن المدرب المُدرِك لما يصنع لا يترك الأمر ينفلت، فمهما التذَّ بعضهم بالحديث الجانبي فإنهم يريدون بعد حين أن يعودوا إلى موضوع الدورة، يشعرون ويشعر المدرب بشيء من تأنيب الضمير إذا طال مثل هذا الخروج.

أتذكر، وأنا أكتب هذا، مديرتي في مركز البي بي سي للتدريب، غوينيث هندرسون، وكنت مدربًا هناك. أتذكر كيف كانت تضبط المتدربين وتحفظ على المدرب كرامته.

ألّا يتراجع المدرب عندما تتقدَّم به السنُّ؟

المدرب الذي يمارس المهنة طويلًا، ويظل يمارسها مع ممارسته التدريب، يميل إلى أن يجعل نفسه ونتاج عمله المثال المحتذى. أعاني

مـن بعـض هـذا، وصادفـت متدربيـن يتذمـرون مـن ذلـك. وكنـت أقول للمتـدرب المتذمـر: «طبيعـي أن يُحدِّثـك المـدرب الخبير عـن إنتاجه». اسـكت، واسـمع، وأحسِـن الاسـتفادة من خبرته. قد كنـتُ رئيس تحرير جريـدة، وكنـتُ مدير برامج لسـنوات عـدة في إذاعة، ولسـنوات أكثر في تلفزيـون. وكتبت مئـات المقالات والتقارير، وكنت مراسـلًا ميدانيًا أربع سـنين. وبالتزامن مع كل هذا كنت أعقد الدورات التدريبية ذات الشـمال وذات اليمين. وكنت أتخذ لكل دورة عُدَّتَها. لا أذكر دورةً دخلتها خاوي الوفـاض. ثـم إنني، بعد هذا كله، لا أطيل في الحديث عن إنجازاتي، فإن فعلتُ أخذ يغلي بداخلي شعورٌ بأن واجبي أن أستعمل من ذلك القدر من خبرتي الشخصية ما فيه فائدة حقيقية، وأن أتجنب الاستعراض.

لكننـي كبـرت. أصبحت أقف أمـام المتدربين غـولًا، ممتلئـا بالخبرة المنوعة. نعم، أتلطَّف معهم وأُؤنسهم، وأعترف لهم بأنني أرتكب الغلطة النحويـة بيـن الفينـة والفينـة، وهذا صحيـح، وأقر لهم بأن هناك أسـئلة لا أعـرف إجابتهـا. لكننـي غول بعمـري وبخبرتي، وغول لأننـي ظللت في المهنـة، وغـول لأننـي حافظـت على نشـاطٍ ذهنـي طيب بالاسـتمرار في المطالعة. فهل أرسم خطًّا سميكًا تحت كل التدريب الإعلامي، وأتوقف! ليتني.

ربما المشكلة أنني غول، لا أنني مسن.

صادفت مدربًا مسنًّا ذات يوم. كنت بين المتدربين وكان هو المدرب. بعض الذين يحالون على نصف تقاعد في البي بي سي يصبحون مدربين، وتكون في نفوسـهم بعض المرارة. هذا كان منهم. كان أنيسًا وكان مدربًا

يكتفي باستذكار ما مر به. لم يكن جيدًا ولا سيئًا. وصادفتُ غولًا ممارسًا للمهنة - كان هذا في الدورة التي يسمونها «دورة القادمين الجدد» - وقد أفاض علينا من خبرته وكان يُسارع إلى كلمة «لا أدري» عندما لا يدري. كان غولًا مفيدًا جدًّا.

أنا بالمناسبة غول مفيد. مشكلتي أن لدي أشياء أخرى أريد أن أعملها. فليذهب التدريب إلى الجحيم.

المتدربون: كثير منهم درس الإعلام في الجامعة، واكتشف أن دراسته كانت عقيمة، وأنها لا تساوي خردلة في سوق الإعلام، المدرب الحقُّ ينقلهم من حكاية الأسئلة الستة والهرم المقلوب وهذه الخزعبلات الأكاديمية إلى دنيا الإعلام الحقيقية. يجعلهم يناقشون، يجالسهم واحدًا واحدًا.

أتذكر شخصين صادفتُهما في دورة قبل بضع سنين.

الدورة فيها سبعة وعشرون متدربًا. وكانت في التحرير الصحفي. الشخص الصعب الأول كان ممتلئًا خبرةً، كاتبًا وروائيًا، وذا قلم سيَّال. وعلى مدى ساعتين أيقن أن عندي ما أضيف له. وأصبح صديقًا وزارني في بيتي بعد الدورة مرتين، وقابلته ثالثة في مكان عام، وهو الآن محرر ثقافي مهم. والثاني كان شابًّا في الرابعة والعشرين. بدأ من الساعات الأولى يطلق ملاحظات لا تخلو من سخرية. فلا بأس من تزجية وقت الدورة بالعبث قليلًا بالمدرب العجوز، وخاصة أنه يبدو لين العريكة.

قلت لنفسي: «ها قد بدأ الشغل الصعب!» استأنسته، وصبرت عليه. من يدري لعل عنده شيئًا! ثم فتح الله عليه. أدرك أن عندي ما

سيفيده، فارعوى. ومضت الدورة، ومضى معها مشاركًا طيب المشاركة. فإذا هو أديب فيه عمق وتدفق، وعنده معرفة جيدة. وهو يعمل في الصحافة، يشغل وظيفتين في مؤسستين. وكانت صداقة دامت سنوات. والتقيت به مرات كثيرة، وما زلت على علاقة طيبة به. (أنا أحفظ جيدًا اسم الشابين، وهما الآن رجلان، ولكنني أمتنع عن تذكير أي متدرب بأنني دربته. فإن ذكر أحد أنني علمته فهذا فخر لي، لكنني لا أفاخر بادئًا).

ماذا لو صادفتَ متدربًا يفوقك علمًا، وخبرةً، وفهمًا؟

صادفت هذا في البي بي سي. كنتُ في أواسط الثلاثين من العمر. وجاءني متدرب من القسم الإنجليزي. أرسلوه ليتدرب لأن هذا واجبٌ مؤسَّسيٌّ. وبسرعة اكتشفت أنه مارَس ذلك الموضوع كثيرًا. ببساطة تركته يُفيض علينا من خبرته. وجئت لتلك الدورة بضيوف ذوي خبرة كبيرة (كان الموضوع كتابة الحديث الإذاعي)، فاستفاد منهم وأفاد زملاءه. تعلمت أن أفتّح عيني على المواهب الموجودة بين المتدربين.

عقدت دورة باسم «تدريب المدرب» حضرها، بين من حضر، ثلاثة من المتمرسين بالمهنة، وممن لا أزعم أنني أكثر خبرة منهم. دربتهم كيف يكونون مدربين إعلاميين جيدين، أتحتُ لهم أن يتحدثوا عن خبراتهم، وأن يفيدوا بعضهم بعضًا، كان هذا قبل نحو عشرين سنة. وأعرف الآن عن اثنين منهم، أحدهم أصبح رئيسًا للتحرير، وهو ناجح في عمله، وأخرى تعمل مراسلة وهي متميزة في مهنتها. كانت تلك الدورة في بداية عملي في معهد الإعلام بجامعة بيرزيت.

بعد تلك الدورة بسنة أو سنتين طلبت منا الدويتشه فيله أن نرسل مرشحًا لكي يأخذ دورة باسم «تدريب المدرب». فأرسلتُ نفسي. ليس لأنني مدير المعهد، ولا لأنني أحب أن أسافر إلى ألمانيا، ولكن لأنني كنت أمارس التدريب باستمرار.

كانت إحدى أفشل الدورات التي حضرتُها في حياتي. وكان المدرب صحفيًا فاشلًا، وذا شخصية متعالية. وشاءت الصدف أن أكون في الدويتشه فيله بعد سنوات وأن ألتقي بزميل لذلك الرجل، فسمعت عنه أحاديث تصدّق انطباعي عنه. قلت لنفسي: «لماذا يعشّش هؤلاء الناس في مراكز التدريب؟»

كان ذلك المدرب الألماني ممن يسيرون على منهج صارم، ويريد أن يحقن العقول بالنقاط والمحاور. كرهناه جدًّا، لكننا مضينا بدون شكوى، كنا من بلاد عدة: ماليزيا ونيجيريا، وبضع دول من أوروبا الشرقية، ولم يكن سهلًا علينا في تلك المدة القصيرة تشكيل حلف عليه.

حضرتُ أيضًا دورة «تدريب المدرب» في السويد. كان معهدنا يتلقى منحة سخية من السويد، وطلبوا مجموعة من الصحفيين لكي يقدموا لهم «تدريب المدرب». فذهبت برفقة الصحفيين، وكانت المدربة بديعة، من أولئك الناس غير المدّعين. ما أقلهم!

كيف تبدأ دورتك؟ ليس شرطًا أن تبدأ بالتعارف البغيض. فما أصعب على الناس النطق بأسمائهم! ترى المرء يقول اسمه متلعثمًا.. ربما كان يقوله لأول مرة بعد مغادرته المدرسة. عندنا هكذا: المرء لا يقول اسمه على الهاتف، ولا في أي لقاء. قد تكون هناك أسماء مكتوبة أمام كل

متدرب، وقد لا تكون. ابدأ بكلمات خفيفة عن الطقس، وعن عدم اكتمال الحضور، ويا ترى هل اكتملت المجموعة أم ننتظر أحدًا.. وموضوعنا كذا، ولكن نحاول أن نجعله قريبًا بقدر الاستطاعة، ولعلكم تعرفون الكثير عنه، ومن المؤكد أن عندكم خبرات طيبة. لكن من يدري، يستفيد بعضنا من بعض، تمتمات كهذه لكسر الجليد، ولكي يرى المتدربون أنك شخص عادي، حتى لو كنت غولًا. ولا تقف وقفة مسرحية؛ فهذا منفر في البداية. ولا تصنع مثلما يصنع المدربون الأمريكيون -إلا إن كنت أمريكيًا- إذ يبدأ الواحد منهم دورته فاتحًا ذراعيه، ومرحبًا بالجميع بلهجة مسرحية، وملقيًا بعض المواعظ عن الثقة، والانفتاح، ثم سرعان ما يدعو المتدربين إلى لعبة صغيرة، ويجعلهم يقومون ويغيرون أماكنهم. ولا تفعل ما يفعله المدرب العربي الذي يسير رائحًا غاديًا محركًا يديه، متدفقًا بالمعلومات النظرية التي قرأها. المدرب العربي يقلد معلم المدرسة الذي كان يفعل بالضبط كل هذا. أنا أفضّل طريقة الإنجليز.

قد يكون المتدربون قادمين من مؤسسة واحدة ويعرفون بعضهم بعضًا، فأنت إذّاك الغريب، وتمكُّنك من أدواتك التدريبية، وتحضيرك الجيد ينالان لك إذن الدخول بينهم. وقد ينتابك شعور كاذب بأنهم كتلة واحدة، لتكتشف بعد قليل أنهم لا يعرفون بعضهم بعضًا. لا تنس أمرًا مهمًّا: أنت القائد. حتى لو كان بين المتدربين من هو أسنُّ منك، أو من هو رفيع المرتبة الإدارية (رئيس تحرير مثلًا). أنت القائد في دورتك.

أُحدِّثك عن أول دورة عقدتُها في الجزيرة. في الدورة رجل أسنُّ مني، ويبدو أن مرتَّبه ضعف مرتبي. عاملته بكل لطف، وقدتُ الدورة بحزم. ورأيتُه في موضوع تلك الدورة تحديدًا فاقدًا كثيرًا من المهارات، غير

أنني حاولتُ أن أجعله يخرج من الدورة ببعض الفائدة. ولقيتُ هذا الشخص لاحقًا، بعد أن كتب ثلاث روايات، وبعد أن ترقى في المناصب خارج الجزيرة. وعرفت عن مواهبه الدفينة ما لم تُتِح لي تلك الدورة أن أعرف. من ذلك الشخص تعلمت أن الإنسان بستان من المواهب والخبرات، وأن سعة صدر المدرب وسماحته مطلوبان بشدة، وأن عليه ألا يقلل من قيمة أي متدرب ضعيف في موضوع الدورة.

بعد أن يلقي المدرب كلمات قليلة قد يختار أن يدخل بقصة. هذا شيء يتقنه الأمريكيون جدًّا، وهو من أشياء قليلة أوافقهم عليها، قُصَّ قصة... أي قصة. فكل إنسان في جوفه ذلك الطفل الذي يحب القصة. قُصَّ عليهم كيف ارتكبت غلطة كبيرة، وكيف علمتك شيئًا. قصتي المفضلة: عندما كتبت أول عنوان لي في جريدة، وكيف شطبه لي رئيس التحرير. وقد أقصُّ عليهم قصة شاب عمره نصف عمري، وعلمني شيئًا مهمًّا في الإنتاج التلفزيوني.

مثل هذه القصة تشعرهم أنك من البشر، من الخطائين. وإذا كنت غولًا، مثلي الآن، فقصة كهذه تشعرهم أنك كنت طبيعيًّا يومًا ما.

بعد القصة سيبدأ أحدهم بالمناكفة، أو سيتبرع بالكلام. أنصِت. واعلم شيئًا: المدرب الذي يتكلم طول الوقت ليس مدربًا، بل ثرثارًا. وحاول استدرار تعليق من زميل لذلك المناكف. وابدأ بتقسيم المتدربين إلى مجموعات للقيام بعمل، واجعل التنافس يتم فيما بين المجموعات لا الأشخاص. استر على الضعيف، واجعله يشعر أنه في أمان داخل أسرته التي هي مجموعته. وفي المجموعة يبدأ التعارف. قد يكون التمرين

الأول تمرينَ تعارفٍ، خصوصًا إذا كان المتدربون من الفتية، أو حديثي التخرج.

مثال: في دورة موضوعها إجراء المقابلات، ليكن تمرين التعارف أن يجلس كل شخصين معًا، وأن يتعرف أحدهما على هواية الآخر المفضلة، ويسأله عن التفاصيل استعدادًا لإجراء مقابلة تلفزيونية معه عن هوايته. ثم بعد ربع ساعة، ليقم كل زوج بإجراء هذه المقابلات. واحرص أشد الحرص على تكرار التمرين بحيث تنعكس الأدوار. فالمتدرب لا يريد أن يكون قام بنصف العمل. بعد إجراء كل مقابلة افتح المجال للتعليقات من الآخرين. وسترى بعضهم يشير إلى تلعثم المذيع، أو بخل الضيف بالإجابات، أو أن المقابلة التي دامت دقيقتين لم تفصح لنا عن شيء مفيد بشأن تلك الهواية.

احرص على مَسرَحة التمرين. هذا جيد. ضع كرسيين أحدهما يقابل الآخر أمام قاعة التدريب. وليجلس المذيع مقابل ضيفه، وأنت أيها المدرب ستتخذ دور منتج البرنامج التلفزيوني، وستشير بيدك عند انتهاء الوقت.

بعد هذا التمرين التعارفي، لنبدأ في كتابة المشكلات الكثيرة التي تعاني منها المقابلات التلفزيونية: السؤال الطويل، والجدل العقيم مع الضيف، والضيف السَّكوت ... إلخ. وليكتب المدرب هذه النقاط على اللوح، وليساعد بعض المساعدة في استخراج العيوب. ولكن من المهم أن يدلي كلٌّ بدلوه. أنت تستخرج المعرفة منهم. ثق تمامًا أنهم سيذكرون كل شيء. المعرفة كامنة في عقولهم، لا تفرضها عليهم بل دعهم يتبيَّنوها.

وبعد أن يتناولوا القهوة ويتحادثوا قليلًا. اصنع أزواجًا أخرى مع الحرص على التبديل، وعلى أن يصبح المذيع ضيفًا والضيف مذيعًا. والآن مقابلة إذاعية لا تلفزيونية. وعلى الهاتف. وفيها عنصر مفقود هو أن الجانبين لا يريان الحركات... هو الصوت فقط.

ضع أمام القاعة كرسيين يتقابلان ظهرًا لظهر. وليجلس المذيع على كرسي والضيف على كرسي. فلا يرى أحدهما الآخر. ونحن في القاعة نراهما في صورة جانبية، وبالطبع نسمعهما. والموضوع مختلف هذه المرة. فكل اثنين يتفقان على موضوع معين. مثلًا: أحدهما أراد تمثيل دور مسؤول في وزارة التربية والتعليم، والمذيع يسأله عن مشكلة ضعف الطلبة في الرياضيات، وعن الحلول الممكنة.

سيكتشف المتدربون في هذه اللعبة فرقًا واضحًا بين المقابلة على الهاتف، والمقابلة وجهًا لوجه، وسيعرفون قيمة حركات الجسم والنظر في عيني الشخص المواجه لك. وليتحدثوا بعض الوقت بعد انتهاء موجة المقابلات الثانية عن لغة الجسد وأثرها. وعن الفرق بين المقابلة وجهًا لوجه والمقابلة الهاتفية. وفي أثناء ذلك أنت تحفظ أسماء الطلبة، وتسأل باستمرار عن الاسم، وتقوله بصوت عال. فيتم التعارف.

مهم جدًا أن تستخرج ما لديهم من معرفة. وليكن في أثناء ذلك حديث قصير عن تجربة مرت بك.. عن مقابلة كنت أجريتها، أو أُجريت معك. ينتصف النهار، ويكون التعارف قد تمَّ.

ثم لا بد من تمرين عملي حقيقي. التمارين المصنوعة مفيدة، وتنتج معرفة نظرية مهمة. ولكن «الحقيقي» له طعم مختلف.

إذا كان موضوع الدورة «المقابلات» فلا بُدَّ أن يجروا مقابلات مع ناس حقيقيين: مع ساسة، وخبراء، ومسؤولين، وربات بيوت، وعمال نظافة. إحدى طالباتي قابلت بائع فلافل، وكان أول سؤال لها عن «هذا الوسخ تحت أظفارك». أرادت «بسلامتها» أن تكون شرسة ومتحدية. وبالطبع فقد أصبح الضيف عدوانيًا ولم يعطها معلومات. وهي الآن مذيعة، ومع أنني التقيتها عدة مرات، فلم أسألها إن كانت تعلمت شيئًا من انتقادي لها على ذلك السؤال.

وإذا كان الموضوع كتابة التقرير الصحفي، فليكن أحد التمارين حقيقيًا، بأن يعملوا من خلال مواد حقيقية مأخوذة من وكالات الأنباء والمقالات التحليلية.

أحيانًا نحثهم على اختراع خبر. فقط، كي يستكملوا العناصر المختلفة فيه، وكي يلعبوا. أحدهم جعل الرئيس الفلسطيني يذهب إلى غزة في زيارة مفاجئة، وجعله يموت بعد لقائه بإسماعيل هنية بنصف ساعة. لا بأس من الاختراعات ومن اللعب، لكن.. المهم أن يتم استكمال عناصر الخبر.

وفي كل الأحوال لا بد من «الحقيقي». في الخبر أعطهم فسحة ساعتين ليذهبوا ويحصلوا على خبر من الجامعة، إن كان موقعك الجامعة. وهنا إشارة تحذير: قد يكون بعضهم خجولًا جدًا، وعاجزًا حقًا عن الحصول على خبر. ابعثه مع زميل يستند إليه. هذا الشخص الخجول قد يصبح محررًا جيدًا، فلا تُوقِعه في ورطة أن يجلب خبرًا وحده. ليس كل متدرب مثل الآخر. فإذا كان المتدربون في مركز بعيد عن المدينة،

فليكن استقاء الخبر بالهاتف. دُلَّهم على مواطن روتينية لاستقاء الأخبار كالشرطة، وجهاز الإحصاءات في الدولة، وهيئة مكافحة الفساد، ومؤسسات المجتمع المدني المختلفة.

التمرين الحقيقي يستغرق وقتًا، غير أنه لا غنى عنه. المرجرين غير الزبدة.

لا تقف على رأس المتدرب، ولا تساعده كثيرًا، ولا تنفخ في أذنه المواعظ. اتركه يتعلم وحده. ليتعلم من خطئه.

استطراد: عندي مشروع سيدرُّ عليَّ الملايين. وسآخذ به براءة اختراع أولًا حتى أضمن حقوقي. هل تظنني ساذجًا لأقول لك تفاصيله؟ نعم أنت تظنني كذلك، فالمدرب يعطي، ولا يبخل بما يعرف. سأفصِّل لك القول في مشروعي بعد قليل.

أن يتعلم المرء وحده أفضلُ من أن يتعلم على يد معلم، وفي مشروعي سألغي القيود. هل أنت جاهز لسماع مشروعي العالمي؟ أنا غير جاهز بعد.

عندما بدأتُ أعلِّم نفسي الخط العربي أصررت إصرارًا حماريًّا على ألا أتعلم على أستاذ، فاستغرقني الأمر وقتًا طويلًا جدًّا. كان أفضلَ لو تعلمت على أستاذ. لكنني غير نادم. مشروعي الكبير ليس في التدريب الإعلامي، ولا في تعليم الخط العربي، بل في قيادة السيارة.

أتمنى أن ألتقي بالذي علمني قيادة السيارة لكي أوسعه تقريعًا. كان يجلس بجانبي، ولا يتركني أتعلم وحدي.

سأشتري قطعة أرض كبيرة بمساحة ملعبي كرة قدم. وأصنع فيها شوارع، ومنعطفات ومرتقيات ومنحدرات ... إلخ. وسأشتري مئة سيارة، وأزودها بمطاط سميك من كل الجوانب. ويأتي المتدرب الجديد فيأخذ درسًا مع مدرب لساعة، يدله فيه على الدواسات. ثم يتركه وحده يسوق كيفما شاء. فقط. انتهى.

أليس مشروعًا عظيمًا؟ ربما هو كذلك لمن هم مثلي يصرون على التعلم وحدهم. ولكن في البشر تفاوتًا. بعضهم تربى على أنه لا يتعلم إلا بالعصا، وإلا بالنقاط والمحاور التي يحفظها حفظًا.

الأطفال ليسوا كذلك. الطبيعة ليست كذلك. هل حفيدتي البالغة خمس سنوات - والتي تتكلم أكثر من قاض معزول، وتأتي بتعبيرات هي في قمة الفصاحة والضبط - قد تعلمت بالمحاور؟ بل حفيدتي تعلمت من الهواء.. من الناس، باختصار: تعلمت.. وحدها.

تعليم كل شيء يكون بأن تمارسه، لكن سوء التربية يجعلنا نصرُّ على تعليم الناس بطريق المحاور والنقاط والتحفيظ. ولعل هذا هو سبب «الإبداع العلمي العظيم» لشعوبنا العربية في حاضرها المجيد.

لم أصبح مدربًا في البي بي سي إلا بعد أن استوفيت الدورات المطلوبة وكلها تحتوي على الممارسة. أخذتُ كل الدورات، ونلتُ في القسم العربي المنصب الملائم، فلم أعد مساعد مُنتِج ولا مُنتِجًا بل كبير مُنتِجين، ثم طلبوني للتدريب فلبيت. فهل كانت الدورات التي أخذتها مليئة بالمحاور؟ كانت أولًا بلا محاور البتة، وثانيًا كان ممنوعًا منعًا باتًّا توزيع شهادات. أذكر زميلًا لي من تشيلي في ذلك المركز «بي بي سي

وورلـد سـيرفس تريننغ»، قال فـي الاجتماع الصباحـي للمديرة غوينيث: «كثيـرون مـن المتدربين يسـألون إن كان يمكن منحهـم شـهادات». فكان الجواب قاطعًا كحد شفرة المونتاج التي كنا نحرر بها الأشرطة. قالت له غوينيـث: «لا يحلُمـنَّ أحـدٌ بهـذا. نحـن لا نـدرب النـاس لكـي يجمعوا الشـهادات. يأتـون إلـى هنا كـي يتدربوا فقـط». ولم تسـمح غوينيث بأي نقاش في الموضوع.

وها أنا قد أخذت الدورات المطلوبة وليس معي قصاصة تثبت ذلك. مـا كان أجمـل ذلـك التدريـب! وصرت مدربًـا في البي بي سـي. لم أكن أجعـل المتدربين يكتبون شـيئًا من كلام المـدرب أو الضيف الخبير. كله كان شفهيًّا.. تمامًا مثلما تعلمت حفيدتي الكلام. ولم يكن هناك امتحان. فقط مشروع عملي.

انقطاع قصير: كسوت وجهي بالكولونيا، فقد شممت رائحة عفن وأنا أتكلم عن «المحاور».

يبـدو أن الـدورات ضرورية. وإلا كانت زالت عـن وجه الأرض. هي موجـودة. ومن بعض غرض هذا المقـال أن يحاول عقلنتها، وتبيان كيف يمكن التخفيف من ضررها.

هـل تراقـب أيها المدرب أفـواه المتدربين؟ راقبهـا. وعند أول تثاؤب العن نفسك. فإن تكرر التثاؤب فقد أزف وقت القهوة. واصنع شيئًا. أنت لسـت مدربًا فقط، أنت «بيبي سِـتَّر»، عليك أن تسـلّيهم أيضًا. فهل تعرف كيف تسلّيهم دون أن تخرج عن موضوعك خروجًا فجًّا؟

الطريقة الفضلى أن تجعلهم يشتغلون بأيديهم.

قال فريدريش إنغلز رفيق ماركس: «إن عقل الإنسان تطور عندما تطورت يده، وصار الإبهام قادرًا على مواجهة بقية الأصابع للإمساك بالأشياء وتحريكها والتحكم بها».

يقول مدربون كثر: إنهم يفضلون من لا يعرف على من يعرف الغث والسمين. وهذا صحيح من تجربتي. وتعليم خرّيجي كليات الإعلام الإعلام أصعب من تعليم شبان وشابات في الثامنة عشرة. أقول هذا ويدي على المصحف.

المتدرب الذي ملأوا عقله في الكلية بشتى المحاور مثل ذيل الكلب، تحاول وضعه في قالب لكنه يعود للالتواء.

وقد حضرت في زمني، وفي أكثر من مؤسسة، مجالس توظيف. كان يدخل المرشح للوظيفة الإعلامية المجلس ونبدأ بتصفح ملفه. وننظر في مسيرته الأكاديمية، فإذا كان قد تخرج من كلية الإعلام، رفعنا حواجبنا، ثم أرخينا أجفاننا، وحوقلنا. وفي الغالب تكون دراسته في غير صالحه.

اجعل لدورتك شكلًا: اصنع لدورتك هيكلًا. وليعرف المتدربون من الربع الأول من الدورة (من اليوم الثاني مثلًا لدورة طولها خمسة أيام) أنهم في طريقهم إلى إنجاز مشروع معين، هذا يحقنهم بقدر من التوتر المفيد. لا تجعل دورتك لوحة تجريدية ليس لها أول من آخر. اجعل لها شكلًا. لتكن مليئة بالنتف الممتعة مثل مسرحية كوميدية، لكن.. حتى المسرحية الكوميدية تحتاج إلى قصة، كي تسهل متابعتها. مسرحية **شاهد ما شافش حاجة** لها قصة. ونحن ننتظر براءة عادل إمام طوال الوقت، لكننا نتسلى بالنكت والمواقف المضحكة.

كثيـرون مـن المدربيـن بارعون في خلق أجـواء مسـرحية يحتفي فيها المتدربـون، ويصفقـون لأعمـال زملائهم، ويعيشـون أجـواء النصر. هذا جيد إن لم تكن فيه مبالغة. ولا غنى عن الهيكل. ليكن في آخر أيام الدورة إنجاز معين.

نظـام الدوائـر الرسـمية العربية القائم علـى الأوامـر والنواهي، وعلى تسـلط المسـؤول، وتقزيمه لشخصية المرؤوس، ليس خير نظام في مركز للتدريب.

لديَّ إيمان راسـخ بمسـألتين: بأن المـرء يتعلم وحده، وبـأن المُحَرِّك الحقيقي للتعلم هو الرغبة.

الرغبـة قـد يكـون أساسـها الحاجـة. فالذي وجد نفسـه محاضـرًا في مؤسسـة جديـدة وعليـه أن يثبت نفسـه، قد يتعلـم أمورًا مـا كان يحلـم أنه سيتعلمها، أو أنه سيرغب في تعلمها.

عندمـا التحقـتُ بالقسـم العربي في هيئـة الإذاعـة البريطانية، وجدت نفسـي إزاء برنامـج حاسـوبي - ولـم يكن بـدأ أيامئذ لا الحاسـوب البيتي المعروف، ولا الإنترنت - كان هناك نظام بدائي تلقنه «الأوامر» ويعطيك الأخبـار وتقاريـر المراسـلين الإنجليز كـي تترجمها. جلسـت إلى كتاب **تعليـم النظام الحاسـوبي** ذاك ليلة ليـلاء، خرجت منها عارفًـا بالتفاصيل، ومع الممارسة أتقنت الأمر في يومين. هذه رغبة نشأت عن حاجة لا عن هوى.

نضطر في أشياء إلى التعلم على يد معلم. وهذا التعلُّم يشبه سير السيارة التـي يزقُّهـا رجـلان قويـان والسـائق بالداخـل يعافر مـع دواسـة البنزين،

والسيارة تقول «خشخشخش». والذي يتعلم وحده وفي جوفه رغبة حارقة هو مثل سيارة تنطلق كالسهم. وهي بالمناسبة تقول «فوششش».

أجد مهنة المدرب صعبة، وأفضِّل عليها أن أستكشف الشغف الكامن في الإنسان وأقوم بتوجيهه بكلمات قليلة، وبرعاية ودودة كالآباء. أو -إن شئت- كبشَّار بن برد في اصطياده للنساء. فطريقته هي أن يزرع في عقل الفتاة كلمة غزل، ويتركها تتفاعل، أو بتعبيره «عرِّضَن للذي تحبُّ بحبٍّ، ثم دعه يرُوِّضُه إبليسُ». يتركها تتقلَّى بدهنها، فعسر النساء، بكلماته أيضًا، يؤول إلى مياسرة.

عليَّ أن أصبح شيئًا آخر سوى «المدرب الإعلامي». قد وجدت روحي متأخرًا.

ليس متأخرًا جدًّا، ففي السنين الماضية كنت أنغمس فيما هو شرٌّ من التدريب. كنت أشتغل في الصحافة، وعلى وجه الخصوص في الإدارة الصحفية. وجاءني هذا بمال طيب، أعاش أسرتي عيشة راضية، وترك لي ما يحمل شيخوختي. وفي خضم هذا النوع من العمل، كنت ألتقي بأشتات الناس، وأتفاعل مع مشكلاتهم. هذه خبرة وحياة. وحان أن ألتفت إلى أمور أخرى.

الحرية البغيضة: قال صاحبي: إنهم اجتمعوا إلى أمهم عقب وفاة أبيهم، وقالوا لها: نخصص لك المبلغ الفلاني كل شهر. وقال لي: إنهم تواضعوا على مبلغ جيد يقوم بها ويكفيها، وكانوا من ذوي اليسار. أرادوا خيرًا، فتبين لهم أنه شر. قالت لهم: لا أريد. بل تحضرون لي الخضار واللحم، وتفتحون لي بيتي. وفتحوا لها بيتها.

شعرت تلك الأرملة بالحرية مقبلة عليها، وخافت. معها حق، لم تتعود أن تحمل مسؤوليات مالية.

وقال أحمد شوقي: إن الحمار والجمل هربا من سيدهما. وفي منتصف الطريق قال الحمار: (لا بد لي من عودة للبلدِ/ فإنني تركت فيه مقودي)، فأما الجمل.. (فقال: سِر، والزم أخاك الوتدا/ فإنما خلقتَ كي تقيدا). الحرية مسؤولية. وفي العلم، الحريةُ باب الفهم.

ما رأيك؟ أليست الحرية صعبة. وما قولك في طريق آخر؟ عرفتَ طبعًا ما أريد! طريق المحاور.

لا ألوم حمار شوقي. ولا تلك الأرملة. لكن، في العلم، لا سبيل للمحاور. لا بد من تعمق، ولا بد من فهم، ولا بد من ممارسة.

يأتيك المتدرب محمَّلًا بقمامة كلية الإعلام، ويبدأ يحاججك في مسألة قال له أساتيذه: إنها في غاية الأهمية. يقول لك: «من الخطأ الشنيع أن تبدأ الجملة باسم. ففي اللغة العربية -ويملأ شدقيه وهو يقول: اللغة العربية- لا توجد جملة تبدأ باسم». هل تقول له إن القرآن يبدأ باسم: «الحمد لله رب العالمين»؟ أم تنفعل، وتأخذ في شتم أساتذة الإعلام؟ أم تتلطَّف به، وتُلاينه؟ أنا أحيانًا أفضل العصا. أفضل أن أحمل عصا غليظة لأساتذة الإعلام في الجامعات. ولكنني اضطررتُ على مدى سنوات طوال إلى الملاينة. وإلى محاولة زحزحة المتدرب عن هذه الدوغما السخيفة. وكنت أحيانًا أشرح ضرورة البدء باسم في التلفزة كي يجاري النصُّ الصورة، وضرورته في الإذاعة لإبراز المهم، وضرورته في عنوان الجريدة للاختصار. كنت أسلك سبلًا شتى. أشرح لذلك المتدرب كثيرًا

ويحاججني، ويهز رأسه غير مقتنع. فأستاذه قد حفَّظه تلك القاعدة الصلبة تحفيظًا، وهات حاول يا مدرب أن تزحزحها؛ لقد تحولت في رأسه إلى حجر.

أنا مع الحفظ، مع حفظ آيات القرآن، وأبيات الشعر، ومع حفظ أن مساحة المثلث نصف مضروب القاعدة في الارتفاع. لكن الحفظ بلا فهم مصيبة.

لماذا يأتيك المتدرب؟ يأتيك لأن رئيسه في العمل أرسله. ويأتيك لكي يضم إلى ملف سيرته الوظيفية ورقة جديدة بدورة جديدة. ويأتيك ليستفيد. وهنا المعضلة. هل تقف أيها المدرب أمام المشاركين في الدورة لكي تفيدهم حقًّا؟ أم أنت تنغمس في استعراض قدراتك ومعلوماتك؟

من الخير أن توحي للمتدربين بقدراتك، فهذا يمنحهم الثقة، ويفتح عندهم الباب لاستقبال ما تجود به. لكن، حذار من الانغماس في هذا المستنقع! ضع نصب عينيك دائمًا أنهم أذكياء، ذلك الذكاء الفطري الذي يخبرهم بحقيقتك. هم يريدون فعلًا أن تكون كبيرًا وعميقًا؛ لأن الإنسان مثلما عنده غريزة التسلط عنده أيضًا غريزة الانقياد. هم يريدونك قائدًا، وقائدًا قويًا. وكما نقول للمذيع دائمًا: «إياك أن تسلم الميكروفون لِلضيف، حتى لو كان رئيسًا أو ملكًا، أنت القائد»؛ نقول للمدرب: «أنت القائد».

تعلمُ ولا شك أن كل ما عندك موجود على النت. فلماذا تعقد دورة أصلًا؟ لماذا لا تطلق المتدربين لكي يبحثوا في النت؟ أو لعلك تجمع

كل المواد وتعطيهم إياها على فلاشة وتريح رأسك! هنا مسألتان: الأولى أن الدورة ليست حَقن معلومات في رؤوس المشاركين، ولا هي تدريس وحفظ، بل هي قطعة من الحياة. مع أول يوم من الدورة ينشأ مجتمع جديد. ويقبل المشاركون عليه بوجل، وبملل، وبتوق لإثبات ذواتهم، وبشتى المخاوف والرغبات. يعيشونه. ومثلما تعلمت حفيدتي الكلام في المجتمع، فليتعلم المشاركون في مجتمعهم المؤقت هذا. اجعلهم يعيشون فيما بينهم، ومعك.. وليس معك فقط. لا تجعل العلاقة خطوطًا واصلةً بينك وبين كل متدرب، بل اجعلها خطوطًا أكثر تصل بين كل متدرب وزميله، بين الفتيان والفتيات، اترك لهم حيزًا ليكرهوا ويحبوا بعضهم بعضًا، وليشكلوا تحالفات خفية. فسحة القهوة مهمةٌ أهميةَ دروسك وتمريناتك.

المتدرب يأتيك كي يتسلى، وإلا فما تظن أننا نفعل في هذه الدنيا الدنيّة؟ نحن نعيش ونحرص على نيل أكبر قدر من التسلية، نحن في حياتنا ننفق القسط الأكبر من الوقت ونحن نحاول نسيان الموت. فاجعل دورتك قطعة من الحياة.

ماذا تعطي المتدرب؟ تعطيه معلومات، هذه مفهومة. ولكنك أيضًا تريد أن تحوِّل هذه المعلومات إلى مهارات، لهذا خلق الله التمرينات. نصنع لهم تمرينات تشبه الحقيقة، وقد نفلح في زجِّهم في مواقف حقيقية. ثم نريد أن ننتقل من طور تعزيز المهارة إلى طور أعلى.

التدريب ثلاثة أطوار: أولًا المعرفة، وثانيًا المهارة، وثالثًا التطبُّع. وهذه الثالثة تعني أن تصبح المهارة كأنها طبع في المتدرب يمارسها دون

تفكيـر، ودون تـردد. قليلة هي الـدورات التي تنجح فـي تعزيز المهارات بالقـدر الـذي يُبقيها حيَّة في النفس. على أن ما لا يُدرك كلُّه لا يُترك جُلُّه، ومـن المهم أن يسـعى المدرب إلى فتـح الأعين على المهـارات، والبدء بتطوير ما تيسر منها.

تلـك الأوراق التي يوزعها المدربون: خير هذه الأوراق ما كان خاصًّا بالتمارين، بحيث يكتب المتدربون عليها أشـياء، ثم إلى سـلة المهملات قبل انقضاء اليوم. فأما المدرب الذي يعطي مشـاركيه شـتى الأوراق التي تحتوي على معلومات وفصول مصورة من كتب فهو يعرف، أو لا يعرف، أن هذه طريقة عقيمة في التعليم، ولكنها، ويا للسخرية، تجعل المتدربين يشـعرون بأن الدورة «فيها شـيء».. هناك شيء ملموس يأخذونه بأيديهم ويضعونه في محافظهم (بالطبع مصيرها إلى سـلة المهملات طال الزمن أم قصر، ولن يقرأوها). ليكن للورقة التي توزعها على المشاركين علاقة بالجلسة التي توزع فيها الورقة. الدورة ليست سلسلة محاضرات يأتي في ختامها امتحان، وليسـت فيها واجبات بيتية. لكن، مسـموح فيها بالهموم البيتيـة: أي أن تجعـل المتـدرب يفكر في المسـاء بالدورة وبما سـيفعله، وبالمشروع الذي سيقوم به.

المـدرب نبيًّـا: فتحـوا قلوبهـم ليسـمعوني، فتكلمـت ثلاث سـاعات متواصلـة. أحسسـت أنني يسـوع فـوق جبله يكرز. وسـرعان مـا ندمت. فأغرقتهـم بالتمارين، ثم اشـتغلت معهم. كان ذلك فـي محطة تلفزيونية. جيء لي بمعظم العاملين فيها، فوعظتُ كثيرًا كما شاءوا، ولكنني قضيتُ ما تبقى من الأيام الثلاثة في شغل شاغل. في كل يوم اشتغلنا ثلاث عشرة ساعة. وانتهت الدورة التي هي من نوع «عقر الدار». كثيرة هذه الدورات

التي يغزو فيها المدرب الناس في عقر دارهم، فيعلِّم كأنه السيد المسيح مثلما فعلت، ويعطي التمارين مثلما فعلت، ويشتغل معهم مثلما فعلت. لكنني لا أنصح المدرب بأن يفعل مثلي ويقف على قدميه ثلاث ساعات واعظًا، حتى لو أبدوا له حسن الاستماع. وعمومًا فالله يغفر ما هو أسوأ من ذلك.

في تلك المحطة التلفزيونية كان ثمة تعطُّش، وبدا ذلك واضحًا أكثر وأنا أشتغل معهم. وقد أكرموني حدَّ الخجل، ليس لأنني كنتُ متبرعًا بالدورة، بل لأنهم كانوا معنيين بما يعملون، والمحطة كانت تصعد. نسيت إن كنت أعطيتهم أي أوراق. وأرجو ألا أكون فعلت.

في محطة أخرى كنت أبحث عن الناس في الممرات لكي أدربهم. ورزقني الله بفتى وفتاة التصقا بي التصاقًا، وأخذا مجموعة نصائح لا أدري إن كانت مفيدة أم لا. فرقٌ بين أن تذهب إلى محطة تريدك ومحطة تراك شرًّا لا بد منه. في تدريب «عقر الدار» كن نبيًّا، عش معهم واحدًا واحدًا وفريقًا فريقًا، وكن القدوة الحسنة، وتوقع أن يرجموك بالحجارة... غالبًا لأن الإدارة سيئة ومعنويات العاملين هابطة.

أول ما يميز التدريب في «عقر الدار» أن المتدربين غير متفرغين لك. فهم يتدربون في أوقات الفراغ فيما بين البرامج والنشرات. ويميز هذا التدريب أن كل متدرب يريدك أن تشهد له أمام رئيسه بأنه متفوق.

«جلسة التشريح» توفر مجالًا جيدًا للتدريب في «عقر الدار». آخر تدريب من هذا النوع مررتُ به كان قبل نحو ستة أشهر. المتدربون ستة أو سبعة، وهم يُنتجون برنامجًا إذاعيًّا يوميًّا طوله ساعتان، حيًّا على

الهواء. كان التدريب مقسومًا على جلستين بينهما شغل، جلسة في الصباح أثناء الإعداد للبرنامج، ولا تخلو من بعض النقاش العام، ثم يذيعون برنامجهم وحدهم، وأنا أستمع بعيدًا. وفي جلسة التشريح كانوا يلتقطون أخطاءهم خطأ خطأ دون أدنى حاجة للمساعدة من جانبي. وما كنت أتكلم إلا لأن شهوة الحكي كانت تغلبني. كانوا أعرف مني بأخطائهم.

مصارحة: المقال الذي فرغت لتوّك من قراءته كان يملأ ٥٤ صفحة على حاسوبي، ورميت بثلثيه في عملية تحرير قاسية، فما قرأتَ إنما هو الثلث. كنت أريده كتيبًا عن التدريب الإعلامي، ثم عدلتُ عن ذلك ورميته في حاسوبي. فإن وجدتَ في المقال قفزات فهذا ليس بسبب عملية التحرير، إنما لأنني هكذا أكتب، بتحرير وبغير تحرير.

الصحفي الشامل

للتخصص مزايا، وللموسوعية مزايا.

يصدق هذا في الطب وفي علم اللغة، ويصدق في كل علم، وفي كل صناعة.

في الصحافة تجد المتخصص في جانب محدد لا يكاد يتجاوزه إلى غيره إما تقصيرًا وإما لقلة الحاجة إلى ذلك، وتجد الذي جمع من كل روضة زهرة، إما لأن ظروف عمله اضطرته إلى أن يصنع أشياء مختلفة، وإما لأنه لا يحب أن يتخصص.

وقد انتقد أوائل الاشتراكيين الرأسمالية، من ناحية ميلها إلى التخصص، انتقادًا كان الباعثُ عليه إنسانيًا. قالوا: إن مما يؤذي الإنسان أن يقوم بعمل رتيب متكرر طوال الوقت. وإن مما يزيد من إنسانيته وسروره أن يقوم بمراحل العمل المختلفة حتى يرى في ختامها ثمرة جهده فيشعر بتحقيق الذات. ولئن كان ذهن أولئك المنتقدين منصرفًا في الأساس إلى عُمَّال المصانع ممن يعملون حركة واحدة لا يُغيِّرونها طوال نهارهم، فالنقد يصدق على مستويات أخرى.

عندما كان الأمريكي بنجامين فرانكلين يصدر جريدته، قبل نحو مائتي سنة، كان يكتبها ويصفُّ حروفها ويطبعها بيديه. الصحفي الشامل مطلوب في الدول المتخلفة والمتقدمة على حدٍّ سواء.

شهدت بنفسي موجة من المطالبة الإدارية بتدريب الصحفيين ليكونوا من نمط الصحفي الشامل في دولة من دول الغرب الصناعي هي بريطانيا. كنت أعمل في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية.

عندما بدأت عملي في عام ١٩٨٨ كان مطلوبًا أن أُترجم من الإنجليزية إلى العربية، وأن أقدم بعض التقارير على الميكروفون. سارت الأمور على هذا النحو حينًا من الزمن. ثم أطلقت الإدارة شعار «الصحفي الشامل».

كان تفسير الشعار أشمل حتى من منطوقه. صار عليَّ ألا أكتفي بالترجمة والقراءة، بل أن أجري المقابلات الإذاعية السياسية، الأمر الذي أخرجني من عالم المترجم والقارئ، الذي يفرض التزامًا بالنص، إلى عالم الصحفي الذي لا بُدَّ له من معرفة واسعة بالأحداث وبالتاريخ المعاصر لاثنتين وعشرين دولة عربية ولمؤسسات كثيرة، ليس أقلها أهمية الأمم المتحدة. غدا واجبًا عليَّ أيضًا أن أُدير استديو المقابلات هندسيًّا، وأن أسجل موادَّ في الاستديو الذاتي التشغيل، وهنا دخلتُ إلى مهنة فني الصوت. وطُلِبَ مني أن أؤدي مهنة المذيع كاملة بما فيها من مراعاة للزمن وإعداد وتقديم عروض البرامج، وتقديم البرامج الإخبارية. ثم كان لا بد في مرحلة لاحقة أن أكتسب مهارات كافية في مجال الطباعة على الآلة الكاتبة الكهربائية، وسرعان ما حل الكمبيوتر محلها وغدا لزامًا عليَّ أن أتعلم تشغيل الكمبيوتر.

رغم وجود نحو سبعين صحفيًّا في القسم الذي كنت أعمل به، فقد اقتضى تطور التكنولوجيا، وطموحُ الإدارة إلى رفع مستوى الأداء،

التراجعَ عن شعار التخصص لصالح شعار «الموسوعية». والآن أنظر إلى تلك التجربة، مستفيدًا من مرور الزمن عليها، وأرى أن الموسوعية عززت قدرات العاملين، وجعلتهم صحفيين إذاعيين أفضل.

دواعي الموسوعية

إتقان المرء علومًا وصنائع شتى يجعله أقرب إلى رؤية الصورة الأعم، ويجعله أكثر إتقانًا لموضوع تخصصه. ويتم التعبير عن ذلك عادة بأن فلانًا يملك «سعة الأفق». ولكن التوسع قد يفضي، أيضًا، إلى السطحية. وأرى هذا شبيهًا بالسفر؛ فكثرة الأسفار تجعل العاقل المفكر أعمق، وتجعل الأهوج السطحي أكثر سطحية.

تفرض الجامعات على طلبتها مساقات دراسية لا تتعلّق بتخصصهم، وهي بهذا تعبّر عن يقينها بأن التوسع يخدم العمق أيضا. لو أردتَ أن تحفر في حديقة بيتك حفرةً عميقةً فلن تستطيع تعميقها كثيرًا إلا إذا وسَّعت فوهتها.

التخصص الزائف

يباهي بعض أصحاب المصالح الصحفية بارتفاع مستوى التخصص في مؤسساتهم مباهاةً ليست دائمًا في محلها؛ فهذا خبير في التركيبات الجرافية لا يصنع شيئًا سواها، وذاك مصور تلفزيوني ليس له معرفة بالإضاءة ولا بالسياسة ولا باللغة. ذلك ليس مما يُباهَى به. فالعقل الإنساني قادر على استيعاب الكثير، ومن قلة الحيلة ألا نطالبه بالتوسع مع التعمق. في كثير من المؤسسات الحكومية نشهد ظاهرة التخصص

الزائـف؛ وهـي تـؤدي إلى توظيف أشـخاص كثيرين لتسـليك عمل دائرة معينة، مع أن عددًا أقل بكثير يمكن أن يقوم بالعمل لو كان لديهم المعرفة والمهـارات اللازمـة. التخصـص الزائد قد يكون مفتاح الكسـل، وعلامة على التبذير وسوء الإدارة. على أننا لا نغفل العكس.

الموسوعية الزائفة

قـد يرى المـرء محطة تلفزيونيـة يعمل بها عدد قليل من الأشـخاص؛ كلهـم يصـور، ويجري الحـوارات، ويشـتغل بالمونتاج، ويصلـح أجهزة البـث. ومـن المؤكد أن مسـتوى الأداء فـي كل مهمة سـيكون أقلَّ مما لو توافـر التخصـص. ولعـل الوصفـة التـي تحقـق التـوازن هـي أن تتوافـر الموسوعية مع وجود حقل اختصاص في الوقت نفسه، وعند كل شخص، كأن يكون الشـخص متخصصًا في التصويـر التلفزيوني، ولكنه قادرٌ على أداء أعمال أخرى وقت الحاجة.

في كل وضع وزمن هناك قياس مختلف لدرجة التخصص المطلوبة. في الماضي كان نيوتن وغاليليو موسوعيين، وفي زمننا لا نكاد نجد أحدًا مـن العلمـاء يصـل إلى اختـراع أو اكتشـاف بمفـرده. لقد زاد كثيـرًا تطور العلـم، ولكن اختفت أسـماءُ مشـاهير العلمـاء، فهم يعملـون ضمن فرق كبيرة فيها تخصصات مختلفة.

وفـي الصحافـة، قد يحتاج المرء إلى أن يكـون بارعًا جدًّا في موضوع بعينه حتى يشـتغل في جريدة كبيرة. ولكنه يجب أن يكون ملمًّا بمواضيع كثيرة إذا أراد أن يعمل في جريدة محلية صغيرة.

مهارات الصحفي الشامل

تُحدِّثنا النادرةُ، أو لعلها الأسطورة، أن يونس بحري -الإذاعي العراقي المشهور الذي كان يعمل في إذاعة برلين قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها موظفًا في الجهاز الدعائي لغوبلز وزير الدعاية النازي- كان إذا علقت أسطوانة القرآن في الفونوغراف رفع الإبرة برشاقة وأكمل التجويد بنفسه، فلا يشعر المستمع بأن شيئًا قد حدث. وهذا يقتضي أن بحري كان يحفظ القرآن، وأنه كان يقرؤه مجوَّدًا بإتقان يقرب من إتقان المقرئ.

هذه الحكاية، وقد سمعت إذاعيين يرددونها بإعجاب، تشير إلى الاحترام الذي يتمتع به المذيع الموسوعي. كان يونس بحري، بعيدًا عن الحكايات التي لا نملك لها توثيقًا، واسع الاطلاع مثقفًا حقًّا. ولكن كما رأينا، فقد وضع كل هذه القدرات بين يدي نظام ديكتاتوري عنصري. إذن، فليكن «فهم الرسالة» أولَ ما نبدأ به ونحن نعدد مهارات الصحفي:

١ - **فهم الرسالة**: على الصحفي أن يعرف جمهوره، وأن يعرف واجبه إزاء هذا الجمهور. فالذي يوجِّه خطابًا إعلاميًّا لعدوه، يختلف عمَّن يوجِّه كلامه لأبناء بلده، وعمن يخاطب جمهورًا مركبًا كمراسل الفضائية. وقد يضطر الصحفيُّ إلى عدم الالتزام تمامًا بمبدأ «قل الحقَّ، كل الحقِّ، ولا شيء غير الحقَّ». ترى أجهزة إعلام وطنية تمنع الصحفي العامل معها من تغطية بعض المشاكل في داخل البلد، فهو عندئذ لا يقول «كل الحق». لا بأس.. المهم ألا يكذب. هناك فرقٌ بين مؤسسة صحفية تخدم الوطن، وأخرى تخدم الحكومة، وثالثة تخدم جناحًا معينًا داخل الحكومة. وأُفضِّل مؤسسةً رابعةً وأُقدِّمها حتى على التي تخدم الوطن: مؤسسة صحفية تلبي حاجة المواطن للمعلومات والأخبار.

ومن أهم مشكلات صحافة الدول المتخلفة أنها لا تهتم كثيرًا بمعرفة جمهورها وبمخاطبته بصدق وإعطائه ما يحتاج إليه من معلومات. وفهم الرسالة وتمثلها يحتاج إلى تدريب وإلى غير قليل من الجهد الأصلي في صياغة الرسالة.

٢- **اللغة الأم**: يحتاج الصحفي إلى إتقان لغته الأم بحيث يؤدي بها المعاني بدون خطأ، وبدون أن يضطر إلى تغيير ما يريد قوله فقط لأن اللغة لا تطاوعه. صاحب اللغة السليمة ترتفع مصداقيته. ويحتاج الإذاعي من النحو والصرف إلى أكثر مما يحتاج إليه الصحفي الكاتب. وقد يحتاج إتقان العربية إلى زمن طويل ممن لم يُنشَّأ على الفصحى، وقد رأيتُ صحفيين شاخوا في المهنة ولما تعتدل العربية على ألسنتهم أو على سنِّ قلمهم. لغتنا الفصحى لغةٌ أجنبيةٌ نكتسبها في الأكثر تعليمًا لا فطرة. ومشكلتنا، نحن العرب، مع اللغة أكبر من مشكلة أقوام آخرين.

٣- **اللغة الأجنبية**: لم يعد الصحفي جديرًا بالترقِّي في مهنته ما لم يملك زمام لغة أخرى وأخص الإنجليزية، أو بدرجة ثانية الفرنسية. مهمٌّ أن تصبح اللغة الأجنبية مفيدة كمصدر للمعلومات. بلدنا في وسط العالم، وهو محطُّ اهتمام العالم، ولا سبيل إلى التغاضي عن ضرورة إتقان اللغة الثانية. الوصول إلى «فَوق» في مهنة الصحافة لن يتم بدون لغة أجنبية.

٤- **الكتابة**: ليس سهلًا أن يتعود المرء الكتابة السهلة التي ليس فيها تزويق ولا كليشيهات. ليس سهلًا أن ينتقل المرء من موضوع الإنشاء -الذي تراه أكثر مدارسنا محض كتابة مزوقة فارغة من المعنى- إلى

الكتابة الصحفية الجيدة. أهم مُعلِّم للكتابة الجيدة قلم رئيس التحرير الذي يشطب بلا هوادة.

٥- **الثقافة العامة**: الصحفي قد يعمل في الأخبار، أو في تحرير الصفحة الثقافية، أو في تقديم وإعداد البرنامج الصحي في الإذاعة. لا غنى عن الثقافة العامة، حتى لمن يعمل في الأخبار. الثقافة العامة تضم الموسيقى، وقد رأيت مذيعين يعملون في إعداد البرامج الموسيقية وهم لا يحبون الغناء ولا الموسيقى ولا يفقهون شيئًا في الموضوع، ورأيت كيف تخرج من بين أيديهم برامج سيئة. الفنون التشكيلية جزءٌ من الثقافة. العلوم الطبيعية جزءٌ من الثقافة. والجغرافيا فرع من الفروع لا غنى للصحفي بحال عنه. وفي الجغرافيا جانب بسيط يهم الصحفي كثيرًا وهو تصور الخريطة في الذهن. معرفة الخريطة تمثل إطارًا يضع الصحفيُّ فيه معلوماته عما يجري في العالم.

٦- **معرفة البلد**: على الصحفي أن يعرف ما بالبلد من مؤسسات وأفراد. وأن يتعمق في فهم دورها ونشاطاتها، وسلبياتها. ففي الصحافة، إذا بُنِيَت عمارة فهذا ليس خبرًا، أما إذا انهارت عمارةٌ فهذا خبر. إن معرفة الصحفي بمواطن الخلل في بلدية أو وزارة يساعده في تغطية انهيار العمارة، أو استقالة الوزير، أو الفضيحة المالية ... إلخ.

٧- **أساس المهنة**: كيف يُجري الصحفيُّ الإذاعي مقابلة ناجحة، وكيف يجعل سؤاله قصيرًا واضحًا مفردًا منتهيًا، لا طويلًا غامضًا مزدوجًا يجر نفسه جرًّا حتى يتبرع الضيف بمقاطعة الصحفي السائل؟ هذه ليست موهبة. إنها مهارة قائمة على معرفة. يحتاج الصحفي إلى أن يتدرب،

وإلى أن يسمع نفسه، وأن يسمع انتقادات رؤسائه. عليه في مجالات شتى أن يصل إلى معرفة الأسس، ثم أن يُحَوِّل معارفه إلى مهارات، ثم أن يحول مهاراته إلى سلوك يأتي طبيعيًا تلقائيًا. ومن الأسس التي قد يجدها الصحفي في الكتب ما يتعلق بالموضوعية والحياد ونكران الذات، بحيث لا يعطي الصحفيُّ رأيه هو، ومنها طريقة التعامل مع استطلاعات الرأي، وكيفية تغطية الانتخابات، وكيفية التعامل مع الأطفال، ومنها قانون التشهير وكيفية الالتزام به، لكن دون الخوف الذي يجعل الصحفي مشلولًا غير قادر على تغطية شيء. ومن قواعد المهنة معرفةُ كيفية الجمع بين المعلومة والخبر والتسلية جمعًا ناجحًا. هذه الأمور تُعلِّمها كلية الإعلام الجيدة (هل هناك شيء كهذا؟)، ولكن خير من يُعلِّمها المؤسسة الصحفية القوية المحترمة في خضمّ العمل. ولم أجد جامعات بلادنا تُعلِّم أساس مهنة الصحافة جيدًا، وأما عن مؤسساتنا الصحفية فلم أجد القوية المحترمة بعد.

٨- **المهارات التقنية**: إتقان العمل على الكمبيوتر والطباعة واستعمال الإنترنت غدت من أساسيات كل شيء. كاتب المقال الذي يأتي به إلى الجريدة كومةَ أوراقٍ شخصٌ انقرض.

٩- **المتابعة**: الشاعر الحالم الذي يقرأ الدواوين والروايات، ثم لا يعرف في الدنيا شيئًا آخر، مخلوق رأيناه يطرق أبواب الصحف، ورأيناه يصرُّ على وجوب أن يحتلَّ أرفع المناصب، ورأيناه أحيانًا يطالب أن يكون محرر الصفحة الأدبية. لا ينفع. لا ينفع حتى للصفحة الأدبية. فالصفحة الأدبية -نعم حتى الصفحة الأدبية- هي خبر ومتابعة، وليست لمجرد نشر الأشعار والخواطر. على الصحفي أن يكون عارفًا بما يجري،

وأن يقـرأ الجريـدة كل يوم، وأن يتابع التطورات في كل العالم ولا سـيما في بلده. وعليه أن يتابع الشـائعات وهمس الكواليس، وهو مطالب طبعًا بتجاهل كل ما لا يرقى إلى مرتبة الحقيقة، ولكن الشائعة قد تكون صادرة عن مكان فيه خبر ما.

١٠- **السرعة والإحساس بالزمن**: ربما لا يرضى الصحفيُّ عن تقريره، لا مـن ناحيـة الصياغة ولا المعلومات، ولكنه في النهاية مطالب بتسـليمه فـي الموعد. التقرير إذا بات مـات. قد يكون على الصحفي أن يحذف ما لـم يتمكـن من تأييـده بالمصدر الملائـم، وأن يقدم مادةً غيـر مترابطة في صياغتها كل الترابط. لكنه دائمًا يجب أن يكون سريعًا في العمل، وشديد الحساسـية تجـاه الموعـد (موعـد إذاعـة البرنامـج، أو موعد دفـع المادة للمطبعة).

أخيرًا: تلك كانت عشر مهارات. لكن لو كددت الذهن لكنت خرجت بثـلاث أو أربـع أخـر. أن تصنع من نفسـك صحفيًّا أمر يحتـاج إلى جهد. وقـد رأيـتُ عـددًا مـن خرِّيجي الصحافـة يتحدثـون عن أنفسـهم وكأنهم صحفيون، ورأيتهم يشـتكون شـكوى مرَّة؛ لأن أصحاب المؤسسـات لا يوظفونهم. من أراد من الصحفيين الجدد أن يعرف قدر نفسه فلينظر إلى المهارات العشر أعلاه.

المدير جمرة كبيرة

«أنا لا أشتغل بيديّ، أنا مدير»، و«الذين تحت يدِي يقومون بالعمل»، و«أنا فقط أشرف عليهم»، ما رأيك بهذه الأقوال؟ صدِّق أو لا تصدِّق: فيها قدر كبير من التفكير السليم.

نحبُّ أن يكون المدير بيننا، وأن يوسِّخَ يديه بالعمل معنا أحيانًا. لو أمسك مراقب العمال بيده الـمِجرفة ذات يوم، وأخذ يسَوِّي الحصى «الملغمَطَ» بالزفت أثناء تعبيد الشارع فإنه سيشعر شعور العامل. لكن، لو ظل المراقب يشتغل بيديه، ويساعد العمال كل يوم فإنه سيكون مخطئًا. سيتحول عندئذ إلى عامل، لا إلى مراقب عمال، وسيفقد التركيز على ضبط مستوى العمل وإتقانه في الورشة. مدير الإذاعة الذي يعشق الميكروفون مصيبةٌ من المصائب، إنه يزاحم المذيعين، وبالتدريج تترسخ لديه قناعة بأن طريقتَه هي الطريقة المثلى؛ ويريد أن يحمل الآخرين على اتباع طريقته.

لا يجوز للمدير أن يشتغل كثيرًا، ولا أن يصادر دور من يعمَلون معه. عليه أن يُديرهم، وهذه أفضل خدمة يقدمها لهم. المدير يحاسِب بالثَّواب والعقاب، ويُشجِّع، ويجعل سواعد العمال أو الموظفين الذين تحت يده تُقدِّمُ أكبر كمية من العمل. كثيرًا ما يكون المدير الذي ينغمس في العمل بيديه ضعيفًا في الإدارة.

أُشبِّه المدير بالجمرة الكبيرة في موقد رجل يدخن نارجيلة التنباك. ورأس التنباك في هذه النارجيلة قبة مدببة تحمل فوق قمتها جمرة صغيرة أو اثنتين. أنت تأخذ لرأس النارجيلة الجَمَراتِ الصغار، وأما الجمرةُ الكبيرة فلا تستعملُها. وتنتهي من نارجيلتك وتقوم ولـمَّا تستعملِ الجمرة الكبيرة. لا تقل: يا للخَسارة، ذهبت هذه الجمرة الرائعة سدىً! لا، الواقع أنَّه لولاها لما استمرت الجَمَرات الصغار في الاتِّقاد.

الجمرةُ الكبيرة كالمدير: تعطي الطاقة والعزم والاستمرارية، ولكنها لا تقومُ بالعمل بنفسها. ولو وضعتَ المدير فوق رأس النارجيلة لأحرقت التنباك، وأحرقت صدرك، وربما أيضًا السَّجَّادة.

الوثائقي قصة

الوثائقي قصة. ويصرُّ العرب على أنه قصيدة. الوثائقي العربي كومة من الأغراض الشعرية: من وقوفٍ على الأطلال ونسيب ووصف للناقة ونظرة للحياة وافتخار بالقبيلة ثم ... لا خاتمة. على الطريقة الجاهلية. وتراه دفقات شعورية هائمة، وموسيقى تقطِّع القلب في بعض المواقف، ودراما مبالغًا فيها في مواضع، إلى أن يكون الختام بنُواحٍ على الفردوس المفقود.

هذا ليس ناجحًا مع وجود الريموت كونترول. الناجح هو الوثائقي الذي يشدُّك.

قد تكون القصة فيه مجرد تسلسل زمني للأحداث، فالمشاهد يترقب ما سيحدث في الدقائق القادمة، ويبقى يلحق الجزرة إلى أن يصل إلى البيت فيأكلها ... أو لا يأكلها في النهاية المفتوحة.

وقد تكون القصة مجتلبة مقحمة. وهذا ينفع أيضًا. ومثاله عندي ذلك الوثائقي الأمريكي المسمَّى **صناعة جندي**، وموضوعُه محاولة القوات الأمريكية في العراق خلق جيش عراقي جديد. فنحن نتابع قصة جندي عراقي بعينه، ونتحفز لنرى كيف سيمر في مراحل الدورة. في الربع الأول من الفيلم نرى سيارة غريبة قرب المعسكر تصطفُّ بجانب منزل، وتثور الشكوك بشأنها. ونعود إلى قصة ذلك الشاب، ونراه في التدريب: مصارعة، وقفز ... إلخ. ودروس في

القاعـة ينـام خلالها بعض المجندين، وعراك بين عرب وأكراد، ونعود للسـيارة فنراهـم أحاطوهـا بنطـاق، وبـدأ خبـراء المتفجـرات يبحثون أمرها. ونعود للتدريب ولمشـكلة الشـاب المجند مع الأوامر الصارمة بحلـق الشـاربين، ومعاندتـه للحـلاق وضحـك زملائـه مـن الأمر. ثـم السـيارة وقـد اختلـف الأمريـكان والعراقيـون بشـأنها: فالعراقيـون يريـدون اسـتنقاذها ونـزع الأسـلاك المريبـة المتدليـة مـن أسـفلها، والأمريـكان يريدون مخابـرة فرقة التفجير لتأتي مـن الموصل. ونعود للتدريب، والاسـتعدادات على قدم وسـاق للتخرج. ونعود للسـيارة، ونراهم يؤكدون أن فيها أسـطوانات متفجرة، وأنها في غاية الخطورة. ثـم تقرر أن يتـم تفجيرها، ونراها تتفجر. ونعود سـريعًا إلى المعسـكر فنشـاهد حفل التخرُّج.

الغـرض من الفيلم عرض عملية صناعة الجيش الجديد بمشـكلاتها. ولكن القصة التي تشـدني، وتشـد حتى أي شخص ليس لديه اهتمام كبير بالعراق، هي قصة السيارة وقصة الشاب المجند.

والقصتـان اللتـان تنتظمـان هذا الفيلـم مقحمتان عليه. وأنا على شـبه يقيـن مـن أنهم صوَّروا السـيارة وكل ما يتعلـق بها في سـاعتين، ثم فرقوا المشـاهد على طـول الفيلـم. ولعلهم تابعـوا المجند بطـل الوثائقي على مدى الأيام الخمسـة الأخيرة من الدورة فقط، ولكنهم أعطونا إيحاءً بأننا حضرنا الدورة من أولها إلى آخرها.

الوثائقي قصة، فأما عرض الحالة المريعة لقرية عربية لم تصلها المياه ولا الكهرباء بأن نسمع أهلها يشتمون الحكومة، وعرض صور للقرية من

زوايا مختلفة، وبإضاءة بارعة فهذا كله حواشٍ. أين القصة التي ستجعلني أشاهد.

حتى حبة الدواء فإنهم يغلفونها بغلاف من السكر. والغلاف في حالة الوثائقـي مهم أكثر. ليس صعبًا اختلاق قصة مقنعة ترافق الوثائقي. وخيرٌ مـن اختلاقها أن تكون حقيقية، والأفضل أن تكون القصة هي الموضوع. وهذه الأخيرة لا تتسنى كثيرًا.

الوثائقي يتميَّع

بعض مخرجي الفيلم الوثائقي استولت عليهم شهوةُ السينما، فأمعنوا فـي توسـيع المنطقة الرماديـة الفاصلة بين ما هو تسـجيل للواقع، وما هو تمثيل.

وكمـا فـي كل فن من الفنون فإنه تأتي فترات تتميع فيها «الجناري» أو الأجناس الفنية. ذلك شـيء يصنعه أهل الفـن؛ إما ثورة على القيود، وإما عجزًا عن الإبداع ضمن القيود.

والفن قيد، والصنعة قيد.

أوصـل بعضهـم الفيلـم الوثائقـي إلى أن يصبـح تمثيلًا كلـه. وأوصل بعضهـم الفيلـم الروائي إلى أن يتعهد الالتزام بما حدث حقًا وفعلًا، حتى أنك صرتَ تحشره في زمرة الوثائقيات.

وأضرب مثلًا على كل فئة.

السلسـلة الوثائقية التي أنتجتها البي بي سـي بعنوان: **أيام هزَّت العالم** فـي أربع وخمسـين حلقـة؛ إنها تعتمد الإثـارة، والانتقاء مـن الواقع على نحـو يحملـك على أن تسـتبدل بالواقع الذي درسـته في كتاب المدرسـة الصورةَ الجديدةَ التي رسـمها لك الوثائقي. حتى في وجوه الشـخصيات المهمـة فأنـت مدعو إلى أن تمسـحها من عقلك، وتضع بـدلًا منها صور الممثليـن الذيـن يقومـون بـالأدوار. ومـع تعمُّد الإثـارة تضطـرب أهمية

الأحـداث فـي ذهن المشـاهد، فلا يعود قـادرًا على أن يـزن قيمة الحدث ببرود. فرُبَّ حدث صغير يتم تكبيره، وحدث كبير يتم تجاهله، كي يصل المخرج إلى حجم الإثارة المنشـود، وكي يجعل قصته حلوة. وليس هذا شـرًّا كلـه: فالفيلـم الوثائقـي المصنوع بهـذه الطريقـة أمتع وأكثـر جاذبية لمعظم مشاهدي التلفزيون. لكن المتعلمين تعليمًا جيدًا يشعرون بالملل سـريعًا: يشـعرون أن المخـرج -حتـى وإن بحث موضوعـه بعمق- يريد تكثيـر قطيعـه، لا تعميـق الفهـم لدى مشـاهديه. وهو يسـتغل عمق بحثه، وتوافـر مستشـارين جيديـن لديه في جانـب المعلومـات والحقائق، لكي يتجنـب الوقـوع في خطأ في التفاصيل. فأما الخطـأ في الرؤية عمومًا فهو غارق فيه إلى أذنيه.

والمثال الثاني فيلم **السقوط**، وهو فيلم روائي ألماني نمساوي أخرجه أوليفـر هيرشـبيغل عن الأيام الأخيـرة لأدولف هتلر. والفيلم مسـتند إلى تسـعة كتـب كبيرة. التزم المخـرج بالحقائق التزامًا حرفيًـا وجنَّد الباحثين وأنفق المال حتى يكون فيلمه صورة صادقة لما حدث. ولـم يقدم تفسيرًا للتاريـخ، ولـم يُكثر مـن الانتقائيـة التي يراها كثيـرون مرغوبة فـي الفيلم الروائي التاريخي.

أرى أن الفيلم الروائي يستطيع الاقتراب من الوثائقي بدون خطر كبير. وأما الوثائقي فهو أكثر هشاشة.

الفيلـم الروائي التاريخي يظل فيلمًـا روائيًا، يظل رواية، حتى لو صوَّر الواقـع بتفاصيلـه الدقيقـة؛ ذلـك أنـه قائمٌ علـى الممثليـن، ومحافظٌ على عمـوده الفقـري الكبيـر: الحكاية. فهـو محافظ على عنصرين أساسـيين:

التمثيل والواقع. فأما الوثائقي فهو عندما يوظف عنصر الممثلين يصبح معرضًا لعدد من المشكلات: انخفاض تصديقنا بأنه نقل الحدث كما حدث. وتسريبه صورة بصرية مشوهة إلى الذهن مختلفة عن الواقع، وفي هذا تشويه لمعرفتنا بالحدث.

القصص الجميلة كثيرة، وأجملها ما كان له أساس في الواقع، ثم تعرَّض للتحريف على يد قاصٍّ ماهر.

القصة أجمل من الواقع، وأكمل، وأشدُّ سلاسة ومنطقية من الواقع، وأحداثها مرتبة ترتيبًا يساعد على التلذذ بمشاهدتها. والوثائقي يستعين بالقصة كي يصبح مسليًّا. ولكنه قد يزداد اعتمادًا عليها فيُزَوِّرُ الواقع بالانتقائية.

ليست هناك وصفة صحيحة للوثائقي وأخرى للروائي، وستظل الحدود بينهما رماديةً. ولكن اتساع الشريط الحدودي سيزيد من الوهم في هذه الدنيا، وسيكون مثار سخط الأكاديمي الحريص على الحقيقة التاريخية.

أسوأ ما في الخلط الحاضر بين الوثائقي والسينمائي تسلل مخرجين تلفزيونيين إلى مجال يقتضي رؤية فنية لا يملكونها. وقد صرتَ ترى كثيرًا من الوثائقيات الرديئة يحاول أصحابُها تحسينها بإضافة بعض المشاهد التمثيلية إليها. ويعمد بعض هؤلاء إلى استخدام مصطلح «الدوكيودراما» هراوة يقرعون بها رؤوس النقاد. وكأن توافر مصطلح يجمع الملح والسكر يجعل الشراب سائغًا.

سمُّوها «دوكيودراما»، أو أي اسم آخر، المهم أن تكون المادة جيدة. وكون التوجه ذا بعد عالمي لا يجعله جيدًا. فالأزمة المالية عالمية، والإيدز عالمي.

إذا استمر هذا التميُّع الذي يتعرض له الوثائقيُّ، فقد نشهد ردَّة إلى الفيلم التوثيقي الصِّرف. وسوف ننتقد هذه الردَّة، مثلما ننتقد التميُّع الحاضر.

إيجابيات الوثائقي وسلبياته

الإيجابيات أولًا

١- معلومات وفيرة ومهمة وجديدة وسهلة على الفهم.

٢- إبهار بصري ومونتاجي مريح للعين ومثير للانتباه في آن.

٣- تأثير عاطفي: تعاطف مع شخصيات الفيلم وأحداثه أو ضدها.

٤- وجود قصة: الفيلم يروي قصة.

٥- القفشة الذكية: النص يخاطب الصورة بشكل فيه كوميديا سوداء أو بيضاء، والموسيقى تتكلم مع الصورة.

٦- المصداقية العالية: الكاميرا في قلب الحدث، وكل شيء ترى مقدماته سترى تجلياته لاحقًا. يشعرك صانع الفيلم أنه مُلِمٌّ بالموضوع، وأنه يجيب عن كل سؤال يخطر ببالك وأنت تشاهد. لا تكاد تفكر بشيء إلا وتراه ماثلًا أمامك.

٧- خفَّة الظل: هذه من عند الله يؤتيها من يشاء.

أخذ المريض قارورته إلى محلِّل البول وهي طافحة. قال له المحلِّل: تكفيني نقطةٌ واحدةٌ، ومنها أستطيع أن أخبرك بدقة متناهية عن السكَّري والنقرس وعشرين علَّة أخرى. لكن عمومًا أشكرك على هذا السخاء.

وجاء المخرج الوثائقي للمشاهد بفيلم عن حادثة «الانفجار»، وسمعنا في الفيلم خمس نساء يولولن، وخمسة رجال يلطمن (هكذا بصيغة المؤنث)، وصِبية يشرحون ما حدث، وبدأ النص يعدِّد الإصابات فهناك ثلاثة أصيبوا في الصدر، وسبعة باختناق من الغاز، وعشرون أصيبوا بشظايا، وخمسون أصيبوا بصدمة. ونسمع شهودًا على الحدث بعضهم رأى فعلًا، وبعضهم سمع من ابن الجيران. ولا بد من تصوير لعبة طفل مرمية بين الزبالة (طبعًا وضعها المخرج بعناية وقال للمصور: صور لي هذه).

أيها المخرج نقطة البول تكفي، ووجِّه جهودك إلى التعمق في الحدث ودلالاته، واخرج منه بسرعة واترك «السيكوانس» أنيقًا مختصرًا في ثلاث دقائق، وامض بعد ذلك إلى «سيكوانس» آخر.

السلبيات

١- مقدمة طويلة تُشعرك أنك ضائع، ولا تبدأ تفهم إلا بعد مرور عشر دقائق.

٢- الصور تلزيق: الصور قليلةُ العلاقة بالنص، والمشاهد بحاجة إلى شرح طويل كي يعرف لماذا جاءت هذه الصورة هنا.

٣- خذها لأنني تعبت في تحصيلها: استعمال صور ونصوص ومقتبسات لمجرد أننا تعبنا في الحصول عليها.

٤- بطء الإيقاع.

٥- المبالغة: مونتاج معقد، وموسيقى فاقعة، ونص متفجّر على قضية لا تستحق كل هذا. الجنازة حامية والميت كلب.

٦- الإخراج المتحذلق: مشاهد تمثيلية لا ضرورة لها، وزوايا تصوير عجيبة ولكن لا تخدم شيئًا، وتقطيع المقتبسات وتوليفها بشكل مبالغ فيه لتسريع الإيقاع بصورة مصطنعة.

٧- ضعف التعمُّق في فهم الموضوع، والاكتفاء بعرض الظواهر.

٨- النص المتحذلق (سواء أقاله المذيع أم الضيف): كلام عن «الاستبطان المنكسر في ذاته».

٩- يلا يا شاطرين: كلام مدارس: «ولكي نتعرف إلى جوهر المشكلة لا بد لنا من التوجه إلى طنطا»، «وبما أن الصناعة من المقومات المهمة لحياة الأمة، فقد أدى ضعفها إلى تدنّي الدخل القومي». في الوثائقي الرديء يصر النص على أن يكون ثرثارًا.

١٠- السلق: أن يكون الوثائقي مسلوقًا. ثمة تسع وعشرون طريقة لتحقيق هذا الهدف.

١١- السلام عليكم، عليكم السلام: أن يدور الوثائقي كله على قضية محسومة. مثال: «العشوائيات رديئة. إنها رديئة. إنها غير صحية، والذين يعيشون بها بشر، وبالمناسبة هم يملكون من الإنسانية ما يملكه كل الآخرين». طيب! موافقون. وبعدين. انتهى الفيلم، وليس هناك «بعدين». إذن لماذا الوثائقي أصلًا؟

١٢- التطويل بلا مسوّغ: لقطات كثيرة بالتصوير البطيء، حديث عن مقال في مجلة قديمة ثم صورة المجلة تقترب شيئًا فشيئًا، ثم خبط وضرب مفاجئ وموسيقى. ثم يلف الفيلم ويدور لكي يقنعنا بأن المقال كشف المُخَبَّأ، وبعد دقائق عديدة نقتنع كلنا بأن أهمية المقال هي فقط أن السيد المخرج حصل على صورة له.

١٣- استعمال الجرافكس للزينة، وعدم تنسيق المخرج بما يكفي مع فنان الجرافكس.

١٤- أخطاء في اللغة.

١٥- أخطاء في المعلومات. وأسوأ منها وجود معلومات لا تخدم الخط الأساسي للفيلم. والنصيحة للمنتج: إذا توافرت عندك كمية كبيرة من المعلومات عن موضوع ما، فخذ إجازة واكتب كتابًا. في الوثائقي نطالب المنتج بجمع كمية كبيرة من المعلومات ليكون على وعي بموضوعه، ونطالبه باستخدام الضروري فقط منها. قالت أديبةٌ نسيت اسمها: «ثقل الدم أن تقول كل شيء».

١٦- كوادر كالكنادر: كادر معتم وصارم لموضوع بهيج، أو كادر غير مُرتَّب، أو كادر فيه عناصر كثيرة مشتتة مثل جهاز تلفزيون خلف الخبير الضيف يبث برامج معينة، ومع كل ظهور للسيد الضيف نشاهد برنامجًا مختلفًا. أو كادر مشغول جدًّا، ومليء بالافتعال.

١٧- التعويض عن الصوت الطبيعي بتخليط موسيقي.

١٨- الصورة تأكل النص: نصٌّ عن «القراءات المختلفة لمشروع القانون»، والصورة التي فوق النص صورة أحد النواب في الأردن

يعضُّ أذن زميله، وعركة طويلة. طبعًا لن نسمع النص مع قوة الصورة. إذا كانت الصورة قوية فاسكت. وصورة لوثيقة فيها نص نراها على الشاشة بحروفها المقروءة، لكن النص مختلف، فنحن في حيرة: أنقرأ الوثيقة أم نسمع النص المصاحب؟!

١٩- الصور غير مناسبة: حديث عن دور تشرشل (وعمره ٤٢ سنة) في سايكس-بيكو، بينما نستخدم صورة له وهو في الخامسة والثمانين.

٢٠- السيكوانس المبتور: صناعة الصابون التقليدية: نرى منظر مصنع الصابون من الخارج وتدخل الكاميرا، ونرى سائلًا يغلي والعامل يغترفه بسطل ضخم، ويقول النص: إنها صناعة قديمة. وانتهى الأمر. هلا جعلنا العامل يسكب السائل المغلي على أرضية مستوية محددة بزنار خشبي، ثم يبرد، ثم في اليوم التالي يتم تقطيع الصابون بسكين عظيمة، ثم تخرج كل فلقة صابون تسرُّ العيون؟ طبعًا المخرج ليس عنده وقت ليقضي بضع ساعات حتى تنضج فلقة الصابون، وهو لا يملك أن يعود إلى مصنع الصابون في اليوم التالي (توفير وقت وجهد ومال). السيكوانس المبتور رديء. أحيانًا يكون الأمر متعلقًا بقلي زر فلافل، ولا يصبر المخرج خمس دقائق ليخرج بسيكوانس مكتمل. يكفي أنه هو شاهد العملية كاملة، وليذهب المشاهد إلى الجحيم.

٢١- مسألة المَحاور: المشاهد لا يرى المَحاور الفكرية، بل يرى قصة، أو يلاحق تسلسلًا منطقيًا معينًا. لا يرى بالضرورة المَحاور

التي في عقل المخرج، إلا إذا حددها المخرجُ بصور قوية ومناسبة وبتقطيع بصري مقنع. تبقى سيدة الوثائقي: القصة. عقل الإنسان عقل كرونولوجي. وعقلنا في الطفولة يصحو على القصة: بداية ومشكلة ونهاية. البداية أميرة سعيدة، والمشكلة أنها أحبت فقيرًا، والنهاية أنهما تزوجا. أو بالأحرى: البداية نساء مخزونات في البيوت بغرض الاستيلاد تحت سطوة الإمام البدر، المشكلة دخولهن المدارس ثم دخول الإنترنت إلى غرف نومهن وتعقيدات هذا الوضع، والنهاية: يفاجئن العالم بدور ثوري مميز. ليست القصة ممكنة في كل وثائقي. لكن البحث عنها مجزٍ.

٢٢- الكتابة الرديئة: مثال: «أهي فِرِيةٌ من النظام؟ هكذا يقول معارضوه، وهو يزعم أنه بريء من الطائفية، ويرمي أخصامه بهذه الوصمة، وأية وصمة! وتقول المعارضة الشعبية: أفلا تنظرون إلى شعاراتنا؟ وهي خلو من أي توجه طائفي». هذا إنشاء فارغ.

٢٣- الحيلة الرخيصة: أن تعرض صورتك وأنت تتصل بالهاتف مرارًا قبل أن تُسمعنا صوت المسؤول يرد على التهمة. يهمنا أن نرى إنجازك لا جهدك.

المسألة، بعدُ، ليست علمًا مؤكدًا. كل إنسان يقيّم الوثائقي بعين مختلفة. فهناك شخص يستمتع بدفق المعلومات، وهناك شخص يحب الصورة المبهرة، وهناك ثالث يتلذَّذ بالنص الذكي ذي القفشات الذي يخاطب الصورة بخبث. وهناك من يستمتع بالوثائقي الحارق الذي يثير الشجون ويسيل الدموع.

إصلاح بعض الوثائقيات المختلَّة مثل إصلاح سيارة الفولفو التي كنت أمتلكها: قال لي الميكانيكي مرة: «تحتاج إلى محرك جديد، وبودي جديد، وفرش جديد... فقط».

جو المقال: هذه رسالة إلى شركات الإنتاج، بعثتها يوم كنت مديرًا للبرامج في محطة تلفزة.

دردشة إعلامية[1]

- يأتـي الزبائن إلى وسـيلة الإعـلام للحصول علـى: ١) الترفيه، و٢) الأخبار، و٣) المعرفة.

- من الجيد أن تجتمع العناصر الثلاثة في كل مادة نقدمها.

- الدقة: ذبابة في الطبق تجعلك تترك كل الوجبة. كذا الكذبة في نشرة الأخبـار تجعلـك تتـرك النشـرة، وربمـا المحطـة. والبعوضـة كالذبابـة، والمبالغة كالكذبة. باختصار: لا تكذب ولا تبالغ.

- المراسـل المشـحون ينتقي المعلومات التي تصبُّ في اتجاه يريده. صف ببرود ما يصنعه المحتل لبلدك، فهذا أفضل من اللغة المنفعلة. مللنا مـن المراسـل الـذي تنتفـخ أوداجه وهو يـرصُّ الكلمات في شـتم قوات الاحتلال.

- اسـتخدام صور الأرشيف استخدامًا نزيهًا في الأخبار. المشاهدون لهـم عيـن الصقر فيما يتعلق بالصور، ويتذكرونها. اكتب على الشاشـة أن الصورة أرشيفية، واستعملها في سياق معقول. وفي الوثائقيات فإن صور الأرشيف في العادة مادة ثمينة، فاستعملها في مواضعها الصحيحة.

- الغلـط النحـوي يقلل المصداقية. هذا الوضع سيسـتمر بضعة عقود أخرى. أرح نفسك، وتعلم النحو.

---

(١) هذه الملحوظات مكتوبة خصيصًا لجلسة تدريبية في «مؤسسة وطن» برام الله.

- ضبط المعلومة: قد تضطر إلى عبارة مثل «قبل عدة أسابيع»، لا بأس. ولكن الأفضل أن تتأكد وأن تقول مثلًا: «قبل ثلاثة أسابيع». ومن الخير لك أن تجتنب التواريخ الثقيلة لأنها تعطل المتابعة، فأنت لا تريد أن تقول: «في الثالث عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني الماضي». ومع ذلك فالتواريخ مهمة في بعض الأحيان: «تقرَّر عقد القمة في الرابع من الشهر المقبل».

- المصدر: أفضل شيء المصدر الواضح، فإذا لم يكن متاحًا لك ذكرُه فكن متأكدًا من الخبر، فإذا كان في الخبر ما قد يؤدي إلى تهمة تشهير فاعلم أن من حقّ القضاء في بعض الحالات أن يطالبك بكشف مصادرك، فإذا رفضت فعليك أن تثبت أن ما قلتَه حقٌّ. مثال: (محمد أبو المسامير سرق خمسة ملايين، وبصفقة مع الحكومة أعاد ثلاثة منها). قد تكون سمعت الكلام من أبي المسامير نفسه. فإذا كشفت مصادرك للقاضي بعد أن تكون تعهدت بالكتمان فقد انتهيت كصحفي؛ وإذا أذعت الخبر، وتمسكت بسرية مصادرك فعليك عبء الإثبات، وهيهات.

- إصدار الأحكام: إذا تحدثتَ عن مظاهر السلوك الاجتماعي المنحرف، وجئت فوق الكلام بصورة ناس يشربون الخمر في حانة فهذا من جانبك حكم عليهم. وما يدريك لعل سلوكهم هذا يعَدُّ عاديًا في بيئتهم.

- الإعلام غير حيادي. كل الإعلام. فاقترب من الحياد ما استطعت. مثال على التوازن الزائف، والمثال حقيقي: (في يوم جمعة معين من ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٨، ضرب الفتحويون الحمسويين في

الخليـل. وضـرب الحمسـويون الفتحويين في غزة). وقـد أذاعت إحدى محطات التلفزيون تقرير الخليل الذي يدين فتح ١٣ مرة في ذلك النهار، وأذاعـت تقريـر غزة الذي يديـن حماس مرة واحـدة. والمحطة تقول: أنا عرضـت للمسـألتين، وبمهنيـة تامـة. فتأمـل. (المحطـة المقصـودة هـي الجزيـرة). العبـرة: لا يكفي الرأي والـرأي الآخر... التـوازن يكون أيضًا بكمية الضخ.

- هنـاك محطـات لـم تفهم بعد ما هو «الخبـر». محطة تعرض لك في النشـرة تقريـرًا عـن صناعة الخبز فـي ألمانيا. صور جميلـة. تقنية الصورة رائعـة حقًّا. والزوايا، وكل شـيء. والمذيعة فصيحـة. والنص فيه تلاعب جميل بالكلام. لكن، لماذا التقرير؟ لا سبب. وفِّروا هذا التقرير إلى حين قيـام مهرجـان الخبـز السـنوي بعـد ثلاثـة أشـهر. وزوروا المهرجـان، وستكتشـفون هنـاك أن السـبعين نوعًـا من الخبـز في ألمانيـا قد أصبحت واحدًا وسـبعين؛ لأن راينر شـميدت الخباز من دسلدورف قد ابتدع نوعًا مميـزًا، ونجح في تسـويقه. ههنا يكمن الخبر. وحول هذا الخبر انسـجوا تقريركم. (**الدويتشـه ڤيله** صنعت أسـوا من ذلك: عرضت في مايو/ أيار ٢٠١٢ وثائقيًا طويلًا عن مخالفات السير البحرية في قنال كيل... الوثائقي اسـتعرض نحو عشـرين حالـة من المخالفـات، كلها يشـبه بعضها بعضًا، وانتهى الوثائقي مثلما بدأ.. لا قصة ولا طرفة ولا عبرة). إلى متى سيبقى الإِعـلام الألمانـي نائمًا عن مسـألة الخبـر؟ الإنجليز بعيـدون عنكم رمية حجر، تعلَّموا.

- الاعتراف بالخطأ فضيلة. وأن تتكرر «الفضائل» مصيبة. الأفضل أن نكف عن ارتكاب الأغلاط.

- التهويـل يُفقـدك المصداقيـة. وشـر التهاويـل مـا يأتي فـي العنوان. العنوان جبل.. والخبر فأر.

- الانفعال سـيئ: الطريف أن المذيعة القاعدة في الاسـتديو تشـعر أن «مـن واجبهـا» الانفعـال لحـدث وطني، ويبـدو ذلك سـخيفًا. كل الناس خائفـون مـن أن يُتّهَمُوا بعـدم الوطنية. الحقُّ أن وطننـا صاير مثل الزريبة، ونحـن فيـه نـأكل ونشـرب، وهمُّنـا الأساسـي المرتـب فـي آخر الشـهر. الصحفي الوطنجي يفقد قسـطًا من المصداقية. (ترى الصحفي قاعدًا في مجلـس اجتماعـي، مثـلًا تجلـس بجانبـه في بيت عـزاء. وتسـأله: «كيـف الحـال يـا فـلان؟» فيسـبُّ الحكومـة والسـلطة والوطـن، ويسـبُّ رئيـس التحريـر، ويقـول لك: «إنـه يتمنى الهجرة إلـى كندا». ثم بعـد يومين تراه علـى التلفزيـون يمجِّد السـلطة وإنجازاتها، ويقدم لك مائـدة أيديولوجية مفعمة بالوطنية).

- السـرعة فـي الخبـر: نتحدث عن الدقائـق القليلة التـي تفصلك عن منافسـك. فعندمـا نفتـح التلفزيـون ونـرى على الشـريط الإخبـاري خبرًا صارخًـا نبدأ بتقليب المحطات. والمحطة الأسـرع تكسـب. هناك محطة تشتغل تحريريًّا أثناء البث الحي، وتكتب لنا على الشاشة ما فاتنا، وتتلفن لمراسـليها فـي أماكن أخرى لكي ينشـطوا ويوفـروا ردود فعل من أماكن شـتى. خبـر رويتر مبـذول للجميع.. ولكـن التميز هو فـي الحصول على تفاصيـل لا توردهـا رويتـر، والدخـول إلى الموضـوع من زوايـا جديدة. عندي عن السرعة الخبرية قصتان.

القصة الأولى: دُعيت إلى اجتماع لهيئة الإذاعة والتلفزيون الفلسطينية في مقر منظمة التحرير الكائن وراء المقاطعة في رام الله. ركبت التاكسي في التاسعة والثلث. فإذا على محطة راديو محلية خبر حادث سير في جبع قرب رام الله راح ضحيته أطفال في باص مدرسي. رجوتُ السائق أن يحول المؤشر إلى صوت فلسطين. فأبى. فكررت رجائي. فقبل على مضض. وجدتهم يبثون أغنية لإيهاب توفيق. وأراد السائق أن يعود بالمؤشر إلى المحطة المحلية، فمنعته بكثير من الجهد. واستمر إيهاب توفيق يغني حتى انتهت الأغنية. ثم بث راديو فلسطين أغنية وطنية. ثم طلعت علينا المذيعة ببعض التوصيات: كيف نسوق وكيف نحترس على الطرقات. ثم إنني وصلت إلى اجتماعي، ولم أقصر في تقريع الحاضرين في وجود مشرفهم العام آنذاك ياسر عبد ربه. الحقيقة أنني انفجرت في وجوههم، وكنت قاسيًا لسببين: أولًا لأن الحادث كان قد وقع قبل أكثر من نصف ساعة من إيهاب توفيق، وكانت تلك المحطة المحلية قد واكبته منذ البداية، والمحطة الرسمية نائمة. والسبب الثاني شخصي جدًّا، ولكن لعل في الاستطراد إليه ما يفيد: كنت أحمل إلى ذلك الاجتماع كتابًا من منشورات بكدار «المجلس الاقتصادي الفلسطيني للتنمية والإعمار»، ويضم بحثًا طويلًا كنت نشرته في انتقاد إذاعة فلسطين الرسمية. كنت سعيدًا أن أشن ذلك الهجوم على هيئة الإذاعة والتلفزيون الفلسطينية في عِقر دارها.

القصة الثانية: تغيرت الوزارة الفلسطينية في مايو/ أيار ٢٠١٢. تعديل شامل صحبته عدة قضايا مثيرة للجدل. وكمواطن فلسطيني يدفع من دم قلبه معاشات السادة العاملين في التلفزيون الرسمي، فتحتُ على نشرة

الأخبار الرئيسية في الساعة التاسعة، فوجدتها ملغاة، وفي مكانها لعبة فوتبول. بينما كانت كل الفضائيات تعزف سيمفونية الوزارة الفلسطينية الجديدة، تلفزيوننا الرسمي: كلما كان هناك «خبر» خبأ رأسه داخل العباءة.

- الثرثرة: هل تقول لك جدَّتك: «سأطعمك طبقًا فيه طعام، هو عبارة عن مجدَّرة»؟ ربما، لو كانت السيدة جدَّتك تشتغل في مؤسسة «إن جي أو»، فهؤلاء القوم لغتهم خارجة من الفريزر. الأغلب أن تقول لك جدتك: «كُل مجدَّرة» إن كانت راضية عنك، أو «اقعد وتسمَّم مجدَّرة» إن كانت غاضبة. قضيت نحو ٢٥ سنة من عمري أثرثر لإقناع الإعلاميين بعدم الثرثرة.

- المجتمع ليس مقصورًا على الفتيات الجميلات بشعورهن المسترسلة. ففيه محجبات وفيه شباب أيضًا. ولكن هناك اعتبار تسويقي. فالرجال والنساء يفضلون رؤية الشابة الصغيرة خَرج الجيزة -أعني المناسبة للزواج- على الشاشة. النساء الكبيرات ينظرن إلى المذيعة بوصفها خطيبة محتملة للولد، والرجال يعيشون لحظات من أحلام اليقظة. واجب التلفزيون المسؤول اجتماعيًّا ألا يعرض مذيعاته كما تُعرض بائعاتُ الهوى.

خذ لك قصتين عن البي بي سي: ما زلتُ أرى زينب بدوي على شاشة البي بي سي. وهي مذيعة سودانية، وابنة زميل سابق لي هو محمد خير البدوي. وقد بلغت الآن الثالثة والخمسين. منذ أربع وعشرين سنة وهي مذيعة. ورأسمالها أنها متعلمة جيدًا (في أكسفورد). ولئن تغير شكلها

كثيرًا، فهي لم تفقد علمها وخبرتها، ولم تفقد مكانتها عندنا، نحن المشاهدين، فالمذيع يصبح جزءًا من العائلة. ومثلما تكبر أختي وأتعود عليها كذلك تكبر زينب بدوي.

خفق قلبي خفقة محبة للبي بي سي في مناسبة أخرى تتعلق بالمذيعين. والمذيعة التي أعنيها هذه المرة باكستانية. اسمها مشعل حسين، وهي في أواخر الثلاثينات من العمر. درست القانون (في كيمبردج هذه المرة). ولها كزميلتها بدوي نصيب صالح من العربية؛ لأنها ربيت في أبو ظبي. وهي تعرف الأُردية. فتحتُ التلفزيون لأتابع الهبل الذي يسمُّونه «زواج الأمير وليام». كغيري من الناس أريد أن أرى العريس والعروس والهيصة. فوجئت بأن البي بي سي (في بثِّها الموجه لبريطانيا) جعلت المذيعة الرئيسية في نقل وقائع الاحتفالات على مدى ساعات مذيعة باكستانية. وفي كاتدرائية وستمنستر شاهدت فرقة المنشدين الأطفال، وبينهم عدة أطفال سود. هذا تلفزيون مسؤول اجتماعيًا، وهذا مجتمع يسعى بكثير من الجهد نحو استيعاب مواطنيه.

- **ثقافة المذيع**: في الفقرة السابقة مذيعتان إحداهما متخرجة في أكسفورد والأخرى في كيمبردج. وكلتاهما أكملتا الدراسة بعد التخرج. فهل تراهما (وكلتاهما تقدم برامج سياسية جادة) تتبرعان بسيل من المعلومات قبل كل سؤال؟ على العكس تمامًا. أسئلة قصيرة. إنهما تلقيان على الضيوف الأسئلة التي يتمنى المشاهد إلقاءها. تنوبان عن المشاهد. المذيع الضحل هو من يسرد كل معلوماته ضمن السؤال.

- الطريق إلى تطور الإعلام هو نفسه الطريق إلى تطور المجتمع. بعض المسؤولين الإعلاميين يقولون لي (وقد شابت الذوائب مني): «تعال زبّط لنا هالمحطة». والجواب: «لا تكتفوا بعقد دورة. تزبيط المحطات لا يكون بعصا سحرية».

- جميل أن نسمع شباب القرى يتكلمون، ونرى صورتهم في دكانة القرية، وبين الزيتون، وأن ندخل إلى بيوت المخيمات ونتناول وجبة عندهم. لكن، نريد عمق التغطية. أمَّا أن نعرض صورهم «عالماشي»، ونسمع الواحد «يتأتئ» كلمات لا معنى لها فهذا ليس من الإنصاف. الناس العاديون غير متعودين على الكاميرا، ويضطربون أمامها، فللمذيعة نقول: لا تشعري بالتفوق يا سيدتي لأنك متعودة على الكاميرا، وتقودين العملية بسلاسة. الشطارة أن تتمكني (مع فريقك) من توظيف الوقت الكافي لتحضير الناس للمقابلة لكي يخرج منهم شيءٌ حقيقيٌّ. الناس البسطاء عندهم مخزون كبير من الحكمة ومن الفهم. هؤلاء ناس عاديون ولكنهم أمام الكاميرا مساطيل، وواجبنا ألا نلتقطهم في حال المسطولية، بل أن نصبر وأن نأخذ حكمتهم. على المذيع والفريق أن يعيشوا في القرية وأن يعودوا بشيء حقيقي. تقولون لي: هذه جزئية، ولا نتوقع منك أن تعالج موضوع التغطية المجتمعية بهذا الشكل العامي المبتذل! أها، تريدون مني أن أكتب بلغة المانحين وبلغة التقارير التي تقدمونها لهم؟ بئس ما توقعتم! لستُ من يكتب هكذا. أنا أضرب الأمثال لعلكم تعقلون.

الصحفي الجيد، الذي يقف وراءه رئيس تحرير قدير (ويداوم حقًّا)، يستطيع أن يعطينا تغطية في العمق لقضية تمس مجتمعنا. وهل عندنا واجب تنموي؟ بالتأكيد. ليس عن طريق بث برامج تنموية معلبة تشمئز

منهـا النفـوس. ضـخ المعلومات في هـذه القوالـب المدرسـية غير مؤهل لانتحـال صفـة «إعـلام». ولا حتـى صفة «تعليـم». يمكن إطلاق تسـمية «تحفيظ الكتاتيب» على هذه المنتجات التلفزيونية الباهتة. الإعلام يجب أن تختلـط فيـه التنميـة والتثقيـف والتعليم بالخبـر وبالتسـلية اختلاطًا لا انفصام له.

أقـول للإعلامـي: احفـر بأظفـارك عـن خبـر. لا بـد مـن خبـر للمـادة الإعلامية وإلا سنرسلها لقناة تعليمية.

- السيكوانس المكتمل: كنت دائمًا أتخذ من بيت لابن الرومي مثالًا. يقول شـاعرنا: «يلقي العجين لجينًا من أنامله» أي أن هذا الصنايعي يلقي بالعجيـن وهـو كالفضـة مـن يـده فـي مقلـى الزيـت. هـذا نصـف البيت. والصورة غير صالحة تلفزيونيًا. والنصف الثاني: «فيسـتحيل شـبابيكًا من الذهـب». هنـا اكتملت الصورة ورأينـا النتيجة: خـرج العجين من الزيت وهو على هيئة مشبَّك ذهبي اللون. ثم ساق لي الله فيلمًا وثائقيًا عن مدينة سـمنُّود بمصر. وقد ارتكب فيه المخـرجُ تلك الغلطة حرفيًا. أراني صانع المشـبك واقفًا وراء مقلاه، وهو يصنع أشـكالًا عجيبة من العجين، ثم... طششش. ألقى بالعجين في الزيت. ثم انصرفت الكاميرا عنه فورًا. ورأيت نِفسـي أصـرح ببـراءة طفليـة... ولكن مـاذا صـار للعجين؟ أريـد أن أرى النتيجـة. التلفزيون أيها السـادة يملك قدرة عجيبة علـى الاختصار. نحن نصـور العملية بكاملها، ثم نقص ونلزق في المونتاج، وفي غضون عشـر ثوان نُريك كل شيء.

- الخبر البروتوكولي مذموم في كل محفل إعلامي. لكن، اصبر! أقيم احتفالٌ حضره محافظ نابلس لتكريم طلبة التوجيهي. وزّع المحافظ على أُولَيات الطالبات هدايا رمزية. خبر بروتوكولي، لكنه محلّي. الناس يحبون أن يروا أنفسهم. لنلتقط كلوزات لوجوه الطالبات فهذا مُعبّر أكثر. ولنأخذ كلمة من سيدة كبيرة في السنّ تتكلم عن شطارة حفيدتها. هذا يسلّي أكثر من كلام المحافظ. هل يمكن أن يتضمن تقرير مُسرف في المحلية كهذا التقرير جانبًا معرفيًا؟ ربما. يجب البحث. إذا عرفنا أن هذه المدرسة «المدرسة العائشية» مشهورة بتخريج الأُولَيات (مؤنث أوائل)، وأنها من أقدم مدارس نابلس، وأن فدوى طوقان درست فيها. فهذه معلومات نحقن بها تقريرنا. وماذا يحدث لو أن المذيع مثقف، وعرف أن فدوى طوقان سمعت من معلّمتها في هذه المدرسة بالذات ملاحظات أطلقت موهبتها الشعرية، وأن هذه المعلّمة كانت تقرأ لشاعرتنا مقالات من «خارج المنهاج» من **مجلة الرسالة** المصرية. هذه عناصر معرفية فيها شيء مختلف. [في هذه المدرسة درست أشهر شاعرة فلسطينية، فدوى طوقان، وهي تقول في كتابها إن شعلة الشعر انطلقت من تشجيع معلّمتها، ومن التثقيف «خارج المنهاج»]. أرأيت إلى هذه الكلمات الخمس والعشرين المحصورة بقوس مربع؟ ألا يمكن حشرها في التقرير؟ وفوقها صورةٌ للشاعرة، وصورة لمبنى المدرسة؟ وبعد ذلك امضِ في تقريرك، ودعنا نر الفتيات وحضرة المحافظ. وخلّ الكاميرا تمشي على الأهالي لكي يروا أنفسهم. ولا تنس الكلوز أب.

أقـول: الخبـر البروتوكولـي المذمـوم إعلاميًـا قـد يجـد لـه مكانًا في الإعلام المحلي، والمذيع الواعي والمثقف قد يضيف إليه عنصر التسلية وعنصر التثقيف.

- إعـادة تذكيـر مهمـة: الأسـاس في الإعـلام كله الخبـر. ونحقن في جسم الخبر عناصر التشويق، والمعرفة.

- فـي الإعـلام لا مـكان للفيلسـوف الـذي يجلـس وراء كرسـيه لكي يحدثـك عـن الحداثـة ومـا بعـد الحداثـة، وعـن شـوبنهاور وأبـي العلاء المعري. نريد الضيف عميقًا ومثقفًا، ولكن بثقافة معاصرة. ونريده واسع الاطـلاع، ويعـرف مجتمعـه. صحيـح أنه قـد يفتقـر إلى موهبة اسـتعمال الهاتف، وقد يكون قليل الحيلة، وغير شاطر في اللوجستيات. لكن لا بد من السـرعة في الفهم وفي التحرير. لنفترض أن مثل هذا الشخص محرر تلفزيوني، ويصدر التكليفات بالتقارير التلفزيونية، ويراقبها تحريريًا. عليه بسـرعة البرق أن يلاحظ موطن الخبر في الموضوع، وأن يوجه الصحفي (أو المذيـع) لكـي يقتنـص الخبـر، وعليـه أن يوجهـه إلـى توفيـر عناصر التشـويق والمعرفـة داخل الخبر. ويجب أن يكـون عارفًا بمبادئ الصورة والمونتاج والتصوير.

- كيف تريد من مذيع مدلَّل، صغير السـن، شـكله حلو، ولكنه لـم يُتمَّ قـراءة كتاب فـي حياته، ولـم يدخل قرية ولا مخيمًـا، وتنحصر معارفه في الموبايلات وأنواع السيارات، كيف تريده أن ينتج تقارير عميقة؟

ومحرر عجوز يشـتغل على طريقة الجرائد في السـتينيات، كيف تريد أن تجعـل منه محـررًا تلفزيونيًا قديرًا؟ هل هو مُقبل على التعلم؟ ويدخل

غرفة المونتاج، ومستعد لتغيير ثوابته التحريرية العتيقة؟ قد تجد فيه هذه الحيوية. ولكن إذا أصرَّ على عدم الدخول في عالم الإنترنت والتلفزة فخير له وللمؤسسة أن ينصرف.

العجائز المتقاعدون -من أمثالي- يصلحون فقط لكتابة المقالات المطولة، وتوزيع المواعظ. والإعلام بحاجة إلى أناس من نوع مختلف.

عند هذا الحدّ أقف.

٢٥/ ٨/ ٢٠١٢

كيف «الحال»؟

كلمة «أريد» أقوى كثيرًا من كلمة «بِدِّي»، مع أنك حين ترى طفلًا يشد ثوب أمه ويصرخ ويبكي ويقول: «بدي اياها»، وهو يشير إلى لعبة في بترينة الدكان، تظن أن كلمة (بدي) أقوى كلمة في العالم. لكن بِدِّي مشتقة من الكلمة الفصحى «بِوُدِّي». والود والرغبة أقل من «أريد» والإرادة.

اجتمع ذات يوم جماعةٌ يريدون إنشاء صحيفة. كانوا بِدهُم ذلك. اجتمعوا عدة اجتماعات، ووضعوا خططًا، وجربوا تجارب مسترخية، ونال منهم التعبُ كل منال. كانوا أهل رؤية وخبرة. كان ما في رؤوسهم من شعر أبيض يكفي لنسج «فانيلا» بأكمام. لكنهم افتقروا إلى إرادة التنفيذ.

رسموا المشروع على الورق، ووضعوا قائمة بالعراقيل والمثبطات، ووضعوا لها، على الورق أيضًا، الحلول. وعند ما جاء وقت القفزة خذلتهم سيقانُهم.

ما أجمل الترتيب والتنظيم. ثمة قصة عن فيلسوف إنجليزي فكَّر في أن يهاجر إلى أيسلندا، وكان صاحبنا منظمًا جدًّا وعاقلًا؛ فوضع قائمة بالأسباب المؤيدة لهجرته، فكانت سبعين سببًا. ثم راح يحلم بالهجرة طويلًا، لكنه بقي في إنجلترا حتى مات!!! لقد عدِمَ الإرادة.

الإرادة هي أن تحمل الفأس وتنزل إلى الحقل، وتشتغل طوال النهار.

ليست الإرادةُ أن تمارس أحلام اليقظة، وتتخيَّل سنابل القمح تموج مع النسيم خضراءَ يانعةً، ثم صفراء لامعة، بل أن تخرج لكي تستخرج هذه السنابل بالقوة من بطن الأرض.

نعود إلى قصة القوم الذين أرادوا إنشاء صحيفة. لقد خططوا كثيرًا، ولكنهم لم يحملوا الفأس. وجاءتهم فتاة تصغرهم سنًّا وخبرة، فقالت: «هيا نحمل الفأس ونخرج إلى الحقل». كان اسم هذه الفتاة «الإرادة». فجمعوا خبرتهم وانطلقوا وراءها: بعضهم ساهِمٌ متفكِّر، وبعضهم مشفقٌ متوجِّس. وأصبحت مديرةً للتحرير ثم رئيسةً له، وأعتقد أنها ما زالت. ونجحت الجريدة في أن تكون نموذجًا للصحافة النابضة بالحياة. واشترطت أن يكون طول المقال ٣٠٠ كلمة. ولعل المؤسِّسين صنعوا خيرًا أن سموا صحيفتهم اسمًا محايدًا. سمُّوها **الحال**، من «كيف الحال». وبعد خمسين عددًا أصبح «الحال عال العال».

جوُّ المقال: هذا مقال نشر في جريدة **الحال** عن جريدة **الحال**. كنتُ ضمن لجنة المخضرمين الذين فشلوا في التوصل إلى شيء عملي. وكنت مدير معهد الإعلام بجامعة بيرزيت. فجمعتُ زملائي من موظفي المعهد بعيدًا عن فريق المخضرمين، قلت لهم: «هل نباشر وحدنا بدون المخضرمين؟» فتصدَّت نبال ثوابتة وقالت: «نباشر». فكنتُ رئيس التحرير سنة كاملة، تُعاونني نبال. ثم رحلتُ عن البلاد فتولَّت نبال رئاسة التحرير بضع سنين.

كيف تقرأ نشرة الأخبار في الإذاعة؟

نقرأ نشرات الأخبار بالفصحى، بلغة بعيدة إلى حدٍّ كبير عن لغتنا الأم، وتحتاج منا إلى جهد مضاعف.

وهناك مشكلة أخرى هي الوتيرة الميكانيكية المنتشرة في مدارسنا؛ فنحن نقرأ النصوص في دروس القراءة في المدارس بطريقة معينة فيها تكرار لنغمة وحيدة. وقراءة الأخبار تحتاج إلى «التلوين». وههنا توجد مشكلة إضافية: التلوين الزائد مزعج، ويصرف الذهن عن المعنى.

وهناك مشكلة رابعة: ضبط التشكيل. بالطبع يمكن للمذيع أن يُسَكِّنَ أواخر الكلمات في مواضع عديدة، ولكنه إذا بالغ في التسكين أصبحت نشرتُه قريبةً من العامية.

وثمة مشكلة خامسة: مخارج الحروف. ففي فلسطين عندنا أصناف من القافات تتراوح بين الكاف والقاف القرآنية، وكثيرون يخطفون أحرف العلَّة فيقولون «سيَّرات» بدل سيارات؛ تبعًا للهجتهم العامية. وبعضهم يرقِّق الخاء في كلمة مثل «خالد»، وحقُّها التفخيم. وبعضهم يهمل الحرف القمري فيقول «أجَّبل» بدل الجبل.

وحل كل هذه المشكلات يكون بالتمرين المتواصل وبالاستماع إلى اللغة العربية الفصحى من أفواه قُرَّاء القرآن، والمذيعين الجيدين. ومن عاش طفولته في بيئة عاميَّة محضة، أو تلقى دروسه في مدرسة أجنبية سيصعب عليه إتقانُ النطق السليم بالفصحى.

لا بُدَّ من إتقان القواعد. بعضهم يكتفي بتشكيل الكلمات «على السمع»، ولكن هناك مواضع تحتاج إلى معرفة بالقاعدة النحوية.

النشرة الجيدة يسمعها المستمع فيفهم. طريقة إلقاء المذيع تجعله يفهم. والواقع أن المذيع الذي يلقي الخبر فاهمًا يستطيع إفهام المستمع. ومن المهارات المطلوبة في المذيع أن يكون محرِّرًا جيدًا. أن يتمكَّن من صياغة الأخبار بلغة سليمة وسلسة، وأن يكون واسع الاطلاع على الأحداث. قارئ النشرة يجب أن يكون قادرًا على كتابتها. لكنه قد يأخذها جاهزةً من زميله المحرِّر، وفي الحالين يجب أن يلقيها بفهم عميق.

التلعثم في الإلقاء سببه الضعف في اللغة، أو شرود الذهن، أو الارتباك، أو الإرهاق. والتلعثم يُفقدك قدرًا من المصداقية، ومثله الوقَفات الخطأ.

الصوت الجميل نعمة، والصوت الجيد صناعة. يمكن للمرء أن يجعل صوته جيدًا بإتقان اللغة والانغماس في المعنى الذي يقدمه. الصوت الجميل وحده لا يصنع نشرة جيدة، فإذا اجتمع جمال الصوت وحسن الإلقاء فهذا غاية المنى.

فيما يلي ورقة تقييم افتراضية لمذيع/ أو مذيعة على قراءة نشرة من خمس دقائق:

- هناك ثقة في صوت المذيع- الوقفات في مكانها الصحيح- تسكين أواخر الكلمات محدود- الخطأ النحوي قليل- المذيع غير متوتر - المذيع ليس مسترخيًا بل متحفز- الصوت عذب- الصوت قوي -مخارج الحروف سليمة- المذيع يلقي بفهم- المذيع بعيد عن النغمة المدرسية

الرتيبة- المذيع يلون التلوين المعتدل- المذيع لا يمثل بل يلقي- في صوت المذيع حزمٌ وجديةٌ- المذيع يتحدَّث إلينا ولا يلقي خطبة.

لو وضعنا هذه المعايير نصب أعيننا، ووضعنا للمذيع - في الإذاعة - علامة من خمس على كل نقطة فقد نضع أصبعنا على مواطن القوة والضعف.

جو المقال: كُتب لمنفعة «راديو أجيال» برام الله-فلسطين وذلك في سياق مسابقة «الميكروفون الذهبي» في قراءة الأخبار. وقبل هذه المسابقة بسنوات عرفت «راديو أجيال» وعملت معه، وكان راديو ترفيهيًا فقط. وازدادت الحاجة إلى الخبر المحلي مع الاجتياح الإسرائيلي للمدن في الضفة الغربية، فعرضتُ على المحطة تبرعًا بثمانمئة دولار لكي تجرِّب تحرير وبث الأخبار. رُفض العرض المالي، ولكن المحطة بدأت فورًا بنشرات الأخبار؛ فعوضَت نقصًا فادحًا؛ لأن الإذاعة الرسمية فاشلة إخباريًا. ومنذ عشرين عامًا والأخبار جزء مهم من «راديو أجيال»، أهم محطة إذاعية في فلسطين بلا منازع.

كيف تنجح الإذاعة الرسمية؟

المدرِّب الذي يزور محطة إذاعة يلتقي أولًا بالمدير، ويشرب عنده الشاي. قد يريد المدير منك أن تتجسس على المتدربين، وأن تضع له تقييمات بأدائهم ممهورة بتوقيعك. هذا النوع من المُدراء لا يملك من السلطة ما يؤذي به نملة، هو فقط يريد تهديد الناس وإخضاع الشامس منهم. سوف تتركه يهذي إلى أن تنهي كوب شايك ثم تنطلق إلى عملك، وفي نهاية الدورة لا تقدِّم له ما أراد. وبعضهم يريد منك أن تخبره بشكل عام كيف يجعل مؤسسته أفضل. وهذا جدير بالاحترام. قد صنعتُ الأمرين مرتين، وفي الإذاعة نفسها. وهي إذاعة «صوت فلسطين» الإذاعة الرسمية للسلطة الفلسطينية. وبين المرة الأولى والثانية نحوٌ من ثمانية عشر عامًا. ومن الطريف أنني فيما بين المرة الأولى والثانية عملت مديرًا للبرامج مدة أسبوعين في «تلفزيون فلسطين» (الرسمي)، ورفضت توقيع عقد، وتركت العمل. وعملت رئيسًا لتحرير صحيفة **الحياة الجديدة** الرسمية الناطقة باسم السلطة الفلسطينية ستة أشهر، قدَّمتُ بعدها استقالتي. وبما أن مجموع استقالاتي في المهن المختلفة يكاد يبلغ العشرين، فقد أفكر في إصدار نصوصها في كتاب برأسه، فهذا ليس مكانها.

أما التقرير الأول الذي كتبته عن إذاعة «صوت فلسطين» فقد نشرته ضمن كتاب أصدرته مؤسسة «بكدار»، وأما التقرير الثاني فقد أرسلتُه إلى مدير الإذاعة الذي لمستُ أنه كان حريصًا بحقٍّ على تطوير إذاعته. لم

يطلب مني لا تجسسًا ولا حتى تقريرًا، غير أنني كتبت التقرير وبعثته إليه بعد انتهاء مهمتي بنحو شهر. وبالطبع لم أسمع منه ردًا. ها هو نص التقرير:

كي تصبح «صوتُ فلسطين» إذاعةً «مختلفةً»

حضرة الأستاذ...، مدير إذاعة «صوت فلسطين» المحترم،

فيما يلي تقرير عن تجربتي مع إذاعتكم. وفيه مقترحات أرجو أن يكون فيها ما يفيد.

قالت لي زميلتي صباح اليوم: إنها ذكرت اسمي لحميِّها -أبي زوجها- فقال لها: «إنه كان يسمعني على راديو البي بي سي قبل عشرين سنة». قلت في نفسي: «هذه بداية طيبة لمقالي الطويل هذا». أبدأ من لندن:

كنت أجلس في مطعم إنجليزي مع رجل خليجي. لفتت نظرَكم عبارةُ «مطعم إنجليزي»؟ في لندن يندر أن تجد مطعمًا إنجليزيًا، فأما المطاعم الهندية فهي منثورة في شوارع لندن كورق الشجر على رصيف خريفي. اجتهدت ووجدت مطعمًا إنجليزيًا، فالرجل الخليجي زائر رسمي لهيئة الإذاعة البريطانية البي بي سي، ولا بد لنا من أن نثبت له أن في البلد شيئًا إنجليزيًا. لن أُحدِّثكم عن الوجبة حتى لا أسدَّ نفسَكم.

سألت الرجل عن المستمعين للإذاعة التي يديرها، وهي إذاعة رسمية. لم يفهم سؤالي. قلت له بصريح العبارة: «الإذاعات تُجري إحصاءات عن عدد المستمعين». فكان جوابُه صريحًا ولذيذًا: «حِنَّا تَرى على ميزانية الدولة». وانتهى النقاش.

نحـن في البي بي سـي كنا أيضًا على ميزانيـة الدولة، وبالتحديد وزارة الخارجية. ولكننا كنا حريصين على معرفة أثرنا في المسـتمعين، وعندما أجرينا إحصاءً كبيرًا ذات سـنة اكتشفنا أن ١٤ مليون إنسان يستمعون إلينا (مرة في الأسـبوع على الأقل). وكنا أجرينا بالتوازي إحصاءً نوعيًا، يقوم على عقد لقاءات مع مجموعات من الناس: شـباب، ونسـاء، ومتقاعدين ... إلخ. وشاركتُ شخصيًا في لقاءين من هذا القبيل في المغرب.

ثم إني عملتُ بضعة أشـهر في إذاعة «صوت فلسـطين» قبل ١٨ سنة. وملخـص التجربـة: إذاعة رسـمية كتلك الإذاعـة الخليجيـة. لكن الناس أقبلوا عليها عندما بدأت بثَّها؛ لأن صوتها هو صوتنا، فهي ليست آتية من بعيـد كالبـي بـي سـي، ولا من قريـب كإذاعة إسـرائيل، بل هـي قادمة من داخلنا. ونال «صوت فلسطين» نسبة استماع بلغت ٧٠٪.

وجـاءت أحداث النفـق ١٩٩٦، فأمر الساسـةُ الإذاعـةَ بتوليع الناس، فولَّعتهم. وبعد أسابيع أمروها بالتهدئة، ففعلت، وفي الحالين بثت جملةً مـن الأكاذيـب. وبعـد أشـهر تراجعـت الإذاعة إلـى ١٩٪. هـذا انهيار لا خسارة.

إذا اسـتعملتَ إذاعتك عودَ كبريت لإشـعال الرأي العام فلن تسـتطيع استعمالها مرة أخرى.

فـي أحـداث النفق اسـتمعت إلى الضـخِّ التهييجي لصوت فلسـطين، وكنـتُ سـنئذ مبعوثًـا مـن البي بي سـي لتغطية تلـك الأحداث. سـألتُ: «طيب يا إخوان، أنتم تبثُّون في سـاعات التهييج والشحن العاطفي أغاني الثورة الفلسـطينية القديمة، وعندما تكبسون الزر وينتهي التهييج تعودون

إلـى نجـوى كرم. لماذا لا تبثون أغاني فلسـطينية جديـدة؟ ففي البلد فِرَقٌ تغني وتصدر السيديهات، وهناك أغانٍ كثيرة في العالم العربي ذات مغزى جميل؟» لم أجد جوابًا.

كانت إذاعة «صوت فلسـطين» تنتهج خطًّا تحريريًّا بسيطًا: أولًا، نحن بـوق للسـلطة، نحـن إذاعة رسـمية. وثانيًـا، على مجتمع غـزة والضفة أن يعرف أن «م. ت. ف» [منظمة التحرير الفلسطينية] هي فلسطين.

والنتيجة: فشـلت الإذاعةُ في أن تخـدم الحكومة؛ لأن الناس انصرفوا عنهـا، ولـم تسـتطع فلسـطين أن تحشـر نفسـها داخـل قنينـة «م. ت. ف». حدث العكس.

الإذاعة الأردنية قبل الـ ٦٧ كانت تؤكِّد أن البلد اسمه الأردن، وكانت تبثُّ أغاني توفيق النمري وسـميرة توفيق وعبده موسـى وسـلوى وجميل العاص صباح مسـاء؛ لتعزيـز الهوية الأردنية. وحققت الغرض: غرسـت في وجدان الناس هويةً أردنيةً واضحة المعالم. وإذاعة فلسـطين ناصبت الأغنية الفلسطينية الجديدة العداء.

في فلسـطين اليـوم ٨٥ إذاعة، وهناك ١٢ فضائية ترفع علم فلسـطين. وهناك الفيس بوك واليوتيوب.

أبدأ بالجرائد: الباقي وجه الله، وصفحة الوفيات في جريدة القدس.

والتلفزيونات: هذا ليس موضوعنا.

والإذاعات: هذا موضوعنا.

لـن تمـوت الإذاعـة؛ لأن الكفيـف والخطّـاط والخيـاط وربّـة المنزل والسائق والراكب سيظلون يسمعون. وهناك شيءٌ آخر: أغنية الإذاعة فيها

عنصر المشاركة والمفاجأة، أسمعها عارفًا أن كثيرين يشتركون معي في الاستماع، والأغنية تأتيني على نحو مفاجئ دون أن يكون لي خيار. أشعر مع الإذاعة بأن هناك مذيعًا يُحدِّثني، ويعرض عليَّ البرامج المختلفة والأغاني، ويخوض على مسمعي حوارات مع الناس على الهاتف، ويستضيف لي أشخاصًا ويسألهم بالنيابة عني. الإذاعة تؤنسني. وسيظل البشر يحبون أن يُخلدوا إلى الراحة مع إغماض العينين عن صور التلفزيون التي صارت «تتشقلب» بشكل مثير للأعصاب. الإذاعة باقية. ولكن وجود ٨٥ إذاعة في فلسطين يفتح بابًا للكلام.

لا أنسَ أن موضوعي هو «صوت فلسطين»، الإذاعة الرسمية. كنتُ دائمًا أسمِّيها «إذاعة الوطن». وكان المسؤولون فيها يغضبون كلما استخدمت هذا التعبير. يعرفون أنني أشير به إلى فشلهم في أن يكونوا إذاعة الوطن، ولكنهم ربما كانوا يشعرون أنني أريدها أن تكون إذاعة الوطن.

واليوم مع تفتُّت الأثير، يمكن للمرء أن يقول: «راحت علينا، فلم يعد هناك مجال لأن تستولي «صوت فلسطين» على قلوب الناس». ولكنني أقول شيئًا آخر.

تفتُّتُ الأثير نقمة، ولكنه أيضًا فرصة.

الإذاعات التجارية انغمست في نجوى كرم، وصارت الوصفة سهلة: في الصباح فيروز، ثم مجال للناس لكي يطالبوا بفتح المجاري المغلقة وسدّ المجاري المفتوحة، ويأتي المسؤول فيغرقهم بالوعود. ثم نجوى كرم، ثم نشرة أخبار مأخوذة من الإنترنت، ثم نجوى كرم.

كان التحدي الذي طرحه المسؤولون في صوت فلسطين في آخر لقاء لي معهم قبل نحو شهر: «كيف نكون جادّين ولكن بإيقاع سريع؟ وكيف يكون عندنا ترفيه لكن ليس رخيصًا؟ وكيف نكون إذاعة الوطن؟»

وقدَّمتُ بعض الآراء. وفكَّرتُ في الأمر مليًّا على مدى الشهر المنصرم.

وكي أتجنب الفقرات الطويلة فإنني سأبدأ ببعض الصراخ.

عندما ينام مهندس الصوت بين الأغنية والأغنية وينقطع البثُّ عشر ثوان، فهذا معناه أن المستمعين قد انصرفوا إلى إذاعة أخرى. سؤال: هذا شيء يحدث عندكم دائمًا، فهل حدث أن عاقبتم مهندسَ صوت على هذه الفعلة الشنيعة؟ هل عندكم نظام حاسوبي محترم لبثّ الأغنيات؟ هل انتبهتم إلى هذا الأمر البسيط الذي يعتبر من بديهيات العمل الإذاعي؟ هل أجهزتكم مزبوطة؟ وإذا لم تكن مزبوطة فاشتروا أجهزة رخيصة من تلك الموجودة في الإذاعات التجارية التي لا ترتكب مثل هذا الغلط.

صرخة أخرى: هل عندكم مدير يقف ويصرخ؟ يقف وقفة حازمة ويطلب من القائمين على البث أن يتقوا الله. أم أنكم تتصرفون كعائلة، وكلكم إخوة في الله والوطن؟ هل الإدارة قوية؟ وهل تعرف الإدارة ماذا تريد؟ هل هناك خطة.. أجندة.. هدف؟

«صوت فلسطين» ليست إذاعةً متميزةً في الإحصاءات الكثيرة التي تجريها الشركاتُ المُعلنة. والشركات المُعلنة خير من يقيس مدى الانتشار.

صرخـة: هـل هناك تقييم حقيقي للبرامج؟ هـل يجرؤ أحد في الإذاعة على نزع برنامج من مذيع يتربع فيه على مدى السنوات العشر الأخيرة؟

بعيـدًا عـن الصـراخ، لدى صـوت فلسـطين كادر ضخم، وهذا سـلبي وإيجابـي. الترهل الوظيفي يعني أن عشـرة يشـتغلون وعشـرين يتفرجون عليهـم ويحاولـون تعطيلهـم. والثبات الوظيفـي يعني عـدم تجديد الدم. وبما أن صوت فلسـطين مؤسسـة رسـمية، فلن يكون هناك علاج سـريع للترهل الوظيفي. فكيف نصنع؟

بعضهم، في بعض البلاد، رأى المؤسسـة الرسـمية جامدة، ورأى فيها مقاومـة قويـة للتغيير، فقـرر أن يفتح إذاعة موازية، واشـترط أن يكون كل موظفيهـا «علـى عقود» أي أنهم خـارج الميري، خـارج الوظيفة الدائمة. هذا حل ممكن، وسـتزعمون أن ميزانية الوطن لا تحتمله. حسنًا: اقسموا موظفيكم قسمين بإذاعتين وليكن تنافس!

وهذه نصائح:

أولًا: يتعهد كل موظف في الإذاعة أمام نفسـه ألا يشـتم مؤسسته التي يعمل بها، وأن يكون كل انتقاد يفوه به انتقادًا علنيًا. هذا أسـاس أخلاقي. فماذا لو كان الوضع لا يعجبني أبدًا؟ الحل: الباب يسـع جملًا. فإن كنت قاعدًا في الإذاعة فقط من أجل المرتب فاقعد ساكتًا. (أقول هذا لأنني لا أسمع من موظفيكم سوى الشكوى.. وشتم المؤسسة).

ثانيًـا: أنـا أعمـل فـي مكانـي، فـإذا رأى مسـؤولي أن ينقلني فهـذا أمر إداري، وعليّ أن أطيعه. وأما أن أشُنَّ حملةً عليه فهذا ليس مما يُصنع في مؤسسة.

ثالثًا: يصرُّ بعض فنيّي الصوت على أن يعصروا الجهاز عصرًا حتى يصل إلى لحظة الوفاة على الهواء. هناك فكرة يعرفها كثيرون: لكل جهاز عمر، والأجهزة أرخص شيء. ميزانية الإذاعة المثالية: ٨٠٪ مرتبات، و١٥٪ إنتاج، و٥٪ أجهزة.

رابعًا: من المشكلات أن المذيع يصبح صاحب البرنامج الأوحد، يتربع فيه كما يتربع في إيوان بيته. فماذا لو كان المذيع قصير الباع في موضوع البرنامج؟ صحيح أن الإذاعات المحترمة تحتفظ بمذيعيها ولا تبدِّلهم كما يبدِّل المرء قمصانه، والمذيع صديق المستمع، إنه الشخص الذي أتعود عليه وعلى نبرات صوته وعلى حضوره. إذن، هذه ليست دعوةً للتخلص من المذيعين، بل دعوة لدعمهم. وفي الوقت نفسه دعوة لكي يتناوبوا على البرامج. المذيعون رأسمال الإذاعة، وهم مشكلتها الكبرى في الوقت نفسه. لتكن هناك دورات وورش وعمل دؤوب لرفع مستوى اللغة. وعندي مثال أود أن أرويه حتى لو اتهمني بعضُهم بأنني أُسرف في الحديث عن إذاعة لندن: جاءتنا مذيعة جديدة يومًا، واكتشفنا من تقريرها الأول الذي سجلته بصوتها أنها خاوية الوفاض من النحو والصرف. ونظر بعضنا إلى بعض، نظرة معناها أن فلانة لن تبقى معنا طويلًا، وأنها ستعود إلى بلدها بعد الأشهر التجريبية المنصوص عليها في العقد. وبعد شُهير -تصغير شهر- كانت المذيعة تتقن النحو والصرف. ليس لأننا أنفقنا في تعليمها الساعات الطوال؛ فهذا لم يحدث. كل ما في الأمر أنها رأت كل من حولها يتقنون النحو، وسمعت ملاحظة من هنا وملاحظة من هناك. وكان بعضنا يقرأ معها التقرير قبل التسجيل بتأنٍّ، ويُرشدها بودٍّ إلى الأغلاط. والمذيعة المذكورة لم تزل تعمل في إذاعة لندن، ومضت عليها عشرون سنة.

معيـار النحو فـج. وما يزيده فجاجة أنه يصبح أحيانًـا المعيار الوحيد. فمن السهل على مدير أخبار متمرس أن يلتقط بأذنه الغلط النحوي، ومن السـهل عليه أن يشهِّر بالمذيع الذي ارتكبه. ويصاب المذيع بهوس اسمه التشـكيل والنحـو والصـرف. المطلوب قـدر صالح من الصحـة اللغوية. لكن هذا أهون ما نطلبه من المذيع.

المذيع يعرض أعماق شخصيته أمام المستمعين. ومن كلامه سأعرف الكثير عنه. إن كان شـخصًا عاميًا ضحلًا سـأعرف ذلك، وإن كان شخصًا مغناجًا متثنيًا سـأعرف ذلك، وإن كان ممتلئًا بموضوعه محبًّا له سـأعرف ذلك. وإن كان يلثغ بالراء أو بالجيم أو بالسين سأنسى ذلك.. لكن بشرط: أن يقنعني بخفـة روحـه وبمعرفتـه الطيبـة، وببراعتـه فـي إلقـاء الأسـئلة واسـتجواب الضيف. ليس من شرط المذيع أن يكون خطيبًا. ولا نشترط عليه أن يكون من كبار المثقفين. ربما عبَّرنا عن كل ما نشترط في المذيع بكلمتي: الحضور والقَبول.

خامسًـا: نشرة الأخبار. يمكن للنشرة أن تكون دسمة عامرة باللقطات الصوتيـة ويمكـن أن تكـون ممتعة ودسـمة حتى وإن خلت مـن اللقطات الصوتية. ثمة طرق للاختصار تعلمناها من تويتر. وثمة طرق للتخفُّف من الأخبـار البروتوكولية. هناك نشـرات أخبار في إذاعـات تجارية أجنبية لا يتعـدى طولهـا الأربعيـن ثانيـة، ومـع ذلـك يكـون فيهـا بعـض اللقطات الصوتية.. تكون سريعة كالبرق ويشعر المستمع بأنها دسمة. اللغة العربية ليسـت قاصـرةً عـن تحقيق سـرعة الإيقاع مع الإفـادة. نحتـاج إلى بعض التواضع لنتقبَّل حقيقة أن في العالم أساليب أخرى. يمكن إدخال تحسين كبير على نشرات الأخبار دون أدنى مساس بتوجهها التحريري والسياسي.

سادسًا: الأغاني. إذا كان مسؤول المكتبة الموسيقية هو وحده من يقرر أي الأغاني ستبث فسوف نستمع إلى الأغاني نفسها تتكرر كثيرًا. ليس هناك شخص يملك ذائقة مطلقة التنوع. وتركيب قوائم الأغاني مسألة بحاجة إلى شغل. الأغاني التي تعكس روح البلد وتاريخه مطلوبة، ولكن ذوق الجمهور أوسع من ذلك. الأغنية الجديدة هي بذاتها خبر، والمستمعون يريدونها. مثلما انتبهت الصحف الأجنبية إلى ضرورة الاهتمام بالصور، وبدأت تُعَيِّنُ «محرر صور»، فعلى الإذاعات أن تهتم بالأغاني. ننسى أنفسنا.. نكبر.. ونظل نعتقد أن أغنية «دخلك يا طير الوروار» جديدة. لماذا؟ لأننا سمعناها أول ظهورها، وسُررنا بها. وننسى أن كثيرين من المستمعين ولدوا بعد الوروار. التعامل مع الأغنية كخبر معناه ببساطة أن نتابع الجديد.

سابعًا: البرامج الإخبارية. التلفزيونات جعلت نشراتها برامج إخبارية. فالنشرة التلفزيونية تحتوي على الخبر مرفقًا بمقابلة أو بتقرير مراسل أو بكليهما حسب أهميته. ولكن الإذاعة تظل أحرص على سرعة الإيقاع.

ثامنًا: اللغة الشاعرية. فيما بين البرامج تجبهنا فقرة عن الوطن «مضمخة بعبير السوسن البري الذي يتموسق في أذن الفضاءات الموغلة في البوح». هذا ما كنا نكتبه في الصف العاشر. وهذا يرد على لسان المذيعين والمراسلين كثيرًا. ولكن.. ثمة ما هو أسوأ! في تاسعًا..

تاسعًا: نحن الوطن. ثمة عبارات صارت كليشيهات باهتة. مثل «ودائمًا من صوت فلسطين»، ومثل «والله تعالى أعلى وأعلم».. ليس فقط لأن «تعالى» و«أعلى» من نفس الجذر، ولكن أيضًا لأن من الاعتذارية

الممجوجة أن نلحق كل ما نقول بشرط إلهي. هذا عن العبارات المكرورة. ولكن المسألة أسوأ حقًّا. هناك خط فكري خفي في «صوت فلسطين» هو أن المسموح له بالحديث عن فلسطين هو نحن فقط. هناك عصا غليظة مسلطة على الجمهور هي أن حدود التفكير في الوطن هي هذه التي نرسمها نحن. من هذا الخط تتفرع برامج كثيرة تمجد فلسطين تمجيدًا لا داعي له، وتضفي رومنسية مقحمة على الألم الفلسطيني بشكل صارف للمستمع. فلنقر بأن هذه الإذاعة الرسمية لا تخرج عن خط السلطة، ومنظمة التحرير، ولنحاول ضمن هذه الحدود أن نتصرف بشكل طبيعي. إن إزجاء التحايا «الوطنية» لمن نُجري معهم مقابلات شيء يذكّر المرء بوسائل الإعلام الحزبية. هذا ليس جميلًا، وهو اعتذاري، بمعنى أنه يمثل غطاءً للإعلامي الضعيف الذي يبالغ في التشدق بالوطن والوطنية فكأنما هو يقول لمسؤوليه ولمستمعيه وللمسؤولين السياسيين: لا يتهمني أحدٌ بشيء فأنا وطني حتى النخاع، ولا مجال للطعن في مهنيتي ولا في خفة ظلي لأنني.. وطني. في الواقع أننا جميعًا وطنيون، وفي الواقع أيضًا أن المرء يمكن أن يكون وطنيًا جدًّا وذائبًا في حب فلسطين ومنظمة التحرير، ولكنه مع ذلك مذيع فاشل. المطلوب أن تكون وطنيًّا وإعلاميًّا جيدًا.

عاشرًا: فكّر في المستمع. المذيع الذي يفكر في المستمع لا يقطع الأغنية قبل القفلة. ببساطة يجب أن يستمتع المذيع بما يذيع على الناس، ويعايش استماعهم، ويسمع معهم. حتى في المقابلة فقد يمضي الضيفُ في جوابه ويبدأ يكرّر نفسه. المذيع الجيد يصغي للضيف وينقذه بسؤال جديد عندما يبدأ بالتكرار. والمذيع السيئ لا يصغي بل يفكر فقط في أسئلته ويرميها في وجه الضيف كيفما اتفق.

حادي عشر: هذه مجموعة من البرامج الممكنة.

أ- **نحن والعالم**: في كل حلقة نستضيف سفيرنا في بلد معين، مثلًا ماليزيا، فيحدِّثنا عن طبيعة علاقاتنا كدولة بهذا البلد، وطبيعة الجالية الفلسطينية وعدد أفرادها. ثم نستمع في البرنامج إلى أغنية ماليزية، ثم مختصر عن ماليزيا: موقعها وسكانها ... إلخ.

ب- **أخبار العالم**: نشرة إخبارية منوعة عما يجري في العالم كله. وتأتي ضمن برنامج إخباري موسع في المساء مثلًا. العالم مليء بالأخبار العلمية، والناس مهتمون بما تنتجه آي فون وسامسونج، وبانقلاب حدث في كمبوديا. مدة النشرة ثلاث دقائق، نعود بعدها للتقارير المحلية.

ج- **هاشتاج**: من الممكن تلخيص الاتجاهات العامة في العالم العربي من خلال النشاط على تويتر. هذا شيء سهل على من هو متابع للمشهد. هاشتاج يمكن أن يتطرق أيضًا إلى الفيس بوك، وسائر تلك الوسائل، ويمكن أن يوضع له خط تحريري محترم يمنعه من الانزلاق في المهاترات.

د- **أغاني العالم**: مجموعة من أجمل الأغاني من البرازيل وتركيا والسنغال وغانغام ستايل، وآخر ما خرج من الكنتري ميوزيك، والجاز، والراب ... إلخ. هذه النصف ساعة قد تصبح نقطة جذب للشباب.

هـ- **امسك حرامي**: برنامج عن السرقات. في الشعر العربي القديم أُلِّفت كتب كثيرة عن السرقات الشعرية. ويمكن أن يحتوي

البرنامج على سرقات الألحان أيضًا ... بقليل من البحث يمكن للمعدّ أن يصنع حلقات كثيرة بطلها محمد عبد الوهاب والرحابنة. برنامج كهذا بحاجة إلى إعداد جيد. ويمكن أن يكون طريفًا بحق، ولعله متخصص من حيث الإعداد، فأما من حيث المادة فهو ممتع وترفيهي وتثقيفي أيضًا.

و- **فنان من بلدي**: برنامج ليس بحاجة إلى شرح.

ز- **أغنية لها قصة**: برنامج قصير يسيطر عليه الغناء القديم. المراجع: هناك على الإنترنت آلاف الصفحات في هذا السياق. المطلوب فقط الشخص الغاوي لكي يصنع هذا البرنامج الذي طوله أربع دقائق: للقصة دقيقة وللأغنية ثلاث دقائق.

ح- **الأغاني الجديدة** ... هذا ليس برنامجًا.. الأغاني الجديدة يجب أن تتسلل إلى مواضع شتى في البثّ. ولكن المذيعين الذين لا يسمعون الجديد قد يسقطون في فخ استعمال أغان عتيقة مرارًا وتكرارًا ... ولا ننس أن مذيعي «صوت فلسطين» من فئة عمرية متقدمة مقارنة بمذيعي الإذاعات الخاصة، ويحتاجون إلى بذل جهد لمواكبة الأغاني الجديدة.

ط- **مسابقات**: هنا يتجلى عنصران، الثقافة العامة، ومتعة السباق. يمكن عقد حلقة في كل مدرسة بين طلبة يختارهم مُعلّموهم (مستوى الثانوي مثلًا)، ويتم اختيار طالب فائز وسط تصفيق جمهور الطلبة. وعلى مدى العام تجري الحلقات أسبوعيًا. مثل هذا الأمر بحاجة إلى كثير من التخطيط والتعاون مع وزارة التربية

والتعليم. ولكن برنامجًا كهذا يمثل عنوانًا للإذاعة الكبيرة التي هي إذاعة الوطن بحقٍّ. يتجول البرنامج بين مدارس مختلفة ويظل يتجول. الركائز الأساسية لنجاح مثل هذا البرنامج: * الأسئلة الحقيقية وليس أسئلة التحزير، وهذا يستدعي وجود فريق إعداد جيد، * سرعة الإيقاع وخفة ظل المذيعة أو المذيع، * وجود جوائز مناسبة وغير نقدية، * رعاية مناسبة تقدم الميزانية والجوائز، * وجود جمهور في الاستديو، * وجود هندسة صوتية قوية تضمن توازنًا صوتيًّا وقاعة جيدة أكوستيًّا بحيث يتم التحكم جيدًا في الصدى. وبالنسبة للمذيع أو المذيعة ففي حال تم ضبط البرنامج بتخطيط مستوفى وضبط مسألة فريق الإعداد، فإن تغيير المذيع بحسب المنطقة سيكون أمرًا عاديًّا. (عندما غيروا مذيع برنامج هارد توك تيم سباستيان قال بعضهم: إن البرنامج سيسقط، ولكن ستيفن ساكر جاء ونجح، وزينب بدوي جاءت ونجحت ... لأن الإعداد ... جيد).

ي- قصة قصيرة: الأدب لا يدخل الإذاعة بسهولة. قراءة الشعر لم نقترحها كبرنامج لأن المذيعين يكسرون كسرًا فاضحًا حتى في شعر محمود درويش. لكن القصة القصيرة ممتعة، وهناك آلاف القصص القصيرة العربية والمترجمة التي يمكن حشرها في سبع دقائق. ومن ذا الذي قال: إن تشيخوف، ومحمود شقير، ويوسف إدريس لا يملكون أن يرفهوا عن المستمع؟ هذا ترفيه راق وجميل، وكل ما يحتاجه الأمر مذيع يحب الأدب ويتقن لغته.

٢٠١٥/٥/٨

ما بعد الصواميل

هناك أشياء مهمة في تدريس الإعلام في الجامعة، وهناك شيء قليل الأهمية.. شيء واحد. ونبدأ بالشيء القليل الأهمية ولسبب وجيه، فهو الشيء الذي يركِّزون عليه أكثر من غيره في جامعاتنا. وهذا الشيء هو الصواميل.

الصواميل: يضعون بين البرغي والصامولة حلقة مستديرة نسميها نحن بالاسم الأجنبي روندِيلا، ويسميها المصريون اسمًا أجمل؛ يسمونها وردة. وهدف هذه الحلقة توزيع الضغط وخلق حالتي رصٍّ وفصل تمنعان البرغي من التحلحل عن صامولته، أو هكذا أفهم دورها. وصبي السمكري يعرف كل شيء عن البراغي والصواميل والوردات.

وبالنسبة للإعلام فالصواميل هي عيارات المسجل والكاميرا، وبرامج تقطيع الصوت والصورة على الحاسوب، والأسئلة الستَّة المطلوب الإجابة عنها لدى كتابة الخبر، والهرم المقلوب، والوصايا السبع: لا تكذب، لا تبالغ، لا تسرق.. معروفة.

هذه الصواميل الإعلامية يمكن تدريسها للطالب في يومين. فإذا أنفقنا في تدريسها عامين -كما نفعل الآن- فسوف يخرج الطالب حافظًا لها، ولكنه لن يتقنها كما يتقنها مصور محترف ليست معه شهادة، أو كما يتقنها محرر صحفي محترف لم يدخل جامعة.

صبي السمكري سيظل الأشطر في الصواميل؛ لأن الصواميل صواميل.

فـإذا كان الغـرض مـن تدريـس الإعـلام أن يصبـح الطالـب بارعًا في «تقنيـات» الإعـلام، فخير له أن يذهـب إلى معهد ليأخـذ دبلومًا في ثلاثة أشهر.

بالمثل فإذا كنا سنعلِّم طالب الحاسوب كيف يستعمل الكمبيوتر فخيرٌ لـه أن يجلس فـي البيت؛ لأن «اسـتعمال الكمبيوتر» صـار -حَرفيًّا- لعبة أطفال.

الجامعة تركز جهدها في منح طالب الحاسـوب آفاقًا برمجية، وتعمقًا في مفاهيم الحوسبة، وفي تفكيك الظواهر ثم تركيبها رقميًّا.

في الإعلام الأمر أعقد. فطالب الحاسوب غير مطالب بمعرفة القضية الفلسـطينية، ولكـن طالـب الإعـلام مطالـب بمعرفـة القضية الفلسـطينية والكونغولية أيضًا. وطالب الحاسـوب يكتفي من الإنجليزية بقدر معين، وعلى طالب الإعلام إتقان أكثر من ذلك. وطالب الحاسوب ليس مطالبًا بعربيـة فصحـى، ولا بمعـارف جغرافية وتاريخية كثيـرة، وطالب الإعلام مطالب بهذا.

هدف هذه الورقة: أن تجيب عن السؤال: كيف لطالب إعلام أن يصبح مميزًا في سوق الإعلام المحلي والعربي والعالمي؟

أولًا: الصواميـل، قليـل منهـا ضـروري. لا بُـدَّ للصحفـي مـن بعـض المهارات اليدوية الحاسوبية، ولا بُدَّ له من بعض التصوير وبعض التسجيل على جهاز جيد. ولا بد له من معرفة الأسئلة الستة والهرم المقلوب. وكما قلنا -ولن نغير كلامنا- فإن دراسة الصواميل تستغرق يومين. ومن طريف مـا مـرَّ بـي أن دائرة الإعـلام ومركز الإعـلام بجامعة بيرزيت قعـدا يلهثان

ثلاث سنين للحصول على كاميرات، وبعد طول اللهاث حصلنا على كاميرات «هاي إيت»، وحصلنا من ممول أجنبي على كاميراتين ثمن الواحدة خمسون ألف دولار، ثم كان لي بعد سنوات قلائل أن أدرب صحفيين محترفين في مؤسسة ميزانيتها تبلغ عدة مليارات من الدولارات سنويًا، وكانت الكاميرات المستعملة في التدريب تلفونات. فالمطلوب من الصحفي أن يلتقط الحدث لا أن يصبح مصورًا محترفًا.

في الجامعة يكتسب المرء المهارة وسعة الأفق والمعرفة والقدرة على رؤية الصورة الواسعة. وبهذا يتميز عن حامل دبلوم المعهد الصناعي. بعض المهارات أصعب من بعض. فطالبٌ جاء من مدرسة أجنبية سيكون نصيبه من الإنجليزية وفيرًا، وطالب محبٌّ للمطالعة لن يلقى نفس الصعوبة في العربية الفصحى، وطالبٌ ذو خلفية علمية سيتميز، وطالب تعرض في صباه لوسائل إعلام جيدة سيكون متميزًا. سيكون الطريق مفروشًا بالأشواك لطالب يحلم بأن يكون مراسلًا للسي إن إن وهو خرّيج مدرسة حكومية وأفقه الإعلامي هو فقط الإعلام المحلي. وسيكون الطريق مفروشًا بأشواك مختلفة لطالب يحلم بأن يكون مذيعًا بالعربية، وهو قد درس في مدرسة أجنبية تحتقر اللغة العربية.

لكل امرئ أن يحلم بما شاء، والأفضل توجيهه لتصبح أحلامه قابلة للتحقق. وجيد أن يكون تخصص الإعلام عامرًا بالخيارات، بحيث يأخذ كل طالب حاجاته الأساسية بيسر.

علينا ألّا نركز على الجانب التقني؛ لأن الكاميرات تتغير وبرامج مونتاج الصوت والصورة تتغير، ولأن الهدف ليس تخريج فنيين بل

صحفيين. ولو قرر أحد طلبتنا بعد التخرج أن يكون فنيًا فسوف يكون فنيًا متميـزًا لأنه واسـع الفهم للصحافة، وكل مـا يحتاجه بعد التخرج أن يعزز مهارته في مونتاج الفيديو مثلًا بدورة قصيرة.

الهـدف مـن دائرة الإعلام في الجامعة بناء العقـل الصحفي. وهذا فيه القليـل من الدراسـة النظرية والكثير من الممارسـة. ممارسـة الصحافة.. وليس ممارسة فكّ الصواميل.

هذه ثلاث نقاط:

١- المناخ الاجتماعي في جامعة بيرزيت فرصة موجودة وتُسـهم في تحقيـق الهدف. والهدف -تذكيـرًا- أن يكون خرّيجنا في الإعلام مميزًا في سوق الإعلام المحلي والعربي والعالمي.

٢- المطالعـة: أهم مطالعة هي ما «يرتكبه» المرءُ في الطفولة والصبا. هنـاك يكـون التشـكُّل. فـإذا جـاء إلـى الجامعـة فالجـو الطلابـي، والاختـلاط مـع الجنس الآخـر، والتفكير المتعاظم في المسـتقبل والوظيفـة تشـغله جميعًـا عن اسـتهلاك عدد كبير مـن الصفحات. كان حلمًـا أن نفـرض على الطلبة قراءة خمسـين رواية وخمسـين كتابًـا فـي التاريخ والسياسـة والاقتصـاد قبل التخـرج. حلم نعتذر عنه. فلتكن المناهج مصحوبة بقراءات معقولة. لقد تخرج المئات دون قـراءة كتـاب واحـد، ولا نريـد ذلـك. فليكن الهـدف أن يقرأ الطالب خمس روايات وعشـرة كتب في سنتي التخصص جميعًا. يحتاج الطالب إلى أن يخلو بنفسه مع الكتاب يقرؤه ويرتقي فكريًا، ومثلمـا جربنـا ذات سـنة برنامجًا للمطالعـة نجح نجاحًا متوسـطًا يمكننا أن نطور التجربة، لتنجح نجاحًا أكبر.

٣- المنهج والأساتذة: الأساتذة الموجودون بعضهم متشرب بروح جامعة بيرزيت التحررية، وبعضهم ممن يعمل بالقطعة وفيه من هذه الروح القليل أو الكثير. وحرية الأستاذ يجب الحفاظ عليها في كل حال.

وصف المرشح لتخصص الإعلام: شخص يجيد العربية، ويقرأ الخبر بالإنجليزية فيفهمه بمساعدة قاموس، ويتمتع بثقافة عامة جيدة. ولإجازة ترشيحه يقدم اختبارًا مدَّته ٥٠ دقيقة.

وصف خرِّيج الإعلام: شخص يعرف الخريطة السياسية الفلسطينية معرفة جيدة، والعربية بشكل طيب، ويمكنه أن يستعمل مصدرًا إنجليزيًّا لاستقاء الأخبار وقراءة بعض التحليلات، ويستطيع كتابة خبر بعربية صحيحة مع استيفاء عناصر الخبر، ويعرف البيئة الإعلامية الفلسطينية والعربية، ويستطيع إجراء مقابلة ناجحة لبرنامج إخباري وآخر اجتماعي. ثم يضاف إليها واحدة أو اثنتان من المسائل الحرفية مثل تصميم وإنتاج برنامج إذاعي، أو تحضير تقرير تلفزيوني جيد، أو قراءة نشرة أخبار قراءة سليمة، أو الإتقان التطبيقي لقواعد اللغة العربية.

لا نسعى إلى صناعة الصحفي الشامل. فهذا يتكوَّن في الممارسة أو لا يتكوَّن.

الدمج: الجرائد تتلاشى، وأخذت مواقع الإنترنت تسود. وصحفي الإنترنت مطالب برفع ملفات صوتية، وبالتعامل مع الفيديو. وكل هذه الأنشطة في السوق تقتضي القدرة على التعامل مع الصورة والصوت والمادة التحريرية واللغة. ولذا أصبح ضروريًّا دمج التخصصات

الإعلامية. وما يمنع الدمج هو فقط مخاوف بعض الأساتذة من البقع العمياء في مهاراتهم، وهذه البقع العمياء موجودة عندنا جميعًا، وليس أستاذ الإعلام مطالبًا بتدريس كل شيء، وكذلك -وبالمثل- ليس كل طالب إعلام مطالبًا بدراسة كل مساق. لكن من الظلم المبين أن نرغم الطالب على الاختيار بين «صحافة الجرائد» وبين «الإذاعة والتلفزة». فطالب الصحافة محتاجٌ لبعض مهارات الصوت والصورة، وطالب الإذاعة والتلفزة محتاج لبعض مهارات التحرير. ومن الخطأ في هذا العصر أن نضع (الجرائد) في كوم مقابل (الإنترنت والتلفزيون والراديو) في كوم آخر. الدمج سيعطي كل طالب كثيرًا من مهارات التحرير واللغة والصورة والصوت، ثم يتاح له بعد ذلك أن يختار بحرية بعض المساقات كالتصوير الفوتوغرافي، والإلقاء الإذاعي، وفنيات الصورة، والوثائقي، والنظريات الإعلامية. هذه كلها خيارات، بجانب مجموعة المساقات المفروضة على الجميع.

بعض النماذج: طالب متميز في الحركة والتشبيك ومعرفة القضايا الحسَّاسة سياسيًّا واجتماعيًّا، ولكنه لا يملك جهاز نطق جيدًا وحروفُه مكسَّرة ومخارجه رديئة، ولا يريد أن يأخذ مساق الإلقاء. هذا الشخص له مجال مهم في الإعلام، ولكنه ليس مذيعًا. وطالب يعشق الإلقاء والحوار ولا يريد أن يأخذ مساق التصوير الفوتوغرافي. وطالب اهتمامه الأساسي الأخبار، ولا يريد مساق الوثائقي.

كل هؤلاء الطلبة يحتاجون حتمًا إلى فهم التحرير وإلى اللغة، وإلى معرفة كيفية كتابة الخبر والتقرير، وإلى معرفة آفاق الإعلام الجديد. كلهم

سيأخذون المسـاقات الإجبارية التي تضمن خروجهم صحفيين، وينتقي كلُّ طالب من المساقات الاختيارية ما يناسب هواه.

جو المقال: هو ورقة فكرية كتبتها لتطوير الدراسة الإعلامية في جامعة بيرزيت بفلسطين. وكان في الورقة -قبل تحريرها هنا- وصف للمساقات وتفصيلات أخرى. عمومًا: كان مصير الورقة سـلة المهملات. وأنشـرها اليـوم أمـلًا في أن تكون فيها فكرة مفيدة مع أن صناعة الإعلام تغيرت في السنين الثماني عشرة المنصرمة.

عن المذيعين

- خير ما يوصف به المذيع أنه إعلامي جيد. أما أن يكون الانطباع عنه أنه نصير الحق أو حامي الوطنية أو مُسكت السَّاسة فهذا مَنقصة لا مَحمدة.

- السؤال الطويل رديء، وأردأ منه السؤال الذي يبدأ بمجموعة معلومات، ثم يتسكع المذيع في أروقة الكلام بحثًا عن سؤال، ثم ينتهي قائلًا: «فماذا تقولون في ذلك؟»

- السؤال المزدوج رديء دائمًا. وأردأ منه سلسلة الأسئلة المتعاقبة التي يبدأها المذيع بسؤال ركيك يُدرك ركاكته فور الفراغ منه فيُردفه بسؤال آخر يوضحه، ثم ثالث يجمع شتاتهما والنتيجة أن يسأل المذيع عن شئ مختلف تماما عما بدأ به.

- حتى لو كان السؤال مكوَّنًا من كلمتين فقد يدل على حصافة المذيع وعمقه ومتابعته، ذلك أنه يأتي في مكانه بالضبط وينبئ عن حُسن إصغاء ومتابعة.

- المقابلة التلفزيونية -طالت أم قصرت- هي سؤال وجواب. وليس للمذيع أن يقدم تعليقًا أو تقريرًا ضمن المقابلة، قصارى المذيع أن يسأل وبإيجاز وتركيز.

- إذا اشتبك ضيفان في مساجلة تفضح نقاط القوة والضعف في حجج كل منهما فخير ما يصنعه المذيع أن يحسن الإصغاء إلى أن يخرج أحدهما عن الموضوع فيردُّه إليه ثم يسكت. المشاهد يدرك بغريزة شديدة الحساسية أن المذيع لم يصنع ذلك عن ضعف بل عن فضل اقتدار.

- ما أكثر ما يستطيع السؤال أن يحمل من أغلاط: السؤال الغلط للضيف الغلط آتيًا في الموقع الغلط منطوقا بالنبرة الغلط. ليس نادرًا أن يكون عدد الأغلاط الصحفية في السؤال أكثر من عدد كلماته.

- ما يريده المذيع من الضيف إنما هو المعلومات أو الآراء أو كلاهما، فليقصد إلى مبتغاه بترتيب يريح الضيف والمشاهد.

- المذيع الجيد يبدو مرتاحًا غير منفعل، وليس به من التوتر إلا القدر المحدود الذي تستدعيه الكاميرا. الانفعال والتشدد دليلا ضعف.

- ليس من حق المذيع أن يسدد اتهامًا مباشرًا للضيف بالمراوغة، فهو أصلًا لا يملك الحق بالإدلاء برأي. حسبُ المذيع أن يكشف في أقصر وقت ممكن عن عدم وجود جواب حرصًا على وقت المشاهدين وعلى إيقاع البرنامج. ليس له أن يقول للضيف: «إذن فأنت لم تجبني على السؤال»، وأسوأ من ذلك أن يقطع المذيع المقابلة بتوجيه الشكر فورًا بعد اتهام كهذا.

- فرق شاسع بين أن يدرس المذيع ملف القضية ويُلمُّ بجوانبها ويكون فوق ذلك متابعًا الأحداث والتيارات المختلفة، فينطلق في أسئلته من أرض صلبة واثقًا مستخبرًا عن معلومات ومواقف جديدة، وبين أن يرتل أسئلة مرصوفة منتظرًا الفرج من الملقان المدسوس في أذنه.

- للضيف أن يكسب بعض الوقت للتفكير متكئًا إما على البسملة والتحميد -وهل نملك بإزاء ذلك شيئًا- وإما على عبارات جوفاء من قبيل «في الواقع أنه يجب في البداية العودة إلى أصل القضية». وللمذيع أن يُنظره إلى أن يزول ما بنفسه من وحشة. ولكن المذيع الذي عالج القضية موضع البحث علاجًا عميقًا سيحس عاجلًا بسؤال مُلحٍّ وحقيقي. وهذا ينقذ الطرفين من المراوغة.

- مقاطعة الضيف شرٌّ لا بد منه. ليقاطع المذيع ضيفه الذي خرج عن الموضوع بسؤال قصير واضح.

- السؤال الذي يجتلب نعم أو لا رديء عمومًا. وهو يخلق ميلًا لدى الضيف للخروج إلى أي موضوع يريده، أو أن يجيب الضيف إجابة قصير مما يستدعي من المذيع أن يتبع سؤاله بذيول تفتح باب القول للضيف، وفي الذيول آفات. وإذا اضطر المذيع لسؤال بـ «هل»، فليتهيأ بسؤال آخر بعد تلقِّي الجواب القصير.

- ليست «يعني» و «إذن» و «في واقع الحال» قبيحة بنفسها، ولكنها تأتي في مواضع تكشف أن المذيع ضلَّ طريقه. فقُبحها قُبح مستمد لا أصيل.

- أسلوب «التنعيم» في آخر المقابلة (أن يكرر المذيع كلمة نعم لإنهاء المقابلة) كالكي. والمذيع الذي يكوي كل ضيوفه حقيقٌ بالبحث عن وسائل علاج أخرى.

- قلَّ مذيع -أو إنسان- يخلو من التذاكي والتعالم والتفاصح والتفيهق. إنما يميز المذيع الجيد قلة حظه منها.

- أيسر ما يحتاجه المذيع عربية سلسة، وسليقة تعصمه من اللحن بأقل مجهود حتى يشغل نفسه بموضوعه لا بالفتحة والضمة. لكن حاجة المذيع إلى النباهة التحريرية والثقافة العامة والمتابعة السياسية والمعرفة المعمَّقة بالملفات السياسية والاجتماعية الراهنة ماسَّةٌ. وليس صعبًا قياس ما يملكه المذيع.. بضع مقابلات كفيلة بفضح بضاعته من كل أولئك.

- صناعة مذيع: عندما نشأت الإذاعة أخذت مذيعيها من المسرح وظلت في أسر الإرث الخطابي زمنًا، ثم برز المذيع الهامس على أمواج الإف إم. وأخذت التلفزيونات العربية مذيعيها من الإذاعات العربية قبل أن تدخل تلك الإذاعات عصر المذيع الهامس. فهناك نمط المذيع الخطيب وهناك نمط المذيع القارئ. وفرضت المقابلات، وهي بدعة جديدة على صنعة المذيع، مستوى آخر من الثقافة والوعي. ولكن التلفزيونات العربية تأخرت في تغيير مواصفات المذيع، وظلت الطلَّة والتخشب أمام الكاميرا في هيئة مسرحية والتلوين الصوتي من المستحبات. وقد آن أن ندرك مدى

أثر الثقافة والوعي السياسي في إعطاء المذيع هيئة مطمئنة وإطلالة أنيسة على الشاشة.

- مفيد للمذيعين الانخراط في ندوات داخلية تعالج ملفات سياسية واقتصادية وبيئية وعلمية خبرية. هذا نشاط داخلي لحضّ المذيعين على التعمق. لو طُلب من مذيع أن يقدم لزملائه عرضًا مدته نصف ساعة بعنوان: «النفط والغاز في العالم اليوم»، وأتيح للمذيعين نصف ساعة نقاش لكان في ذلك فائدة كبيرة. ولو تكرر هذا «السيمنار» أسبوعيًا، مع تنوع الموضوعات، لصنع فرقًا في المحطة.

جو المقال: قُرئ المقال في اجتماع لجنة التحرير لقناة الجزيرة.

ورطة المذيع، وورطتنا معه

هـذه مسـألة مركبة، ولشـرحها أحتاج إلى ضـرب المثال بعـد المثال. وأحتاج إلى التبسُّـط في الكلام، فمن لم يكن لديه الوقت لمتابعة كلامي فلينصرف راشدًا.

ثمة عنصر لمسته في كثيرين من المذيعين الذين تعاملت معهم: عنصر الإعنـاق. ومـن رأى هنـد رسـتم وقد لفَّـت علـى كفليها «الملايـة اللف» وأعنقت في مشـيها (يعني رفعت رأسها وتعاجبت، وصارت تمشي ببطء متمايلـة، يتحـرك جسـمها حركتيـن محورهما خصرهـا: حركـة للردفين بطيئـة، وحركـة معاكسـة لها للصدر وللـرأس المرفوع المشـرئب المعنِق إعناقًـا)، مـن رآهـا فقد رآها، ومن لـم يرها فقد أريته صورة مِشـيتها، هذه الهند رستم ينطلق جسمها من منطلق عقلي وشعوري، فالجسم لا يتحرك على البطارية. هي تقول: «يا أرض اشتدي، ما حدا قدي».

وقد رأيت في فيلم وثائقي لهويدا طه كيف يدربون رجال الشـرطة في كلية الشـرطة: يقـول لهم المـدرب: «امشِ وتعاجِب. رأسـك فوق فوق، واجعل الكل تحتك». هذا المفهوم الشـرقي لرجل الشرطة موجود بقوة. وقـد سـمعت مدير شـرطة نابلـس بعـد أشـهر قليلـة مـن قـدوم السـلطة الفلسـطينية، في محاضرة لعدد من الصحفيين، يقول: «إن الشـرطة يجب ألا تكون من المدينة نفسـها، فهي تأتي لكي تحكم الناس لا لكي تتعامل معهـم». ورأيت أسـاليب الشـرطة البريطانيـة في زيارة لمخفر شـرطة في

بيرمنغهام كنت فيها ضمن مجموعة من الصحفيين الملتحقين بهيئة الإذاعة البريطانية. حدَّثونا عن اللهجة القاسية التي يتعاملون بها مع المشتبه فيه، مع الحفاظ على حقوقه القانونية وتنبيهه إلى أن من حقه ألا يقول شيئًا إلا في تحقيق رسمي .... إلخ.

وأعود إلى المذيع: مُعنِفًا مثل ليلى رستم، أم قاسيًا جافيًا مثل شرطي نابلس وبيرمنغهام، أم شخصًا ذكيًا قوي الشخصية، ممسكًا بزمام الأمور؟

عندما توفي نزار قباني، أجرت محطة تلفزيون مقابلات في الشارع مع الناس. أحد المواطنين شدَّ الميكروفون من يد المذيع وأمسكه، وراح يؤبّن الفقيد بحرارة. لا أدري إن كنت أقفلت التلفزيون بالفعل، أم أقفلت عقلي دونه. لكن موقفي كان الاشمئزاز من المذيع. لا أرى المذيع يترك ميكروفونه ويظلّ مذيعًا. هذا كالسائق الذي يترك عجلة القيادة للعجوز الجالسة بجانبه التي تحذره من العطفة المقبلة، يقول لها: «خذي يا ستي سوقي السيارة». هذا ليس سائقًا أطمئنُّ إليه. أريد للمذيع أن يكون قوي الشخصية عارفًا موضوعه.

فإن قل محصول المذيع من المعرفة عوَّض ذلك بالوقاحة، والتعدِّي. والعناصر لا يحل أحدها محل الآخر. هذه معادلة كيميائية مزبوطة: ملعقتان من قوة الشخصية وأربع ملاعق من المعرفة، وملعقتان من حضور الذهن، وأربع ملاعق من الدرس والتحضير، وملعقتان من التواضع والأُنس واللطف. وملعقة من الضعف الإنساني الذي لا يتجرد منه شخص إلا كان مجردًا من إنسانيته. الوقاحة ليست ضمن المعادلة.

لا ينفـع أن يغيـب عنـك التحضيـر الجيـد فتسـتعيض عنـه بمزيـد من الشراسة (كلمة شراسة يجب أن أتذكرها لفقرة لاحقة).

تكون شاهدت في صغرك الإعلام الحكومي، ورأيت المذيع مستخذيًا أمـام الوزيـر في المقابلـة، وتراه يُجري مقابلـة مع وزير التربيـة والتعليم: مقابلة محنطة في أسئلتها. لا يقول كلمة جارحة، وإلا سيفقد وظيفته. ثم إنـك بعد سـنوات مـن عمرك تطـلُّ إطلالة بسـيطة على الإعـلام الغربي، فتفغر فاك دهشـةً. تلاحظ عنصرًا جديدًا. هو التحدي، (تشالنج بلغتهم). ترى المذيع يواجه المسـؤول بحقائق، وأسـئلة صعبة. ويتهرب المسؤول ويلاحقه المذيع بتكرار السـؤال إمـا بصيغة أخرى، وإما بنفس الصيغة إن كان تهرُّب المسؤول مفضوحًا.

وكـرد فعـل مـن جانبـك، بعد رؤيتـك الإعـلام الغربي، تكفـر بصورة المذيع التي عرفتها في صغرك. وتسـتبدل بهذه الصورة اسـتبدالًا المذيع الغربي المتحدي الشرس. هذا من خطلك يا أخطل.

نقول لك: توازن. اعتدل. الأمر ليس مسـألة اسـتبدال، ولا هو مسـألة اقتبـاس لخصيصـة واحـدة. مـن حقـك أن تنبـذ أسـلوب المقابـلات «الحكومـي». ولكن ليس من حقك أن تفهم الطريقة الغربية فهمًا مبسـطًا مختـلًا، ولا أن تطبقها بشـكل اعتباطـي. ضيوفك العرب فـي المقابلات التـي تُجريها ليسـوا كضيـوف المذيـع الأجنبي، ومشـاهدوك العرب لهم مذاقهم وطريقتهم في التقبل والمتابعة.

نعود إلى لفظة شراسة.

المذيع الذي يتلقى الكثير من معلوماته وأسئلته تلقينًا من زميله الجالس في غرفة التحكم يميل إلى تعويض ضعفه وضحالة مادته عن طريق زيادة عنصر الشراسة.

والجمهور هو المذنب الأكبر. يقولون للمذيع عندما يرونه في بهو الفندق أو في المحل التجاري: «كنت بطلًا، لقد قضيت عليه، وأخرسته وأفحمته. ذلك الوزير فعلًا كان مثل اللعبة بيدك. برافو عليك».

وسلامة عقلك أيها المذيع وأنت تسمع هذا الإطراء. تصير تعتقد أن إخراس الضيف هو واجبك الأول.

كنت أظن مهمة المذيع إنطاق الضيف لا إخراسه.

الجمهور ليس خبيثًا، لكنه يكره المسؤولين. والجمهور أقرب إلى الجهل منه إلى التنور. والجمهور يكذب على المذيع عندما يراه: يجامله.

أحد المذيعين قال لي: «ألا ترى لاري كنغ كيف يتحدى ضيوفه، وكيف يفعل ويفعل». وأنا أقول له الآن: «نعم، لاري كينغ يفعل ذلك، وبغاية اللطف. ولاري كينغ يخدم جمهوره. ولاري كينغ مذيع كبير. وأنت يا عزيزي لست مثله. أنت أقل بكثير. أنت تدخل مع ضيفك مباراة لكي تلقيه أرضًا، ولاري كينغ ينصت إلى ضيفه بأذنيه، وبعينيه، ويعطيه الفرصة الوافية، ويساعده في عرض وجهة نظره. ولا يرضى لنفسه أن يفوز بالضربة القاضية عن طريق ترهيب الضيف. رُحْ رُحْ تفرَّج على لاري كينغ جيدًا. أنت لست به».

أوقح مذيع رأيته جيريمي باكسمان في برنامج نيوز نايت. سأل نائبٌ بريطانيٌّ زميلَه: «هل تبكسمت؟» (هاف يو بين باكسماند). يعني: «هل

مـررت بمحنـة باكسـمان؟» اشـتقوا لتلك المحنـة فعلًا من اسـم الرجل. ولست من معجبي باكسمان، على أنني رأيتُه في مبنى التلفزيون في وايت سيتي بلنـدن (وكنـت هناك في شـأن عـارض) واقفًـا يشـاهد التقارير مع مُنتِجـه ويسـمع ملاحظـات المُنتِـج بـرأس مطأطـئ. كان الوقـت عصرًا، وبرنامجـه فـي الحاديـة عشـرة ليلًا. فعرفـت أن الرجـل يحضِّـر برنامجه تحضيـرًا سـريعًا. وتلـك فضيلـة. وتذكـرت زميلًا لـي مذيعًـا كان يدخل المحطـة قبل البرنامج بنصف سـاعة، ويفتح ديوانًا مع الناس ويمازحهم، ويرجئ أي تحضير للمادة حتى قبل الهواء بدقائق إدلالًا وإشعارًا للقاصي والدانـي بأنـه لا يحتاج إلـى أي تحضير. كان -رحمه الله- يسـتعيض عن التحضير بقوة صوته وبذرابة لسانه.

المذيـع العربـي فـي الفضائيـات -وخصوصًـا المشـهورة- لا يجد له مُعينًـا ولا موجِّهًا. هذا محرر جيد حاول مرة أن يوجِّه مذيعًا بغاية اللباقة، فحدجه المذيع بنظرة قاسية جافة مسـتقيمة، نظرة في وسـط بؤبؤ العين، وقال له: «خذها من قصيرها، أمس تعشيت مع الباشا فلان، وفي الأسبوع الماضـي دعانـي إلـى مزرعته الوزيـر فلان. ولـم أسـمع منهما هـذا الذي أسـمعه منـك». فمـا كان من المحـرر إلا أن خفض عينيه، وقـال في قلبه: «لنربـط الحمـار فـي المـكان الذي يريده صاحبـه». حقًّا فـي موقف كهذا رضي المذيع أن يكون حمارًا يُربط. في المرة المقبلة دخل المذيع الحمار نفسه على مُحرِّره، وكان أول ما قاله المذيع: «اطلب لي شايًا لو سمحت». (هذا يحدث في التلفزيونات الرسمية).

ومضـى هـذا المذيـع في عملـه ينافق بعـض الضيـوف، ويسـلق بعض الضيوف، ويحاول جاهدًا أن يقنع الناس أنه مناضل. يناضل عندما يُسمح

له، ويسكت عندما يشعر أن الجو لا يسمح بالنضال. ويرى أن مهمته أن يصنع الرأي العام، لا أن يساعد الناس في الوصول إلى قناعات عن طريق ما يقدمه لهم من معلومات. وظل متألقًا.

في الغرب يتعرض المذيعون لما يتعرض له مذيعونا من مرض نفسي اسمه الشهرة الزائفة. مساكين كل مذيعي الكرة الأرضية. إنهم يعيشون حالة خوف دائمة. فالمجتمع يُقنعهم أنهم عظام لمجرد أنهم يظهرون على الشاشة. فماذا لو انتهى ظهورهم؟ يخافون من التقدم في السن، يخافون من التجاعيد، رجالًا ونساء. يخافون من المذيع الجديد المنافس، ويسعون لإفشاله. المذيع في الغرب يعاني من هذا المرض لكن ليس بنفس الحدَّة. والسبب وعيه ووعي الجمهور بحدود هذه الشهرة، وبزيفها. أقول: إن الشهرة زائفة، ولكنني لا أقول: إن مهارات المذيع الحقيقية في الفهم وفي اللباقة زائفة، ولا مواهبه الربانية في الصوت والشكل زائفة.

التلفزيون الذي يفشل في التحكم بمذيعيه تحريريًّا تتكون فيه مراكز نرجسية. وفيها فوائد. فالمذيع الحريص على شهرته يسعى في استضافة المشاهير وكبار رجال ونساء السياسة والفن والأدب، وهذا جيد للمحطة. وهذا سيئ أيضًا؛ إذ يأخذ المذيعُ الأمر مأخذًا شخصيًّا، ويبني علاقات شخصية مع المشاهير، وهذا ضارٌّ بمصداقيته. وتدخل هذه العلاقة، بل تتسلل، إلى كل سؤال يسأله. ويُصبح المذيع مُدِلًّا على المشاهير من ضيوفه، وتنشأ علاقة هي غير علاقة المذيع بالضيف. ويشعر المتفرج مرة بعد مرة بأنه يرى مسرحية لا مقابلة. وقيام المذيع ببناء هذه العلاقة مع

ضيوفه يسحب من المحطة بُعدَها المؤسسي والتحريري، ويحولها إلى مجرد شقة مفروشة يتم تأجيرها بالساعة، وبالليلة.

إن مثل هذه المضاجعات بين المذيع والضيف مألوفة في الغرب والشرق. ولا نجلد أنفسنا، ولا نعفي الآخر من اللوم. ونراها في حوض البحر الأبيض المتوسط فاشيةً. فقط ألقِ نظرة على إعلام بيرلسكوني، وانظر في الإعلام التلفزيوني الخاص في لبنان ومصر.

المشكلة يعززها الجمهور. الجمهور يرى المذيع بطله، ويرى الضيف شرير الشاشة محمود المليجي. الجمهور الجاهل يصنع ذلك كثيرًا، والجمهور الواعي يصنعه بدرجة أقل. نحن بشر. نرى المذيع كل يوم، ويصبح كأنه فرد من أفراد الأسرة.

رأيت مايكل بيرك كثيرًا في نشرته الإخبارية. ذات مساء بدأ النشرة بدون كلمته المعهودة «مساء الخير». فرفعت صوت التلفزيون. قال: «مقتل كذا وكذا في قرية لوكربي باسكتلنده». كان محتقنًا يظهر في وجهه التأثر. ربما تمثيلًا. لكنه بموقفه ذاك أصر على أن يكون من أفراد الأسرة. بنى لنفسه هذا الموقع. لكنني على العموم أرى القاعدة الذهبية في المقابلات: المشاهد يريد أن يسمع الضيف، وإذا طال سؤال المذيع، صرخ به المشاهد: «اسكت، أريد أن أسمع الضيف»، وإذا لعب المذيع دور السائل والمجيب في الوقت نفسه صرخ به المشاهد: «يا أخي، أرجوك، اكتفِ بالسؤال واجعله قصيرًا». حتى لو كان المذيع من أفراد الأسرة، وحتى لو كان محبوبًا، فنحن لا نريده أن يتجاوز دوره.

لا يجوز أن تتحول المحطة التلفزيونية إلى عمارة شقق مفروشة. ولكي تحافظ على نفسها بنيةً متماسكةً لا بد من توظيف محرِّرين كبار ومتمرسين، ومذيعين ذوي خلق وتربية حسنة ومعرفة جيدة وشخصية قوية. قد يكون المذيع شرسًا سيئ الخلق لرداءة بيئته وضعف تربيته، فإذا حسب ذلك في حسناته فثمة مشكلة هنا. لست أشكُّ في أن انطلاق المذيع من بيئة فقيرة أمر يساعده في أن يكون صلبًا وأن يخوض معمعان الحياة بقوة ويصمم على النجاح. ولكنني أتحفظ كثيرًا على استناد المذيع إلى «عصاميته» ليمارس سوء الخلق.

الشعب يحب القادة سيئي الخلق. حسبي الله على الشعب.

الصيغة الأفضل عندي صيغة هيتشكوك: يتعب كثيرًا في النص. ويتعب كثيرًا في رسم المشاهد. ويضع للممثلين حدودهم، ويقبل منهم الاجتهاد بحدود ضيقة. ثم ينفذ الفيلم باحترافية عالية، وهو سيد الفيلم. ولا بأس في أن يصبح الممثل مشهورًا، ولكن في الاستديو هو مطيع طاعة عمياء، محترف كل الاحتراف. كان هيتشكوك يسمِّي الممثلين «الخراف».

إذا لم يكن عندك مُحرِّرون في قوة هيتشكوك فسيصبح عندك مذيعون شبيهون بالممثل الذي يفتح شركة إنتاج، ويصبح هو المنتج والمخرج والممثل، ويرمي المشاهدين بتفاهاته. المحطة التي توظِّف إمَّعات ليقوموا بدور المحررين ينتهي بها الأمر إلى أن يصبح المحرر صبي الشاي، والمذيع تحية كاريوكا.

عن التعليم

التعليم الناجح في ثلاث حكايات

عمال الحفر جاهزون، والكرة الأرضية أصبحت صلبة ليس في جوفها حمم بل صخور جامدة. هيًّا احفروا. بعد عمل شاق حفرنا نفقًا في الكرة الأرضية يمرُّ بمركزها. ثقب طوله ١٣ ألف كيلومتر. وفجأة سقط أحد العمال في النفق. فماذا سيحدث؟

سيظل هابطًا بفعل الجاذبية ليصل إلى مركز الجاذبية الأرضية وهو مركز الأرض، ثم بفعل سرعته سيستمر في الهبوط حتى الطرف الآخر للنفق. ثم سيجذبه مركز الجاذبية فيعود.. وسيظل يتأرجح من فم النفق إلى نهايته، وفي كل مرة تقل المسافة بفعل احتكاكه بالهواء واصطدامه بجدران النفق.. وأخيرًا سيستقر العامل المسكين في مركز الأرض. فماذا لو لم يكن هناك هواء، ولا اصطدام بجدران النفق؟ عندئذ سيظل صاحبنا يروح ويجيء في النفق بلا نهاية.

صبرًا فما هذا بدرس في العلوم، بل كلام في التعليم. (والمثال مأخوذ من كتاب الفيزياء المسلية لياكوف بيريلمان). طبعا التلميذ في الصف السابع سيحفظ القصة. وسيتعلَّم القانون الأول لنيوتن (الساكن يبقى ساكنًا، والمتحرك يظل يتحرك بنفس السرعة ما لم تؤثر عليه قوة). وسيعرف عن الجاذبية الأرضية ومركزها. وسيعرف قُطر الأرض. فقط من هذه القصة. هناك ألف قصة أخرى تحتوي على مفاهيم علمية.

معظمنا يخرج من المدرسة وقد نسي كل شيء. الكتاب المدرسي مُصمَّم ليكون هراوة تقرع رأس التلميذ قرعًا فيحفظ المعلومات ويكتبها في الامتحان، ثم يفيق من أثر الضرب على رأسه وينسى كل شيء.

هي ذي قصة أخرى: جاءت المعلِّمة إلى الصفّ ومعها قارورتان: واحدة فارغة، وأخرى فيها قطعة جبن. قالت: لن أفتح القارورة الفارغة أبدًا، فهي ليست فارغة.. فيها غاز الكلور، وهو خانق. وانظرنَ إلى هذا الجبن في القارورة الثانية؟ إياكن أن تضعنَه في أفواهكن.. إنه سام، هذا ليس جبنًا، هذا صوديوم. فماذا لو تفاعل غاز الكلور السام مع الصوديوم السام؟ سينتج من التفاعل كلوريد الصوديوم.. وهو ملح الطعام. وأخرجت المعلمة من حقيبتها مملحة صغيرة ورشت منها على راحتها وتذوقت بلسانها. وقالت: مادتان سامتان اتحدتا وكونتا مادة غير سامة. اتحدتا ذَريًا، وليس عن طريق الخلط.

هل ستنسى التلميذات كلوريد الصوديوم بعد هذه المسرحية؟

نريد معلمًا يفهم أثر القصة، وكتابًا مدرسيًا جيدًا. مؤلف الكتاب المدرسي يجب أن يكون قد تزوَّد بعلم غزير، وأن يكون عاشقًا للعلم. (أين نجده! قولة المثل الإنجليزي: هؤلاء لا تُثمر بهم الأشجار). أينَه هذا المؤلف الخفيف الروح، المحب للأطفال، الذي يعرف يكتب، ويرسم، ويتسلسل في إيراد المعلومات، والذي يكون قارئًا، وعارفًا لغةً أجنبيةً، ومرتاحًا في حياته.

يستحيل العثور على هذا الشخص. فلتكن إذن لجنة. وليكن أفرادها متنوعين في مهاراتهم، ووجداناتهم. وليكن فيهم شخص اسمه الدينامو..

شخص يقود ولديه رؤية. هذه اللجنة ليست مستحيلة.. هي موجودة إذا كان البلد يتمتع بالحرية. وإذا كان لدى حكام البلد أولوية «ثانية» هي النهوض بجيل المستقبل. (بالطبع أولويتهم الأولى أن يستمروا في الحكم).

هل يستحيل على بلد عربي قامع للناس أن يشكِّل لجنة كهذه؟ نعم يستحيل. الحرية شرط. الحرية تعني أن المواطن يشمخ ويحس بأنه مهم.

قصة أخرى لكنها ليست الثالثة: في المدرسة الصناعية ثمة منظر جميل ... سيارة مفككة على أرض المشغل، والطلبة وأستاذهم يتعلمون فكَّ المحرك وتركيبه من جديد، ويتعلمون وظائف الفرامل ومشكلاتها، ويتخرجون بعد سنتين عمالًا فنيين في الميكانيكا. إن الدراسة الصناعية مطلوبة أيتها الشعوب التي تعشق الدراسة الأكاديمية.

لكننا نريد أكثر، نريد أن نبتكر محرك سيارة يعمل بكفاءة أعلى، وأن نبتكر خلايا ضوئية تصنع كذا وكذا. المدرسة الصناعية جيدة. وكلية الحاسوب جيدة. والطلبة يتخرجون قادرين على «الصيانة» وعلى «تشغيل» الأجهزة. لكن الابتكار شيء يحتاج إلى أكثر من ذلك. يحتاج إلى الخيال، وإلى العلم الغزير. مصانع الأدوية جيدة اقتصاديًّا، تأتي بالوصفة من ألمانيا وتخلط الكميات وتصنع منها أقراصًا. لكن البحث العلمي العميق يجعلها تستنبط أدوية جديدة. الأمر يحتاج إلى بحث كثير، وإلى خيال.

وهذا يفضي بنا إلى قصة ثالثة: قصة السيد تشارلز غوديير. ليس سيدًا في الواقع. لم يتعلم تشارلز في جامعة، ولم يكمل المدرسة. كان يساعد

أباه في عمله، وتزوج باكرًا وكان له ستة أطفال، وراح يجرب. وأفلس وسُجن، وفي سجنه واصل تجاربه. رأى المطاط دَبِقًا سريع الاهتراء. و«تخيل» صاحبنا غير المتعلم مطاطًا صلبًا لكنه ليّن، وليّن ولكنه ليس دَبِقًا لم يكتف بالخيال، فظل يجرب ويبحث. وخرج من السجن، واقترض المال من كل من يعرفه. جاع أولاده وهو يجرب. وأخيرًا نجح في أن يحول خياله إلى حقيقة. لو أن لإطارات السيارات وللشباشب ألسنة لنطقت بالشكر لهذا الرجل. مسكين تشارلز غوديير، مات حزينًا فقيرًا، وشركة غوديير التي أسسها وسماها باسمه تربح الآن المليارات من إطارات السيارات.

يتميز الإنسان عن الحيوان بأنه يرى غير المرئي. بأنه ... يتخيل.

في صدره ١٢ لغة

هذا كلام في المديح الصِّرف، في رجل لا أظنه مشهورًا. هذا الرجل في الثامنة والثمانين من العمر. شيخ جليل.. يشرف على الترجمات في مركز المصحف الشريف بالسعودية. يجب أن تراه يتكلم لتعرف حقيقة كأنها من بديهيات الرياضيات: العلم الغزير يرافقه تواضعٌ كبيرٌ.

قضى الدكتور عبد الرحيم في السعودية خمسين سنة يشرف على ترجمات القرآن، ويعلم الأجانب اللغة العربية ويكتب لهم الكتب جزءًا بعد جزء. عرفته قبل ثلاثين سنة في كتاب حقَّقه، وهو المُعرَّب لموهوب الجواليقي. ورأيته في الهوامش يكتب لك الأصل اليوناني بالحرف اليوناني، والأصل العبري بالحرف العبري، والأصل الآري بالحرف السنسكريتي، وبالسرياني يكتب، ويستعمل الفرنسية والإنجليزية والألمانية. فإن عرضت له كلمةٌ أصلُها فارسي أعادها إلى الفارسية العتيقة (الفهلوية). تحقيقه ذاك كان رسالة الدكتوراه، وكتبه بمصر.

عبد الرحيم فانيامبادي، هندي مولود في مقاطعة تاميل نادو. لغته الأم الأُردية. وتعلم غيرها إحدى عشرة لغة. المهم أنه يجيد هذه اللغات إجادة عالم متبحر. يتكلم ساعة بلا ورقة ولا يغلط في النحو غلطة. ويجيد اللهجة المصرية والسودانية والشامية والفلسطينية، وبالطبع السعودية. وتراه يقضي وقتًا على الإنترنت يعلم الناس اللغة العربية.

الدكتور الجليل عبد الرحيم، يكتب العربية ليس كأهلها، بل أحسنَ من أهلها.

عندما أراد دراسة العربية في مصر بعث من الهند رسالة إلى الرئيس المصري جمال عبد الناصر. وجاءه الجواب بالقبول، وبدأ من الأزهر رحلته مع العربية.

كتب فانيامبادي عبدُ الرحيم كتابًا عن أصول الكلمات الدخيلة في اللغة العربية، وههنا يحسُن الوقوف.

هذا الكتاب هو أحسن كتاب في بابه. تعرفون لماذا؟ لأن وراءه علمًا وعقلًا وحبًّا. العلم عرفتموه. والعقل أن الدكتور عبد الرحيم فانيامبادي يستطيع أن يكبح انحيازاته، فإن وصل إلى المعلومة قالها، وإن شكَّ ذكر شكَّه، ولا يغادر موضعًا رجع فيه إلى مصدر إلا ذكر المصدر، فإن كان سمع المعلومة من صديق ذكر اسمه. وأما الحب فلأن صاحبنا -فيما يظهر لي- ينشر كتبه صدقةً لوجه الله. هو كمن يتصدَّق بألف ريال وينسى في الليل أنه تصدَّق. وهو بعدُ رجلُ دينٍ كتب في الحديث والقرآن. له في مزايا الإسلام كتابٌ ألفه بالإنجليزية: **فخور بأنني مسلم**.

في آخر دقيقة من مقابلة تلفزيونية امتدت ساعةً سأله المذيع إن كان حصل على الجنسية السعودية. فقال: «لا. يبدو أن عندهم في السعودية آلافَ الأشخاص الذين يتقنون اثنتي عشرة لغة».

الهبرة المحظوظة

تكون الهبرة الضخمة من اللحم معلقة في دكان اللحّام بالشصّ وهي تنظر إلى ماكينة الفَرم وتَشتهي أن تدخلها. ويتناول اللحام هذه الهبرة ويضعها في فم الماكينة. عندما تصل الهبرة إلى فم الماكينة فالخروج من الطرف الآخر مضمون. ويمكنك أن تقول للهبرة: «مبروك»، حتى قبل أن تخرج. لا مجال للبقاء في الداخل، ولا بد للهبرة من «التخرج». الدخول إلى الماكينة مجرد احتمال، أما «التخرج» منها فهو محتَّم.

هل سمعتني أقول التخرج؟ لعلك تريد أن تتهمني بأنني أشبِّه الجامعات بماكينة فرم اللحم؟ والطلبة بالهبرات؟

الطالب يضع رجله في الجامعة، ويمشي أربع سنوات كما يمشي النائم، ثم يجد نفسه في النهاية واقفًا تحت طاقية مربعة تتدلى شراشيبها على أرنبة أنفه.

قصة أستاذ وطالب: عندما أكتب مقالًا قصيرًا يحلو لي أن أضع عناوين فرعية، فأما إذا كان المقال من عشرة آلاف كلمة، فهو كلام متدفق لا أضع فيها عناوين فرعية. والآن إلى قصة الأستاذ والطالب. الأستاذ كسلان والطالب خائب. الأستاذ يحضر حصة ويغيب حصة. والطالب يحضر حصة ويغيب حصة، وعندما يلتقيان فهذه مصادفة سعيدة كخسوف القمر. لكن الطالب يتخرج وينشر صورته على الفيسبوك.

كل بـلاد الدنيـا فيهـا جامعات تفرم وترمي في سـوق العمـل. لكن ما يحمي البلد هو وجود بعض الجامعات الحقيقية.

فـي بلدنا مدارس متميزة تأخذ من الطالب المال الكثير، وفيه مدارس حكومية بالمجان. فماذا عن الجامعات: الوزارة وحَّدت الأقساط بين كل الجامعات. وزارة التعليم العالي -والحديث عن فلسطين- تَشُدُّ الجامعةَ المتميزةَ إلى أسـفل لتصبح مثل الأخريات، ولا تَشُـدُّ الجامعةَ الرديئةَ إلى الأعلى. هذه الوزارة صمَّامٌ يسمح بالرداءة ويمنع التميُّز.

تأملات في التعليم والمدارس

النهر يسير في طريقه ويروي الحقول، ويُلقي فيها الطين، ويحمل القوراب من مكان إلى آخر. مجرد سيره في الأرض هو المنفعة الكبرى. النهر لا يهتم بمصبّه، فالماء الذي يصل إلى المصبّ هو الفائض الذي لم تحتج إليه الأرض؛ فليذهب إلى جحيم الملح.

ونتمنى أن تكون سنوات الدراسة الاثنتي عشرة في المدارس مثل النهر، نتمنى أن يستمتع الفتية والفتيات بالسنوات كلها، وأن يكون الامتحان النهائي مصممًا بشكل ينفع المجتمع عندما يصبُّ فيه الطلبة.

«اختبارات الوزارة» ضوابط مطلوبة وموجودة في كل البلدان. وعندما أصف هذه الامتحانات الرسمية فأنا بالضرورة سأصف الوضع التعليمي كله لأنه يُفضي إليها.

لمَّا كان نظر الطالب والمعلم مسدَّدًا خلال السنوات المدرسية -وخصوصًا الأخيرة- إلى الامتحان النهائي، فإن كل العملية التدريسية ستكون مشنوقة بحبل امتحان الوزارة النهائي. منذ السنة المدرسية السادسة والسابعة وما بعدهما يبدأ المعلّم يقول للطلاب: هذا الدرس مهم لأنه سيكون واردًا بعد عدة سنوات في منهاج السنة الختامية؛ وما إن يصل الطلبة إلى الصف الحادي عشر حتى يصبح كل شيء في المنهاج مهملًا إلا ما كان متعلقًا بمنهاج الصف الثاني عشر المختوم بامتحان الوزارة.

يجدر بالوزارة تخفيفُ الضغط على الحبل الوحيد بعدة وسائل: بإلغاء علامة الـ ١٠٠٪، وإلغاء مفهوم الساقط والناجح؛ إذ ما الذي يستفيده المجتمع من تصنيف الطلبة إلى ناجحين وساقطين؟

أريد للطالب في السنة الختامية أن يختار ما يريد من المواد. وهذا مثالٌ على بعض المواد المطروحة: (عربي متقدم/ عربي فرعي/ إنجليزي متقدم/ إنجليزي فرعي/ فيزياء متقدم/ فيزياء فرعي ... إلخ). الطالب المتفوق يختار ثمانية مواد معظمها في المستوى المتقدم، ويحقق في معظمها درجات عالية. والطالب الضعيف قد يختار مادتين من المستوى المتقدم ومادتين من المستوى الفرعي فقط، ويحقق في معظمها درجات منخفضة. ومع ذلك لا ناجح ولا ساقط.

وكل طالب ستزغرد أمُّه وتقول لجاراتها: «ابني اجتاز الامتحان النهائي». ولكن الطالب الضعيف لن يستطيع الالتحاق بجامعة. هذا الطالب لا يرغب في الكتاب ولا في التحصيل العلمي ولا في العلوم الإنسانية. إنه مُغرم بالكمبيوتر. سيتجه إلى معهد ليأخذ دورة حاسوب. وسيعمل في دكان يبيع الحواسيب. ثم سيفتح محلًا، وفرعًا ثانيًا وثالثًا. ثمة مهارات لا تستطيع امتحانات الوزارة أن تقيسها، فهذا الطالب الضعيف أكاديميًّا ربما كان في السوق دينامو علاقات، وكان يتمتع بذاكرة ممتازة، ويحب عمله.

التحصيل المدرسي ليس كل شيء.

أدعو إلى تفكيك امتحان الوزارة إلى عناصر ومستويات عديدة. وإلى جعل الطلبة يسبحون في هذا البحر المعلوماتي بحرية. وإلى إحاطة

حكاية ناجح وساقط بضباب كثيف، كي تتمكن الأمهات من تلقِّي التهاني في كل الأحوال.

هناك طلبة كُثر لا يصلون إلى السنة الختامية. ومنهم توماس أديسون، وعبد الحميد شـومان الأب منشـئ «البنك العربي»، وجورج برنارد شـو، وعباس العقاد. ومن حق الطالب الذي يترك المدرسة بعد انقضاء مرحلة التعليـم الإلزامـي أن يجد مكانًـا لائقًا في المجتمع. كل إنسـان عنده ولع بموضوع معين. هناك سائقو سيارة مولعون بمهنتهم، وهناك عمال تنظيف يحبـون مهنتهـم، وهنـاك ليفنهـوك بائـع القمـاش الهولندي الـذي اخترع المجهـر، وكتب رسـائل مفصَّلـة عن الجراثيـم والخلايا جعلتـه من كبار العلماء، ولم يكن قضى على مقاعد الدراسـة سـوى سنوات قليلة. وليس لـه أي كتـاب، لكـن رسـائله للجمعيـة العلميـة الملكيـة البريطانية تحمل وصفًا بالغ الدقة لما شاهده في مجاهره التي صنعها.

النظام المدرسي ليس الدواء الشافي لكل علَّة. المجتمع نفسه مُطَالَبٌ بابتداع مساحات يطور فيها كل الناس مهاراتهم، ويلبون رغباتهم المعرفية والمهارية. لكننا هنا معنيُّون بالنظام المدرسي وحسب.

لماذا ينتحر بعض الطلبة بعد ظهور نتائج الثانوية العامة؟ لأن المجتمع غسـل أدمغتهم ووضع فيها فكرة واحدة: «النجاح المدرسـي مسألة حياة أو موت».

قد يكون عقد امتحان في ختام السـنة التاسـعة أمرًا جيدًا. فهذا سـيتيح للطلبة التعرف على مواضع الضعف والقوة في تحصيلهم وفي رغباتهم. هـذا الامتحـان يحـثُّ بعـض الطلبـة علـى التوجه إلـى مـدارس الصناعة

والزراعة ومعاهد الحاسوب. فمن الممل لطالب مُدبِر عن الأكاديميات أن نصدع رأسه لسنوات ثلاث مقبلة بأشعار أو بتجارب كيميائية ونظريات فيزيائية. فماذا لو أصر الطالب الضعيف على المضي في الخط الأكاديمي، لا بأس، قد يفلح لاحقًا.

من أهم الأسس في النظام المدرسي أن يكون متنوعًا، وأن يحتوي على منافذ عديدة؛ ذلك أن الناس مختلفون، ولكل امرئ طريقة في اكتساب المهارات والمعلومات. ونشوء مختلف أنواع المدارس شيء طيب. وعلى الوزارة ألا تتمسك باختبارها النهائي كطريق وحيد للدخول إلى التعليم الأكاديمي العالي. من الواجب ترك مساحة من الحرية للجامعات. والضابط الذي يضبطها هو أن الحكومة تستطيع الامتناع عن توظيف حَمَلَة شهادة جامعة من الجامعات إذا رأت أن هذه الجامعة منخفضة المستوى، وكذلك الشركات والمكاتب المختلفة، فبإمكان كل منها وضع ما تشاء من شروط على توظيف حملة شهادات جامعات معينة. هذه حرية مجتمعية لا يجوز الاعتداءُ عليها: حرية الشركات والمكاتب الهندسية والمستشفيات ومؤسسات البحث، وحتى المدارس ومؤسسات الدولة، في توظيف الناس بشروطها، وحريتها في رفض شهادات بعض الجامعات، أو في إجراء امتحانات التوظيف.

لقد بلغ سيل الشهادات المزيفة في بلدنا حدَّ المهزلة. هناك حَمَلَةُ شهادات دكتوراه منحطون أكاديميًا عن حملة البكالوريوس، وهناك فيضٌ من حَمَلَة شهادة الماجستير ممن اشتروا شهاداتهم شراءً. وهذا الوضع سيبقى معنا إلى أن يموت كلُّ هؤلاء الذين اشتروا شهاداتهم، أو الذين حصلوا عليها بحقٍّ ولكن من جامعات رديئة تجعلهم يحفظون ما لا فائدة

منـه. إذن، وفـي ظل هذا الوضع الـذي لن ينتهي غـدًا، فليكُن للجامعات حريةُ القبول وتحديد شروطه، وليكن للشركات وللوزارات حرية القبول وتحديد شـروطه. فأما نظام «القوى العاملة»، وهو ذلك النظام المشـهور في مصر الذي يُلزم الدولة إلزامًا بتوظيف كل من تقيئه الجامعات، فنظام يفضي إلى الكسـل ورداءة المسـتوى. هذا نظام ميري سيئ لا يبني مصنعًا ولا يُعَمِّـر مستشـفى. نظامـي الـذي أدعـو إليـه نظـام مفكك، فيـه فوضى خلَّاقة. ليتعلم من شـاء ما شاء وأينما شاء، وليبحث عن فرصته. وإذا قرر مديـر مستشـفى ما أن يوظِّف طبيبًا تخرج مـن جامعة رديئة، فقد تحمِل له نقابة الأطباء العصا.

شـهدَت المدارس الحكومية في فلسـطين منافسـةً من برنامج دراسي اسـمه «البكالوريـا الدوليـة» اتخذ منهاج الـوزارة وامتحان الـوزارة وراءه ظهريًـا. كان أفضـل مـن المنهـاج الحكومـي مـن عـدة أوجـه. وصادقت الـوزارة على شـهاداته. ولا يمر الطلبة المنتسـبون إلـى البكالوريا الدولية بامتحـان الـوزارة الختامي على الإطلاق. ونجحـوا أكاديميًّا وعمليًّا. هذا مثال حي على منظومة مدرسية ناجحة.

كل علـم مـن العلـوم مغلق في غيـاب الحافز علـى تعلُّمـه. الرغبة قد تكـون موجـودة فـي قلب الطالـب بدون حاجـة إلى حفزها، غيـر أنها في الغالـب دفينة، وبحاجة إلـى بعض الحفز. بحضور الرغبة يتعلم المرء أي شيء، وفي غيابها لا يتعلَّم شيئًا.

أسـئلة الامتحانات: السـؤال الفعَّال مثل الإنسـان الفعَّال. إنه السـؤال الـذي يعرفُ ما يريد. هل يريد السـؤال أن يختبـر الذاكرة؟ أم المهارة؟ أم

الفحص عن وجود منطق ذكي؟ أم ماذا؟ مهمٌّ في السؤال ألّا يضلل الطالب تضليلًا عمديًا. فمثل هذا السؤال قد يجيب عليه الطالبُ المتمكن والطالب غير المتمكن إجابةً صحيحةً: الأول بعد اكتشافه التضليل والثاني، بالصدفة. وأما الطالب المتوسط فيقع في الشَّرَك. لا يجوز أن تكون الأسئلة شِراكًا. وبالطبع في أسئلة «اختر الجواب الصحيح» لا بد من بعض الشراك البسيطة المنطقية الهادفة. لكن يجب تصميمها بحيث يكون المقصود منها اختبار دقة الطالب، ويجب ألا تكون هي الغالبة. أسئلة الامتحانات ليست أحاجي وألغازًا. وما أسوأ أن يضع الأسئلة شخص معقد مقيت منكد العيش، ذاتُ زوج أناني، أو ذو زوجة سيئة الخلق. لكن هذا لا مفر منه. سيضع الأسئلة أشخاص بهذه المواصفات، وإجراء عملية «تحكيم» للأسئلة يُصلح الخلل. وضع الأسئلة موضوع تخصصي. ومن الغبن ما نصنعه في بلدنا إذ ننفق قليلًا من الوقت، وقليلًا جدًا من الخبرة، على وضع الأسئلة، لكننا نشحذ كل حواسّنا في التصحيح الذي يقوم به جيش من المصححين والمدققين يكفلون أن يكون عادلًا ودقيقًا، وبشكل يدعو إلى الإعجاب في الواقع. هذا شبيه بأن تحرص على تحريك ما في القِدر جيدًا وبلا توقف، وقِدرك ملأى بالحصى.

أعرف عن مركز في مدينة كارديف في بريطانيا أنه يستقطب بعض المتخصصين من بقاع الدنيا لتعليمهم آليات وضع الأسئلة ومحاذيرها. اِجعل بعض الأسئلة اختبارًا للذاكرة، وبعضها اختبارًا للربط المنطقي بين الأشياء.

وليكن لدى واضع الأسئلة فهمٌ جيدٌ لمسألة الحفظ، والمقصود منها. هل نطالبه بحفظ الأبيات الخمسة المطلوب حفظها من قصيدة

أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) «انشر على لهب القصيد» بالترتيب؟ أم هل نساعده بذكر الكلمتين الأوليين من كل بيت؟ وبهذا نوفر له الترتيب من عندنا ونعطي ذاكرته بعض المساعدة؟ ولماذا نريده أن يستظهر تلك الأبيات الخمسة؟ بالطبع نريد من لسانه الفصيح أن يكون سلسًا عارفًا بأسلوب اللغة، ونريد منه أن يكوّن إحساسًا بإيقاع الشعر، ونريد منه أن يحفظ قطعة من مشاعر قومه ومن آلامهم. حسنٌ جدًا أن نطالبه بحفظ خمسة أبيات من هذه القصيدة. وفيها يأتي البيت: (قوموا انظروا الوطن الذبيح من الوريد إلى الوريد) قبل البيت: (إيهٍ شعوب العرب أنتم مبعث الأمل الوحيد). ولكن لا بأس بعكس الترتيب. فهذه القصيدة دفقاتٌ، وليست قصةً. ومثلها كثير من شعرنا العربي. فلماذا نُصِرُّ على الترتيب؟

ليكن للحفظ مكانٌ في المناهج، وليكن محدودًا، فالتكنولوجيا أعفتنا من كثير من الحفظ. لكن التربوي يعرف أن العقل البشري ما زال أعظم حاسوب، وهذا العقل بحاجة إلى كميات كبيرة من المعلومات يتم «تخزينها» فيه أي حفظها، كي يستدعيها فور الحاجة. لذلك سيظل حفظ كثير من المعلومات مطلوبًا. لن أقدم فتوى بشأن جدول الضرب هنا. وأترك الأمر للسادة التربويين. لكنني كنت أستمتع بمنظر الخضري الشاب وهو يدقُّ على آلته الحاسبة والعرق يكاد يتصبب من جبينه، ثم يقول لي: «سبعة وثمانون». ويجدني قد مددتُ له يدي بالمبلغ الصحيح قبل انتهائه من العملية الشاقة. والآن اخترعوا موازين تزن وتجمع في الوقت نفسه فلم أعد أستمتع.

وضع الأسئلة فنٌّ وعلم وارتياح نفسي، وفهم عميق للمطلوب حقًا من وراء السؤال، وتعمق حقيقي في المادة العلمية التي يجري الامتحان

عليها. والشخص القليل العلم يضع أسئلة صعبة وتافهة، والشخص العميق العلم بالمادة والناظر إلى الزبدة يضع أسئلة متوازنة ومنطقية، وسهلة وصعبة.

لماذا ندّرس أولادنا وبناتنا في المدارس أصلًا؟

كي نخلّد الوضع القائم، ونشحنهم بأخلاقياته، فلا يتغير علينا الحال عندما نكبر، ولا تعود الفجوة كبيرة بيننا وبين الجيل الجديد. نريدهم أن يتذوقوا الخط العربي الكلاسيكي كما تركه هاشم محمد وسيد إبراهيم، كي نحس أنهم مثلنا. هذا شيء نريده. ولكن، هل يريدونه؟ وهل ينفعهم؟

ونريد أن يحملوا القيم التي توارثناها عن آبائنا، كي يبقى مجتمعنا متماسكًا. ونريد أن يطيعوا القانون لكي لا تحدث جرائم كثيرة. ونريد أن يصبحوا مهندسين أكفاء. ونريد أن يغرُبوا عن وجوهنا بضع ساعات كل يوم كي نخلو إلى أعمالنا. ونريد أن يهجروا القيم القديمة التي توارثناها عن آبائنا (نعم هنا ثمَّ تناقض). نرى خط سير المجتمع ونريد لأطفالنا أن يكونوا ناجحين. وعلى هذا فمن يرسل ابنته إلى مدرسة أجنبية لا تُعَلِّمُ شيئًا باللغة العربية إلا «العربي والدين»، ومن يقول لولده: «اترك العود وتعلم العزف على الجيتار»؛ ثم يشتري له جيتارًا، إنما يضع ولده على طريق الثقافة التي يعتقد أنها ستساعده في مستقبله كوسيط للأجانب الذين يريدون امتصاص خيراتنا. ومعه حقٌّ، فمن الأفضل لولده أن يشتغل وسيطًا للأجنبي على أن يشتغل موظفًا حكوميًا أو معلّمًا للغة العربية.

صنعت اليابان شيئًا من هذا في سعيها إلى الانعتاق من ثقافة الساموراي المعيقة للتصنيع. اليابان تغرَّبت كثيرًا، ولكنها ظلت تنظر بأعين مفتوحة

إلى شخصيتها، ظلت تحترم الماضي بقدر يساعد في إنتاج أجيال جديدة منتمية إلى اليابان.

وقد لمست في مذكرات يوكيتشي فوكوزاوا، أحد كبار دعاة النهضة والتغريب، حرصًا قويًا على ثقافة اليابان، واعتدالًا مدهشًا افتقدته في كتابات عبد العزيز فهمي وطه حسين وحسين فوزي. لمست عند فوكوزاوا -الذي سبق دعاة الأوربة المصريين بنحو خمسين سنة- ميلًا قويًا لفهم الغرض من دعوته. فهو لا يريد أن تذوب اليابان في أمم أخرى وتخلع جلدها، بل أن تنهض.

النظام المدرسي ليس من يُقَرِّرُ للأمة مستقبلَها، بل هو الأداة التي تستعملها الأمة. فإذا كانت الأمة حائرةً: بعضها يريد مجتمعًا مماثلًا لمجتمع الخلفاء الراشدين، وبعضها يريد نسف الماضي ونسيان كل شيء لصالح تبنّي هوية جديدة، فسوف ينعكس ذلك في نُظمها المدرسية. وأنت ترى ذلك أمام عينيك. لنأخذ الرجوعيين الذين يطمحون إلى مجتمع نقي. ثم لنأخذ بعدهم العدميين الذين يظنون أن الطريقة المثلى هي -بحسب ما قالها أحدهم- جرف قطاع غزة بالكامل بالجرافات وإلقاؤه في البحر ثم بناؤه من جديد ليكون سنغافورة الشرق الأوسط.

الرجوعيون لديهم مشكلةُ الغفلة التاريخية، فهُم -وبسوء نية- يشطبون من التاريخ ما يحلو لهم، ولا يقرأون تاريخ الطبري بل نسخة مهذبة منه. هم يريدون التشبه بمجتمع نقي تمامًا، ويرسمون صورة هذا المجتمع بالريشة ويرفضون تصويره بالكاميرا، ويرفضون رؤيته كمجتمع، بل يرونه فردوسًا. ثم إنهم يعانون من ضعف الخيال.

يحرِّمون الآلات الموسيقية، ويسمحون بالأناشيد والطبول. وبعضهم يتنازل ويسمح بالآلات الموسيقية مع وضع شروط. ومن تنازلاتهم أنك ترى المُثري منهم يبعث بطفله إلى مدرسة أجنبية، ثم يرهقه في البيت بحفظ النصوص الدينية. لقد فشل هذا الاتجاهُ في خلق نُظم مدرسية ذات أثر. لهؤلاء القوم الرجوعيين مدارس، وهي تعلِّم الطلبة العلوم الحديثة وبانضباط مدهش، وتعلِّمهم من القديم كل ما هو مزور ومحسَّن، وغير نافع. وهذه المدارس تخرِّج طلبة مرعوبين من الأفكار، لا يبتعد الواحد منهم شبرًا على طريق التفكير إلا ويكرُّ راجعًا إلى حضن الأفكار الموروثة المعلَّبة جيدًا في صناديق التزييف. خرِّيجو هذه النظم التعليمية قد يصبحون مهندسين وأطباء جيدين، ولكنهم، إبداعيًّا، دون المستوى. يمكنهم أن يكونوا فعلة ماهرين في أطر مرسومة لهم، ولكنهم يعيشون والمخاوف تسيطر عليهم. وللهروب من أسر القيود الفكرية ترى عديدًا من خرِّيجي هذا النمط يستريحون إلى الكذب. لقد أصبحت عبارة «إن شاء الله» عنوانًا على التهرب من الالتزام، وترى خرِّيجي هذا النمط المدرسي والفكري يُكثرون من عبارات من قبيل «خلينا نشوف»، «بإذن الله»، «ما يصير إلا كل خير»، «ستكون راضيًا بحول الله». وهم يستعملون الحديث الشريف والآيات بقِحَّة عجيبة، ويوظفونها في خدمة التملص من الحسم، ولا يتورعون عن إزجاء عبارات غامضة غائمة حتى لا يتعهدوا بشيء، وحتى ينفذوا ما يوافق مصالحهم. مثل هذه الثقافة الرخوة سببها السعي إلى تحقيق نموذج غير موجود أصلًا في الواقع. نموذج مكذوب.

فالاتجاه الرجوعي في التربية والتعليم محكوم عليه بنصف نجاح، ينجح في تخريج المهندسين، ويفشل في إنتاج عقول صريحة. والإبداع يحتاج إلى حدة ذهن، وإلى صدق.

وأصحاب الاتجاه العدمي، الذين يريدون نسف الماضي ينجحون في تخريج شباب وفتيات نصف متعلمين، يتقنون بعضًا من اللغة الإنجليزية، ويتقنون فن السمسرة والعلاقات العامة. وهم ينسون أن ثقافة الإنسان عميقة جدًّا في نفسه. ولا يمكن تجريف غزة وإلقاؤها في البحر. ولا يمكن نزع اللغة العربية من نفوسنا. ولا سبيل إلى «التأورب». ها هو سعيد عقل وقد خنق المئة عام من عمره. هل استطاع أن يحملنا على الحرف اللاتيني، وهل استطاع أن يقتل الفصحى؟ جيد أن يخوض المرء مناظرة يعرض فيها مشكلات الحرف العربي ومحاسن الحرف اللاتيني، ومن واجبه أيضًا أن يرى إيجابيات الحرف العربي. فأما أن يكون صاحب دعوة جارفة ينقصها التمحيصُ، فسوف ينال الشهرة والتصفيق من المؤيدين واللعنات من المعارضين، ويجد مكانه في صفوف العدميين.

العدميون يخدمون مرحلة معينة، ومدارسهم ناجحة فقط في خدمة هذه المرحلة. ولكنها لا تزود الطلبة بأدوات لبناء انتماء متين، بل بالعكس تشجعهم على هدم انتماء موجود لمصلحة الجلوس بين كرسيين ... فخرِّيج المدارس «المتنجلزة» يظل عربيًّا في كثير من أفكاره وقيمه، ولكنه لا ينتمي إلى المصلحة العليا لبلده. ويكون فوق ذلك ذيلًا للأجنبي من حيث الثقافة والعمق العلمي. فهو قد نشأ يتلقى نصوصًا مدرسية مختصرة ويدرسها ويفهمها، ولكنه لم يُبحر في ثقافة لغته الأم قارئًا نهمًا. فإذا ما جلس في مجلس أدب لم يعرف نجيب محفوظ ولا الغزالي ولا

الكواكبي ولا الجاحظ ولا المتنبي ولا إبراهيم طوقان، تراه يهز رأسه بغباء. فإذا ما جالس مثقفين إنجليز أخذ يردد قولًا حفظه من مسرحية ماكبث، فينظر إليه أولئك المثقفون بإعجاب كما ينظرون إلى قرد يقلّد حركات الإنسان. ثم تراهم يخوضون في موضوعاتهم السياسية والأدبية والفكرية خوضًا عنيفًا وصاحبنا جالس كالأبله. وبالمقابل: قد رأيت مثقفًا عربي الثقافة يُحسن الإنجليزية بمستوى معقول يناقش عددًا من الأوروبيين، ورأيته يفيض عليهم من علمه فيضًا، وفيهم المؤرخ والسياسي. اللغة الأم هي فقط الطريق إلى صنع مثقف. والعدميون ليسوا طلاب ثقافة من الأساس: هم قوم يريدون لبلادهم أن تكون مستعمرات للبلاد الغنية.

كوريا الجنوبية موصوفة بمتانة نظامها التعليمي، وقد شربت العلوم الغربية شربًا، وجددت جلدها وتخففت من كثير من الذيول التراثية، ولكنها نهضت وأصبحت من الدول المتقدمة اعتمادًا على اللغة الكورية. والأتراك! نهضتهم الحاضرة قائمة على اللغة التركية. والصين تنهض اليوم بلغتها. واليابان التي ترجمت عشرات آلاف الكتب عن الهولندية ثم الإنجليزية، ولا تزال تترجم، ظلت محتفظة بلغتها.

نحن، الناطقين بالعربية، نريد من نظامنا التعليمي المدرسي أن يوفر أشخاصًا يبنون البلد، ويعيشون فيها. ونريد من الناطقين بغير العربية كالأكراد والأمازيغ أن يتعلموا بلغاتهم، وأن يتعلموا ما يكفي من العربية كي يتعاملوا مع النظام الرسمي وكي يوسّعوا آفاقهم الثقافية وكي يعيشوا في بلدهم أيضًا.

التناقض قوي بين التعليم المتميز والبقاء في البلد. فالذي يصبح متميزًا يهاجر إلى مرتبات كبيرة في الغرب والشرق. كيف يمكننا حبس طبيب ماهر في البلد؟ سيهرب. فهل نمتنع عن التعليم الجيد، ونرضى بالتوسط حتى لا يهرب أصحاب الكفاءات العالية؟ المسألة ذات أشواك. وقد ناقشتها مع نفسي طويلًا. ومن حسن حظ القارئ أنني سأستر هذا النقاش كيلا يطول الكلام. لكنني سأعطيك النتيجة: لنصنع الكفاءات الممتازة ولنزودها بالانتماء للوطن، ثم لتذهب أينما شاءت، وغالبًا ستعود.

الدوام المدرسي: ثمة عبارة أرددها كثيرًا: «فلان قَلِقٌ كأنه هاربٌ من المدرسة». فقد تربيتُ في مدارس الحكومة ذات النظام الموروث عن الانتداب البريطاني. وكان الضبط كبيرًا. كان المهم الدوام، المهم ألا تنفلت. وأفضل ما صنعه النظام الانتدابي أنه لم يتشدد في تعليم الطلبة -من جيل والدي- اللغة الإنجليزية. فهو يريد المتفوقين منهم لتنفيذ سياساته ولضبط البلد، ولا يريد لهم أن يتشبَّعوا بالثقافة الإنجليزية. ومن شروره التعليمية أنه حاول تعليمنا الإنجليزية بنفس الطريقة التي يعلمونها بها في بريطانيا لذلك العهد، وهي طريقةٌ سقيمةٌ تقوم على حفظ القواعد واستظهار الأشعار. ولئن كانت هذه الطريقة سقيمة وسيئة لبلاد الإنجليز -ولهذا تخلَّوا عنها تمامًا الآن- فقد كانت أسوأ بالنسبة لنا. والأسوأ أننا تمسكنا بها إلى يوم الناس هذا.

لقد تشدَّد النظام التعليمي الانتدابي -والنظامُ الذي نشأتُ فيه كان النظام التعليمي الأردني المستند إلى النظام الانتدابي- في التركيز على

الدوام. وصادف هذا هوى في نفوس كثيرين لأنه يضبط أبناءهم ويقيهم التجوال في الأزقة.

لا شك في أن هذا مفيد. من الفوائد غير المنكورة لكل مدرسة أنها تُؤوي الصِّبية، وتجعلهم يختلطون بأقرانهم حينًا وبالكبار حينًا في لعبة مسرحها غرفة الدرس وساحة المدرسة. ولكن لماذا جعلوا فسحة الساعة العاشرة نصف ساعة فقط؟ طبعًا لكي يحشروا درسًا جديدًا في الرياضيات ودرسًا آخر في اللغة الإنجليزية وثالثًا في الدين. فالسادة في وزارة التربية لمسوا أن الطلبة قليلو التحصيل في امتحان التوجيهي (امتحان ختام الدراسة المدرسية/ امتحان تمزيق الكتب إلى الأبد) في هذه المواد، فلم يخطر ببالهم أن المشكلة إنما هي في طريقة التعليم وفي موادّ التعليم وفي طريقة الامتحان، ولم يخطر ببالهم أن يُلغوا بعض المقررات الرديئة.

ثم يأتينا معلم الكيمياء المتحمس للعلم، ويستدعينا إلى غرفة الدرس في السابعة والربع، قبل بدء الدوام الصباحي، من أجل حصة إضافية كل أسبوع لتقويتنا. يكتب المعادلة على اللوح، ويجب أن يحفظ الطالب، ليس فقط رمز برمنغنات البوتاسيوم، بل يجب أن يحفظ لون محلولها في الماء: قرمزي؛ ولون البلورات الناشئة عن عملية التبخير: قرمزية سوداء. وإذا كتبت في امتحان الوزارة قرمزية فقط ونسيت سوداء لن تحتسب لك العلامة. «فاهمين! قرمزية سوداء، والبرمنغنات.. قرمزي فقط». لم يكن في زمننا إنترنت لكي نفحص طبيعة اللون القرمزي، ولم ندخل المختبر لنراه. فامتحان الوزارة لا يعبأ بالتجارب المخبرية، احفظ فقط. لن أُحدِّثك عن الكيمياء العضوية حفظًا لبقائك معي، فاحفظ لي هذا الجميل.

يوم السبت: هو يوم الرحلات والنشاطات. رحلات إلى قرية قريبة، وإلى مدينة بعيدة. وإلى الجبال لجني فوائد في النباتات وفي الجغرافيا. كثيرون لا يعرفون شكل نبتة السمسم، ولا كيف يتم جني محصولها، وكثيرون لم يشهدوا قطف الزيتون ولا عصره. وكثيرون لم يدخلوا مصنعًا للأدوية ... إلخ. ورحلة إلى مرصد الأحوال الجوية. ونشاطات في المدرسة: تحرير جريدة المدرسة، والرسم، والرياضة. بعضهم عضو في نادي علم الأحياء، وبعضهم عضو في نادي «الفصحى»، وبعضهم يتدرب على الصولفيج، أي الغناء المنضبط أو يتمرن على العزف.

هذا ليس حلمًا. قد حضرت ابنتاي المدرسة في لندن أربع سنين وخمس سنين بخلاف سنوات الحضانة. كانتا تستيقظان صباحًا بنشاط وتذهبان إلى المدرسة بفرح، وتعودان منها ممتلئتين حيوية وقصصًا جميلة عن التفاعل مع الأقران ومع المعلمين والمعلمات. ثم أكملتا في مدارس فلسطين، وكان الكابوس.

وبما أن ضمير التذكير غالب على كلامي يلزمني التذكير بأنني أعني الفتية والفتيات جميعًا. وأنني أؤيد بلا مواربة التعليم المختلط في كل المراحل. كنت أعلّم فتيات وفتية في تخصص الإعلام بالجامعة. سمعت طالبًا قادمًا من مجتمع متزمت يقول في غرفة الدرس: «إن الإناث أقل ذكاء وقدرة ... إلخ». ووكلت به زميلاته اللائي تصدين له بروح فكهة، وبطريقة فيها عبث وأخوية. فالطالبات أدهى من أن ينطحن الصخرة برؤوسهن، وأقدر على خوض معركة طويلة الأمد. وهذا الطالب -وهو إن قرأني سيعرف نفسه فورًا- تخرج بشهادة دكتوراه من جامعة أوروبية. وقد ذكّرني بقولته القديمة في مكالمة هاتفية وضحكنا معًا.

لا أرى في الاختلاط في المدارس أي سلبية. الأهل يغضُّون الطرف عن الاختلاط في المدارس الأجنبية، فكل شيء يأتي من الأجانب حلو. وعندما يتعلق الأمر بمدارس الحكومة يتذكر القوم أن مجتمعنا العظيم يرفض الاختلاط. وبالنسبة إليَّ فقد قضيتُ سنوات المدرسة الاثنتي عشرة في مدارس البنين. والآن أحمد ربي أن تعلمت في جامعة مختلطة، فقد ساعدني ذلك على رؤية المرأة بشرًا سويًّا.

عندنا اليوم في مدينة رام الله الفلسطينية مدارس أجنبية مختلطة، فهل نسمع عن أي مشكلات؟ بل بالعكس نرى طلبتها جميعًا يتمتعون بصحة نفسية وعقلية أفضل.

وفي بلدنا هناك جامعات يمتنع فيها الاختلاط. ذلك ممجوج حقًّا. ولن أنفق بعض الجهد الدبلوماسي في مجاملة المتزمتين.

فهل أطالب -وما أكثر مطالباتي- بأن نلغي حصص الفقه في المدارس؟ أود ذلك. لأن الدين فيما أرى أمر روحاني وجداني لا مسألة معلومات. والفقه القديم (والأحكام المعقدة لزكاة الزروع والثمار والصيد) بحاجة إلى مراجعة صادقة ستمضي مئة سنة قبل أن نجد من يقوم بها. والقرآن جدير بأن يدرَّس في المدارس. ومن الحصيف أن يكون ضمن الدروس الاجتماعية تعريف بعدد من الأديان.

بكل وضوح: لا أرى أي فائدة في الكتب المقررة ضمن منهاج الدين في مدارسنا. ومن المستحسن جدًّا أن يتم في حصص التربية المجتمعية التعرض للأخلاق الحسنة وللقيم المرغوب في تعزيزها سواء أكانت تجد لها ركيزة قوية في الدين أم لم تكن. وأما أن يكون مُقرَّر الدين مكونًا

مـن عدة كتب لكل سـنة دراسـية فهذا ما ينفِّر الناس مـن الدين. وقد رأت حكوماتنـا العلمانيـة الفاسـدة أن خيـر وسـيلة لقطـع حجـج الإسـلاميين تكثيـف مقـررات الدين فـي المدارس، فرضـي الإسـلاميون. وراح كبار موظفـي الحكومـة وكبـار الأثريـاء الإسـلاميين على حدٍّ سـواء يرسـلون أولادهم إلى مدارس أجنبية، وتركوا الدين للفقراء.

مدارسـنا تقمـع كل انحـراف: تقمـع الجريمة وتقمـع العبقرية. وليس صعبًـا أن تحتفـظ المـدارس بوظيفـة قمـع الجريمـة، لكنها سـتظل تقمع الإبداع ما لم نبذل جهدًا كبيرًا.

إبريل/ نيسان ٢٠١٢

تعيش الكرتونة

رغبتُ صبيًا في تعلُّم الموسيقى. تخيلتُ، مغرورًا، أن كل المطلوب هو أن يركِّز المرءُ تفكيره في هذه الرغبة، ثم ينام ليلته، ثم يصحو في الصباح وقد أتقن الموسيقى. تخيلتُ أن الأمر لا يأخذ من الجهد إلا سويعات قليلة، ثم تتكفل الرغبة بالباقي، ويهبط الوحي عليَّ.

وعلَّمتني الدنيا أن في تفكيري المراهق ذاك قدرًا من الصحة غير قليل.

لا، لم أتعلَّم الموسيقى بطريقة الوحي، ولا أنا أكملت السير في ذلك الدرب. لكنني تعلمتُ مهارات أخرى أعاشتني، وكفتني منَّة الشهادة العليا.

بداية التعلم نحتٌ في الصخر؛ يفرح المرء بالقليل الذي تعلمه، ويظن أنه أتقن العلم كله. ثم يتعلم أكثر فيعرف مقدار جهله بتلك المهارة. ثم أكثر، فيدرك أنه جويهل صغير. وما زال يتعلم ويزداد إدراكًا لجهله. فالتعلم خير طريقة لتعرف مقدار جهلك.

أصحاب الشهادات لا يفعلون ذلك. فالشهادة هي خاتمة العلم. «يَجيب» أحدهم الدكتوراه، ويقعد -لا قعد- في إحدى الجامعات، وينتظر أن يحمله الحزام الناقل من مرحلة إلى مرحلة حتى يخرج من شرج الماكينة بروفسورًا كاملًا. ونكتشف في حفل تأبينه أنه كتب عشرين كتابًا، ثم نكتشف بعد سنتين أن كتبه تلك كانت تلاخيص رديئة.

المحرّك الحقيقي للتعلم هو الرغبة. هي ذلك الشبق المعرفي الذي لا يخبو. وبالرغبة يرتقي المرء في علمه. والعلم لا ينتهي. تلك لذّته، ومشكلتنا معه.

الرغبة هي ذلك الوحي.

كان أبي خيّاطًا ماهرًا، أمسك بالمقصّ صغيرًا وتجرأ على قطعة جوخ، ثم ظل يتعلم. قصَّ عليَّ أنه رأى على رجل بذلة مَخِيطةً خياطة مبتكرة، وعرف منه أنه خاطها عند خياط معروف في يافا. ولم يستطع أبي أن يفكّ سر تلك التفصيلة. ثم اتفق له أن كان في يافا لبعض شأنه فذهب إلى مشغل ذلك الخياط، وأخذ يتسكع هنيهة على الرصيف، والخياط يفصّل. ثم إن الخياط انتبه، فخرج من دكانه وقال لأبي: «تعال! أنت خياط». فاعترف أبي بأنه خياط. وقال له المعلم: «عرفتُ مرادك». وفي ثوان معدودات علّمه تلك القَصَّة المبتكرة.

وحتى لا تسارع جريدة **الحال**، التي أكتب لها هذا المقال، باحتساب إعلان تجاري عليَّ أصرح بأن أبي انتقل إلى رحمة الله، وأنه لم يعلّم أيًا من أبنائه الصنعة. كان دائمًا يقول لنا: «إن هذه الصنعة ماتت». وقد صدق. وكان يقول لنا: «إن أهم شيء في الدنيا الشهادة الجامعية». وفي هذه أيضًا صدق.

سيحتاج مجتمعنا إلى وقت ليأخذ بكلمة الإمام عليٍّ: «قيمةُ كل امرئ ما يُحسنه». وإلى أن نصل إلى هناك: تعيش الكرتونة.

٨×٩= ؟

يقول أحدهم: بارك الله في غوغل، فلماذا نحفظ تاريخ قيام الثورة الفرنسية، ولماذا نحفظ:

إذا أنتَ أكْرَمتَ الكَريمَ مَلَكْتَهُ ... وَإنْ أنْتَ أكْرَمتَ اللّئيمَ تَمَرّدَا

وعلى هذا، ففي المستقبل سيقف الإمام في محرابه ووراءه المصلُّون وأمامه «اللاب توب»، فينقر عليه نقرة ويقرأ الفاتحة، ثم ينقر أخرى ويقول: «سمع الله لمن حمده».

ازدراء الحفظ موضة العصر.

الحفظ جيد، بل جيد جدًّا. ومخ الإنسان له سَعَةٌ مثل «رام» الحاسوب. وكما أن الحاسوب لا يشتغل بدون «رام»، فكذلك الإنسان، فهو بدون الذاكرة حمار.

نحتاج إلى حفظ معلومات كثيرة لنتمكن من تشغيل عقولنا. ونحتاج إلى حفظ القرآن والشعر ومآثر أسلافنا كي نشغل قلوبنا. ونحتاج إلى حفظ جدول الضرب.

مؤلفو كتب المدارس أخطأوا بتكليفهم التلاميذ بحفظ الكثير النافل، وهم الآن يخطئون لأن موضة احتقار الحفظ أفقدتهم توازنَهم.

حتى التلقين جيد. وهل يتعلم الطفل الحروف الهجائية إلا تلقينًا! اترك الطفل «يفكر» في الجيم والدال تفكيرًا وستجد لكل طفل أبجدية خاصة يكاتب بها نفسه في مستشفى المجانين.

يحلـو للكثيريـن أن يتجملـوا بالقـول: «إنهـم لا يحفظـون شـيئًا، وإن ذاكرتهم رديئة جدًّا». هذا يصلح للاعتذار عن نسـيان اسـم صديق، ولكنه ليس مدعاة فخر.

لا بد لنا من حفظ معلومات كثيرة لتكونَ رؤوس موضوعات نستعملها لإثـارة معلومـات أخرى. يجـب أن نحفظ كثيـرًا من مفـردات اللغة لنقرأ ونفهـم بعمـق، وكثيرًا من التواريخ لتشـكيل هيكل زمانـي ذهني للوقائع. ويجب أن نحفظ جدول الضرب، وفي سنٍّ مبكرة. لا تفعل كما فعل ذلك الرجل الذي وقف في طفولته عند ثمانية في تسعة وتركها وذهب يلعب، ثم ظل طول عمره لا يعرف كم ثمانية في تسعة. إنه يشعر بالندم حتى وهو يختم مقاله سعيدًا بالتخلص منه.

سأفتح جامعة.. قريبًا

خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، وفي اليوم السابع وقبل أن يستوي على العرش خلق نظام الساعات المعتمدة.

هـذا النظام الذي تتهافت عليه جامعاتُنا تهافت الذباب على جيفة لا يوازيه في الدقة إلا نظام المخبز الآلي الذي يقذف أقراصًا تشبه الخبز وليست به.

ورغم الرداءة الأساسية لنظام الساعات المعتمدة، فإنه قد يصلح بعض الصلاح في بعض الجامعات التي توظِّف أساتذة عباقرة؛ ذلك أنهم يتجاهلون النظام ويشتغلون بحسب نظامهم هم.

وجامعتي التي سأفتحها تتبع نظام السنتين والثلاث سنوات. يدخل الطالب في السنة الأولى وينتقي لنفسه ما شاء من دروس يحضرها. ينهمر على أحد المعلِّمين مئة طالب فيأخذ بإلقاء دروسه في مدرج كبير، ويحضر دروس معلِّم آخر عشرون طالبًا فيكتفي بغرفة صغيرة. وقد يَمَلُّ الطالب درس أستاذ معين فيهجره، ويواظب على دروس غيره. فإذا أنهى المعلِّم مادته في شهرين أو أربعة أو في ستة أشهر منح الطالب شهادة امتياز، أو شهادة إتقان، أو شهادة إجادة، أو شهادة توسط، أو منع الشهادة عمن لم يحقق التوسط.

على مدى سنتين يتنقل الطالب كيفما شاء ويجمع الشهادات من الأساتذة في أي حقول العلم شاء. ثم في ختام السنتين يُقَدِّم شهاداته التي

جمعها إلى اللجنة. فتمنحه قبولًا لإكمال دراسته في حقل معين، أو تمنحه شهادة دبلوم وتصرفه إن كان من أهل التوسط، أو تصرفه بلا أي شهادة إن لم يكن حصل على شيء ذي قيمة. في السنتين الأوليين يخوض الطالب نشاطات جامعية كثيرة من انتخابات وندوات وجوقات موسيقية، ويتعرَّف إلى زوجة أو زوج المستقبل، أو لا يتعرف.

وتكون نسبة من يُعطَون شهادة القبول لإكمال الدراسة نحو نصف الطلبة، والبقية يحملون الدبلوم فقط، أو يحملون متاعهم وينصرفون يدًا من وراء ويدًا من قُدَّام. لكن الجميع يكتسب التجربة الجامعية.

فأما النصف المحظوظ فيستكمل دروسه بطريقة مشابهة مع التركيز على فرع من فروع العلم. وفي نهاية السنة الخامسة يكون قد تساقط عدد من الطلبة مكتفين بالدبلوم، وبقي عدد؛ وتنعقد اللجنة وتنظر في الشهادات التي حصل عليها الطالب وتمنحه إجازة بممارسة مهنة المحاماة، أو طبِّ الأسنان، أو تعليم اللغة الإنجليزية، أو الكيمياء. وترفق مع الإجازة شهاداته ومستوى تحصيله. ومن قصُرت شهاداته عن بلوغ الإجازة فقد يمنح درجة التخرج الجامعي فقط دون الإجازة. وقد يُطلب إليه أن يستكمل التحصيل سنة أخرى أو سنتين قبل التخرج. وقدرات الناس متفاوتة.

وعندنا لا نعطي درجة الأستاذية بالدراسة بل بالعمل؛ إذ يتم توظيف الطالب المتميز ليكون مساعد أستاذ، ويبدأ بالبحث والتدريس معًا، ويقدِّم بحوثه إلى لجنة عليا بعد سنة أو سنتين أو عشر سنين، فيحصل على الأستاذية أو لا يحصل.

جامعاتنا في فلسطين مستمرة في قذف أقراص الخبز العويص. هل رأيت في حياتك رغيفًا يدخل الفرن الآلي ولا يخرج منه ليفرض نفسه على مصارينك؟ فكذلك طلبتنا الأعزاء: كل من يدخل لا بد أن يخرج لابسًا برنيطة مضحكة ليفرض نفسه على المجتمع بوصفه متعلّمًا.

سأفتح مدرسة.. قريبًا

التوجيهي مسمار مدقوق في الجدار، وكل الصفوف مربوطة به بخيطان. وأول ما سأصنعه إلغاء التوجيهي كي تتحرر الصفوف كلها.

في مدرستي أربع حصص في اليوم. والحصة مؤلفة من ثلث ساعة للمعلّم وثلث ساعة للأسئلة والنقاش. وبعد الحصص الأربع يقضي الطلبة أربع ساعات شبه حرة يحلون فيها مسائلهم، ويقرأون الكتب، ويتناشدون الأشعار، ويحضرون حصصًا اختيارية يتم فيها التعمق في بعض المواد، بحسب رغبة كل طالب وقدراته. هذه الساعات الأربع لا تخلو من ألعاب رياضية، وجوقات موسيقى وغناء، وجلسات لنادي الكتاب ولنادي عشاق الرياضيات ... إلخ.

التاريخ قصص فقط. ليست هناك سبعة أسباب لاندلاع الحرب العالمية الأولى .... بل هناك قصةُ هذه الحرب مكتوبة بسلاسة بحسب المستوى الدراسي، ومن القصة يعرف الطالب لماذا قامت. التاريخ كله قصص فقط. وماذا عن الجغرافيا؟ هل تمزحون؟ بعد غوغل إيرث لم يبقَ لدرس الجغرافيا مكان. فليتسكّعوا على غوغل إيرث والسلام.

واللغة الإنجليزية؟ من الصفّ الثالث نبدأ تعليم الأطفال معاني الكلمات بالإنجليزية. كلمات فقط بدون سياق. يتعرَّفون إلى أسماء الألوان والفصول، ومعنى كلمة ولد وبنت وأب وأم، وقام وقعد ونام وشرب ... إلخ. يعرفونها بموازاة الكلمات العربية. وفي الصف السابع

يـبـدأون بقـراءة القصـص بالإنجليزيـة. ومـاذا عـن الغرامـر، القواعـد؟ تمزحـون؟ هل اسـتفاد طالب قطُّ مـن كل الغرامر السـخيف؟ ليس هناك غرامر طبعًا. نقفز من المفردات إلى القصص.

واللغـة العربيـة ونحوهـا الأسـخف؟ قصـص قصص، ولا شـيء غير القصـص. ولا نريـد دروس مطالعـة مقيتـة تعقُبهـا أسـئلة سـخيفة عـن الاسـتيعاب ومسـائل نحـو وصـرف وسـخام. نريـد قصصًـا فقـط. ومـع القصص بعض الأشعار، ونحفظ منها أبياتًا قليلة.

وتقولون: «لو أن مدرسـتك النموذجية هـذه يا فالح جيدة لصنع مثلها الناس في البلدان المتقدمة». وأقول: «لا تعرفون أن هذا موجود في كثير من البلدان المتقدمة؟ فاعرفوا».

نقدٌ لتدريس اللغة العربية في المدارس: أتحيَّر من أين أبدأ. كل قواعد النحو والصرف والبلاغة والعَروض قمامة. كذا لغتي وهكذا تعبيري، فإن شعرت بالإهانة فانصرف عني الآن. وكل الكلمات والأساليب الميتة هي فقـط للمتحف. لكنها ليسـت عديمـة القيمة ... فلكل لغـة تاريخُها الذي يدرسـه المتخصصـون. فأما في المدارس فـلا أرى تدريس اللغة القديمة أبدًا. وحتى لو اقتطفنا قصة من كتاب البخلاء فمن الجيد تحريرها والنص على ذلك في ذيل القصة. أنا مع الفصحى السليمة، ومع تشكيلها إلى حدٍّ مَعين بحيث يتقن الطلبةُ القراءة الجهرية ويكوِّنون إحساسًا باللغة. وسوى هـذا لا نريد. وليكن السـكون مرضيًّا فـي كل حال. مهمٌّ أن يمتلك الطفل أداة اللغـة بسـرعة كـي يقـرأ بهـا كثيرًا. مـن الجيـد الاهتمام بالمفـردة ... بالمعانـي. ولـو عـرف الطالـبُ معانـي كثيـرة فسـوف يسـهل عليه قـراءةُ

نصـوص صعبـة كثيرة مع الفهـم الكامل، أما القواعد فلا تسـاعد ألبتة في فهم أي نص. هي زينة لا أكثر.

بالنسـبة للبلاغة: لقد قال شـعراؤنا الشـعبيون شـعرًا جميلًا كثيرًا وهو مليءٌ بالمحسِّـنات البديعية، وقال امرؤ القيس وحسـان بن ثابت أشـعارًا بديعة مملوءة بألوان البلاغة، وما عرف حسـان البلاغة ولا عرفها شاعرُنا الشعبيُّ. البلاغة موجودة في النص. فليقرأ المرء النص وليستمتع دون أن يعرف أن الشيء الفلاني اسمه استعارة أو كناية أو تورية.

«علوم اللغة العربية» العشـرة -بحسـب الزنجاني- لا قيمة لها. القيمة كل القيمة هي لفهم اللغة في سياقها ومعرفة مفرداتها. وكل هذا يأتي من قراءة القصص. وبالقصص أعني الروايات والقصص القصيرة، والقصص الحقيقيـة عن أمور حدثـت في التاريخ، وقصص الرحلات ... إلخ. اللغة شـيء جميل إذا كانت أداة نسـتعملها للفهم، وشـيء قبيح إذا كانت هدفًا يدرس لذاته. ونحن ندرِّس اللغة لأطفالنا كهدف، وفي هذا قسـوة عليهم وحمورية من جانبنا.

اللغـة وجدان المرء. والطفل يتعلمها كالببغاء ويعيشـها، وعقله يقيس ويصيب ويخطئ. اللغة مجنونة ولا سـبيل إلى ضبطها بالقوة. نحن نأخذ اللغة من ألسـنة الناس. وبالنسـبة للفصحى نأخذها من مقالات وقصص وروايـات الكتاب، ومن كلام المتحدِّثين في الإعلام. وكذا الإنجليز فهُم يأخـذون الفصحـى الإنجليزيـة بالضبـط مثلمـا نأخـذ فصحانـا. هـم غير مضطريـن لمعرفـة لغتنـا. ونحـن مضطـرون لمعرفـة لغتهـم. لكننـا غيـر مضطريـن للتخلي عـن وجداننا العربي. نحن لا نريد أن ينطق أبناؤنا بلغة

شوهاء مركبة من عربية وإنجليزية، ولا نريد لهم أن ينغمسوا في الإنجليزية إلى ذقونهم. نريد لهم أن يتخرجوا من المدرسة ولديهم من الإنجليزية ما يكفي لمحادثة عادية مع شخص أجنبي، وقراءة خبر في جريدة، ولا أقول لقراءة مقال. فالمقالات التي تنشرها الصحف الإنجليزية والأمريكية المهمة مليئة بالتعبيرات الصعبة، وكُتَّابُهم يتفاصحون، ويستعملون اللغة للتباهي، حتى أكثر مما نفعل نحن. لكن الخبر الصحفي يكون مكتوبًا بلغة رصينة وسهلة ومباشرة.

إليك خبرًا سمعته قبل قليل. سيدة بريطانية تعمل مُعلِّمة وتحمل شهادة عليا. فُرض عليها تدريسُ بعض الطلبة العرب اللغة الإنجليزية. وجاءها في دروسهم تعبير «الأفعال المساعدة - أوكزيلياري ڤيربس» ففزعت إلى زميلتها العربية كي تشرح لها ما هذا المخلوق. ببساطة الإنجليز لا يدرسون «الغرامر» لأنه غير مهم. ونحن ندرس «غرامر» لغتهم لأننا حمقى.

عندما يبدأ التلميذ في سنّ التاسعة مثلًا بالتعرف إلى أسماء الأشياء بالإنجليزية يكون قد شكَّل سياقه العربي المتين، ولا خوف عليه من الاضطراب. ومن المهم أن يعرف الكلمة الإنجليزية مع مقابلها العربي. ما حاول المستعمر البريطاني أن يصنعه في كتب المدارس عندنا هو أن يخلق لنا وجدانًا إنجليزيًّا منفصلًا. أراد لنا أن نرضع اللغة الإنجليزية ونتعلمها في سياق. في مدرسة خاصة في بلادنا في الخمسينيات كان هناك نظام يقضي بأن يدفع التلميذ قرشًا كلما «أخطأ» واستعمل كلمة عربية وهو يتكلم مع زملائه. كان الإنجليز قد خرجوا من بلادنا وقتئذ، ولكن الاستعمار لم يكن قد خرج من عقولنا، وهو موجود حتى اليوم.

نريد لتلميذنا أن يعرف الإنجليزية لا أن ينغمس فيها. وفي الصفوف التالية عندما يصبح التلميذ في الثالثة عشرة من عمره مثلًا نبدأ بإقرائه القصص متدرِّجين من السهل إلى الأصعب. وربما أيضًا نقرأ الأخبار بالإنجليزية. ومن أفيد الأشياء الترجمة. والمترجم الذي يملك لغته الأم بقوة يسهل عليه أن يتعامل مع اللغة الأجنبية. كثيرون يريدون للطفل أن يتكلم الإنجليزية جيدًا ... أن ينطقها بشكل قريب من أهلها. وهذا ترفٌ لا نطمح إليه. على أن الاستماع إلى برامج إعلامية أجنبية يوفر الفرصة للسماع، وقد يُتاح المجال لاستضافة متكلِّمين بالإنجليزية في العطلات الصيفية.

نعم، لو أنفقنا نصف الوقت الذي ننفقه الآن على قواعد الإنجليزية في قراءة القصص لتخرَّج طلبتنا من المدارس بإنجليزية أفضل بكثير.

تدريس الدين في المدارس: كتب الدين الخمسة المقررة في بعض الدول العربية على جميع الصفوف لا تزيد من احتمال دخول المرء الجنة؟ وإرهاق التلاميذ بها يجعلهم يكرهون مواد الدين. وهل تظنون أن الطلبة يحبون كثيرًا الدرس الأول في كتاب المطالعة وهو عبارة عن سورة قرآنية طويلة ومذيلة بالأسئلة البلاغية والنحوية؟ لكم أن تظنوا أيضًا أن الأرض مكعبة. الدين بما هو مشاعر وإيمان أمر يتعلمه المرءُ في بيته وفي مجتمعه. وقد رأينا أشخاصًا مشغوفين بمسائل الدين يقرأون الكتب السميكة رغبةً لا رهبةً. القرآن جزء مهم من تراثنا اللغوي والأدبي فلا بد من التطرق له والعناية به في المدرسة. لكنه نصٌّ صعب، ويحتاج إلى تفسير كثير، والأفضل الاقتصار من ذلك على الاستماع إليه وتدبر بعض معانيه.

عن التعليم.. تنبيهات جاحظية

هذا حديثٌ في التعلُّم وقياسه، وفي التعليم وفلسفته. أبدأك به متردِّدًا كالمتهيب؛ لأني لا آمن أن تسمع أوله ثم تنصرف عن جُلِّه. فإنما تكون الزبدة في أواخره، وإنما يكون العرض المقنع المملوء أدلةً وبراهينَ في أواسطه. وأريد قبل أن آخذ في صلب الموضوع أن أستوثق منك، وأن أستولي على سمعك وعلى فهمك. وأنَّى لي ذلك، ولست مني بمسمع ولا بمشهد، ولست منك بمنزلة تغريك بالاستزادة من هذا الذي تقرأه.

أُنبِّهك تنبيهًا غليظًا إلى أنك لن تنتفع مني بأفكار أسوقها مُرتَّبةً ومُفقَّرةً تفقيرًا يعجب الأكاديميين، ولن تجد عندي زادًا مما طبخ المربُّون والفلاسفة. على أني سأعوِّضك عن ذلك. سأحكي لك عن أشياء وقعت لي وأنا أتعلم، وسأحدِّثك، عن أشياء صنعتها واعيًا وأشياء وقعت لي اتفاقًا.

ولا أدعك تدخل في الموضوع دون أن أشفع المقدمة بتمهيد، وأردف كلامي بكلام قد تراه مما يترفع عنه الأستاذ ويتأفف منها التلميذ. أريد لك أن تدخل إلى عقلي وأنا آخذ بيدك، مترفِّقًا بك؛ وأن تسلك إلى أفكاري طريقًا طويلًا ومتعرجًا يمرُّ بك على رياض مونقة، حتى تعرف -بعد أن تصل- موضع الفكرة من التجارب التي ولدتها، وتدرك الأساس الذي عليه قامت، والمنبت الذي فيه جذرها، ومنه حياتها.

لا يُروِّعنَّك أن تجدني أسوق إليك، في الأسطر التي ستهجم عليك عما قليل، كلامًا من الأوليات: كلامًا عن الفرق بين الإنسان والحيوان.

لا يثنينَّـك ذلـك عـن متابعـة القراءة. فلسـتُ أعبث بـك، ولا أطيل عليك قاصدًا الإطالة. وأي كاتب يقصد إلى إسآم قارئه؟ أي كاتب يكره أن يقرأ القارئُ كلامه كله لا ينصرف عن فقرة من فقراته، ولا يقفز فوق سطر من سطوره؟

وكيـف تلومني على السـعي إلى فهم الإنسـان من طريـق التعرف إلى الفـرق بينـه وبين سـائر الحيـوان، وتلك أداة مـن أدوات الفكر اسـتعملها الأقدمـون ولـم ينكرهـا عليهـم المحدثـون؟ ألـم يتنبَّهوا إلى أن الإنسـان حيـوان ضاحـك؟ ومـن هـذه الملاحظـة التـي لا تغيـب عن صبـي يرعى غنمات أهله تغلغلوا في النفس البشـرية وعرفـوا عنها الكثير. ألم يقولوا: إن الإنسان حيوان ناطق؟ ومن هذه العبارة عرفوا عن اللغة وعن الإنسان الشيء الكثير.

لن نقول: «إن الإنسـان حيـوان متعلم»؛ فالحيوان، الذي ليس بإنسـان، متعلِّـمٌ أيضًا؛ لذا تفسـد العبارة ولا تعود تصور فرقًـا، ولا تعود علينا منها فائدة. لكننا نقول: «إن الإنسـان يربط بين الأشـياء المختلفة التي يتعلمها ربطًـا يولِّـد معـارف جديـدة ويفتـح طرقًا جديـدةً». ونقول: «إن الإنسـان مُسـرفٌ في التعليم إسـرافًا لا يعزفه الحيوان. فمثلما يسـرف الإنسـان في الأكل وفـي الشـرب وفـي الجنس وفـي ابتداع البـدع المؤذيـة كالتدخين وتخدير الدماغ بالخمر وبالحشيش، يسرف كذلك في التعلم».

كان لي أيام الطلب صديق ساكنته في بيت. كان تقيًا صالحًا. وحل بنا أولُ شتاء من شتاءين حلاً بنا في تلك الدار، فرأيته يومًا يكرع رشفات من زجاجة كونياك رخيص؛ التماسًـا للدفـء. قال: «إن تدفئة قفصه الصدري

بقليل كونياك يجرعه أجدى على جيبه من تدفئة الغرفة بقنينة جاز. على أن ما عند صاحبي من حكمة ليس فاشيًا في البشر. لعلهم عرفوا الخمر أول معرفتهم بها وسيلة تدفئة. لكنهم تعلموا بعد ذلك أنها تُخَدِّرُ الدماغ. وأسرفوا فيها في صيف وفي شتاء طلبًا لتبديد أدمغتهم لا لتدفئة أقفاصهم الصدرية. يسرف الإنسان في التعلم من جهات؛ فهو يتعلم ما يفيده وما لا يفيده. ينفق الخطاطُ عمره في تجويد رسم الحروف، وكان أدنى جهد كافيًا لتصويرها واضحة مقروءة. فالخط العربي بأنماطه فنٌّ فضلة. وأي فن ليس بفضلة؟ ولعل كل فن لا يكون فضلة يخرج من حاقّ الفن ويدخل في زمرة الصنائع، ولكننا في العربية نخلط فنسمي الصناعة فنًا.

علام نلوم أنفسنا في تزيين قصورنا بالثُرَيَّات التي يقصر ضوؤها عن ضوء أنابيب النيون وتزيد كلفتها عن كلفتها أضعافًا؟ أفليسوا يصنعون ذلك في أرقى البلاد؟ علام نؤنب من يحفظ **ألفية ابن مالك**، ومن يحمل التلامذة حملًا على فهم الميزان الصرفي؟ أليسوا في البلاد الراقية يدرسون لغات ميتة كاللاتينية، ويحتفلون بالأساطير اليونانية ويحفظون أسماء آلهة وأنسابهم هم أعرف الناس بأنها لن تفيدهم ولن تضرهم؟

وإنما أسوق إليك كلَّ هذه الأسئلة -التي منها ما ينكر الشيء ومنها ما يزينه في النفس، فكأنها كتعاقب الحار والبارد على اللسان في الأكلة الواحدة- لا لأحيرك، بل لأقِفَك على حيرتي أنا. ثم إني سأعطف بعد ذلك عطفه أسوق فيها رأيًا أعتقده، وهو مشرقٌ في ذهني الآن بعض الإشراق، واضح وضوحًا يجعلني مطمئنًا إلى أنك ستنصرف بشيء تظفر منه بطائل إذا مضيت أسطرًا أخرى غير كثيرة.

فأما حيرتي، وبها أبدأ قبل يقيني، فإني وجدتُ لذَّة تعلُّم ما لا ينفع، وذقت حلاوة الفن من أكثر من باب. أنفقت سنوات، ما أشدَّ ما أتحسَّر كلما فكرتُ فيها، في إتقان، أو قل محاولة إتقان، مهارات ليس فيها غَناء. ثم رأيتُني أرضى باللذة التي حصلت في نفسي وأنا أبدِّد ذلك الوقت، ناسيًا ما تكبدتُ من مشقة وما أنفقت من جهد. رأيت للفن حلاوة، ورأيته لا يقاس بما تقاس به الصناعة، ورأيته أخا التبذير. وأعرف، كما تعرف، أن الإنسان الأول كان يختلس من يومه سويعات ينسى فيها خطر الوحش وخطر الجوع ليبالغ في إتقان رسومه وتلوينها. فلئن كان بدأ يرسم صور الحيوان على جدران كهوفه لسبب يتصل بمعاشه، وضرورة أشعرته بها تجاربُه، فإنه زاد في الإتقان والتلوين إسرافًا منه وتفننًا.

أندم على ساعات من الليل والنهار قضيتُها في تجويد ترويسة الألف في الثلث أو صحن الصاد في الفارسي فما جادتا من يَراعي إلا بمقدار، وما اعتضت عن ذلك الجهد تقديرًا ولا إعجابًا ولا مالًا. كان إدمانًا كإدماني اللعب بالأجهزة الإلكترونية أنفق فيه ساعات بالمئات.

لعله يحسن بي أن أكفَّ نفسي كفًّا عن المضيّ في حديث الإدمان والفن وما يجمع أو يفرق بينهما. ولعلي أرضى بالإضراب عن هذا كله ولـمَّا أصل منه إلى قول فصل. وأنا، بعدُ، إنما أتحدث عن حيرتي. وأصوّر للقارئ أمورًا صنعتُها مسوقًا مختارًا في آن.

أعود إلى أمور أنا منها على يقين. ليس كل اليقين، وليس في كل أمر منها. ولكنك ستجد فيما هو مقبل عليك شيئًا يبقى بيدك، تقبض عليه

وتجـد لـه جرمًا صغيرًا أو كبيرًا. فهـو ليس قبض الريح. على أنه قد يكون قمحًا وقد يكون زؤانًا.

مـا يجـوز علـى الفرد لا يجـوز على الأمة. ولا يشـبّه امرؤٌ حيـاة الفرد واكتسـابه المعارف أو تضييعه الوقت في الفنون الجميلة، أو البهلوانيات القبيحة، بحياة الأمة واختزانها العلوم أو تضييعها الموارد، إلا وجب عليه الاحتراس من التمادي في التشبيه، والانتباه إلى أن الدهش بما بين المشبَّه المشـبَّه بـه مـن تناظر قد يُسـلم المرء إلـى الخطل والمبالغـة، ويعميه عن الفـروق. وأولى بالمرء أن يقدع النفس عن شـهوة الانجـراف بالفكر إلى مزالق الجزم. فلنضرب على كل فكرة خباء من الشكوك يحميها أن تكون سـرابًا لكنـه لا يخنقها. لنفهـم، ما أمكننا، القَدر الـذي يمكن لإرادة الفرد وإرادة الأمـة أن يفعلاه مـن تغيير للواقع، ثم لنثب إلى أنه «ليس بالإمكان أبـدع ممـا كان». وبينهمـا يقـع الحـق ويقـع الممكـن. وهمـا، أي الإرادة والواقع، للفعل الإنساني أرضُه وسماؤُه.

وضعـك خطـةً لتعليم نفسـك مهـارةً أو إكسـابِهَا إدمانًا يجـرُّ عليك ما يجـره في مقبل أيامك. فما بالك بوضع خطة لتعليم الملايين؟! وإقامتك توازنًا بين الفن والصناعة، وبين ما تلذه وما يُدرُّ عليك مالًا، شـأن يشـغل تفكيـرك فردًا، وأحرِ به أن يشـغل تفكير الأمة وقـادة الرأي فيها. هل تعلّم أبنـاء الأمة كلها تعليمًا شـاملًا يعـمُّ الناس كما يعمُّهم المطـر والهواء، ثم تغفـل الاعتنـاء بالصفـوة، أو تتـرك ذلـك قاصـدًا؟ أتريـد للأمـة أن تطعن وجدانهـا وتراثهـا بالخناجر كما صنع أتاتورك عندما ألغى الحرف العربي والطربـوش، ومـا يعنيانـه؟ لعـل في هـذه المجـزرة حِجَامةً نافعةً لجسـم الأمة؟ أم يسلك سبيل الترفق مع كثير من الفهم؟ أم أن بعض الأمم تصلح

علـى الترفق وترقّى به صاعـدةً صعودًا متصلًا لا نكوص فيه، وبعضها لا يصلح بغير حجامة غليظة تُخرج الدم الفاسد؟

بيـن هذيـن الطريقين اللذين يبدوان متضاديـن كل التضاد طرق كثيرة. والأمـة، كل أمـة، تمضي في طريقها صاعدة أو غير صاعدة تسـوقها رياح لا يدَ لها في توجيهها، وتدفعها إرادةٌ تنبع من داخلها.

قـادة الـرأي يقـودون بما عندهم من فهـم، وبما درسـوا وفكَّروا، وبما حشـدوا من علم، وما شـحنوا به نفوسهم من إخلاص لكي يكونوا الرائد الذي لا يكذب أهله. المفكِّر في مستقبل قومه يضع الخطة بعد أن يفهم فهمًا عميقًا. يرسـم صورةً للمسـتقبل قد تكون سـطرًا وقد تكون كتابًا. ثـم تـراه يخـوض حربًا في سـبيل إنفاذ خطته. ولا بد مـن الحرب، ولا بد من سـفاهة يركبهـا وهو يحارب. وقد يظـن خطته تنزيلًا أُحكمـت آياتُه. وقد تمنعـه طبيعتـه أو طبائع خصومه من أن يرعوي. وقد يجد نفسـه بعد حين يعوي في الصحراء غير مُسـمِعٍ أحدًا، أو قد يجد نفسـه يقود الخراف إلى العشـب ويحميهـم مـن هجمةِ الذئـب. خليـقٌ بصاحب الـرأي أن يتخلَّق بالأناة، وأن يحذر النَّزَق. وجدير به أن يزن أفعاله بين الفينة والفينة بميزان الإخـلاص. لسـنا نزعـم أن أحـدًا يضع خطة أو ينافح عـن رأي لوجه الله، معاذ الله. بل كل البشـر اعتباراتهم بشـرية مصلحية. لكن فيهم من ينصب هدفًا ويسـعى إليه، فإن عجز عن الوصول نصب هدفًا آخر ثم راح يسـعى إليه لا يُخفي عن أحد، ولا عن نفسه، أنه استبدل بهدفه. وفيهم من يأخذك علـى بعيـره والهـدف مكة، ولا يني يُعلِّلـك ويُؤمِّلك، أو يُسـفِّه عليك، أو يُشـدِّد فـي وجوب أن تترك إليه شـأن القيادة والتفكيـر والتدبير حتى تجد نفسك، وقد دخل ذو الحجة، على مشارف حلب. أكثر من صنع بنا ذلك

الزعماءُ. ولكن من أهل الرأي من اقترف أشياء مشابهة. ما أجدر أهل الرأي أن يكرروا النظر في بوصلتهم، وأن يأخذوا الحَيطة كيلا ينزلقوا في التضليل وهم يحاربون خصومهم ويدافعون عن أفكارهم.

أحفظني رجلٌ أراد، وكان ذلك في سنة ١٩٨٥، أن يبيعني اشتراكًا في جريدة حزبه ذي الاتجاه السوفييتي، اشتريتُ منه ذلك العدد من الجريدة وقرأت ما تيسَّر لي، ثم أبديت له تعجبي لأن الجريدة تزعم في مقالات عديدة أن العِلم السوفييتي والتكنولوجيا السوفييتية والمجتمع السوفييتي والمستقبل السوفييتي خير مما يناظر ذلك في الغرب الرأسمالي. أردتُ أن أناقشه في أغاليط لا تجوز على البُله والمعتوهين. فأبى أن يفهم عني. وأما ما في الصفحة الأولى من تعليقات سياسية وأفكار عما يحدث لنا وما سوف يحدث، ومن أخبار منتقاة انتقاءً لا يرضى عنه محرِّر حرٌّ فلم أمسَّه من قريب ولا من بعيد فهو فاسد، وصادر عن أفق ضيق، ضيَّقته الأيديولوجيا. رأيتُ صاحبي ذاك، في تلك الحقبة، التي لم يكن أيٌّ منا يعلم أنها حقبة لفظ الأنفاس للاتحاد السوفييتي، رأيته قد رهن عقله وتخلى عن حقه في التفكير. ثم لقيت بعد انهيار الاتحاد السوفييتي بسنتين أو ثلاث رجلًا من كبار قادة الرأي الشيوعيين. ورغم ما جُبلت عليه من إيثار السلامة ركبت مركبًا فظًّا إذ سألتُه عن شعوره بعد انهيار الحلم الكبير، وكيف تماسك الرفاق وتمكنوا من مواجهة الدنيا بعد الزلزال. راح يحدِّثني حديثًا تافهًا عن ذكرياته في موسكو وعن الساحة الحمراء وعن الفودكا. رأيت أكثر أنصار الاتحاد السوفييتي قد تأقلموا مع الأوضاع بشكل مدهش، وشُفوا من داء الأيديولوجيا، وغدوا عمليين يعرفون من أين تُؤكل الكتف.

وتمر بنا اليوم محنةٌ من أشد ما مرَّ بنا وأفظعه. ففي هذه الانتفاضة التي مضت عليها سنتان ونصف ارتفع عن الرقاب بعض الارتفاع سيف التقتيل، ولكن سيف الجوع ظل مصلتًا. نحن الآن في وضع أحوج ما نكون فيه إلى التكافل، فمجتمعنا يتعرض إلى هجوم وحشي، والناس محتاجة إلى تقاسم الأرغفة القليلة، وتوزيع المعونات الشحيحة بصورة تضمن للمجتمع صمودًا أكبر وتشحنه بثقة سيحتاج إليها في المستقبل عندما يعود ليبني ما تهدم. وأرى أنصار الاشتراكية قاعدين عن اشتقاق شيء منها ينفعنا، أراهم يتكلمون كثيرًا، كما كان شأنهم دائمًا، ولا يتكلمون إلا في المناورات السياسية. عقدة انهيار الاتحاد السوفييتي جعلتهم يخجلون من كل أفكارهم السابقة ومن كل كلماتهم السابقة. صارت كلمة الاشتراكية كلمة منكرة يتحاشونها. لكنهم ظلوا يتكلمون.

خرجت هذا الخروج كي أنبه القارئ، وإياي، إلى خطر نسيان المراجعة للخطط والأفكار، وإلى ضرورة عدم تثبيت مبادئ بعينها ورفعها إلى مرتبة القداسة، وعدم ترسيخ أساليب عمل ترسيخًا يحول دون تصحيحها عندما يكون التصحيح مفيدًا.

فلو ثبَّت امرؤ في عقله فكرة أن تحفيظ التلامذة أبيات الشعر شرٌّ مستطيرٌ، ولو هو أمعن في المنافحة عن هذه الفكرة واستعداء الأقران في سبيلها، ولو هو اتخذ هذه الفكرة هاديًا له في عمله التربوي، لغدا صعبًا عليه أن يتراجع إذا ما نوقش، ولغدا صعبًا عليه أن يناقش نفسه. الدوغما جميلة لبساطتها. يبنيها المرءُ في عقله من الحجر، ويُحيطها بأحواض الزهر، ثم يرى أن انتقاضها يخلُّ بتوازن دماغه. وكثيرة هي الأدمغة التي تفتقر إلى الحيوية، ولا تحتمل عمليات البناء والهدم والتعديل المستمرة.

ومن قال: «إن الحفظ شر؟» إنه أداة من أدوات التعليم، إن أفرطنا في استعمالها حصلنا على نتيجة، وإن اقتصدنا حصلنا على نتيجة، وإن أهملناها حصلنا على نتيجة. لماذا نقيّد أنفسنا بقواعد هي أشبه بالتحليل والتحريم؟ بدأتُ حديثي إليك متربعًا في كسر بيتي، أتسلّى بتذكر العبارات العتيقة راجيًا أن تتسلّى معي بها. ولا بد لي الآن من الجلوس إلى المنضدة، فلعلَ لغتي أن تعتدل باعتدال جلستي، ولعلّي أُجرِّب أن أطَّرح الاستطراد وأن أترك قلمي على سجيته، فهذا أروح لي ولك.

ثمة أمور رئيسة تشغل فكري: لماذا نتعلم؟ وماذا نتعلم؟ وكيف؟ وكيف نقيس أثر التعليم الذي نعلّمه أبناءنا؟ وكيف نضع الخطط التعليمية؟ وكيف نُبقيها سجلات مفتوحة قابلة للتعديل المستمر؟ وكيف نخوض المعارك ضد خصومنا في الفكر دون أن تنال هذه المعاركُ من قدرتنا على التسامح وعلى الفهم؟ والهدف الأسمى هو البقاء. هو أن نحفظ قومنا من الفناء، وأن نغرس للمستقبل.

نحن فعلًا على مفترق طرق. أليس ثمة شهوة صهيونية عمياء لرؤية النبوءة التوراتية تتحقق فيعود اليهود ويأخذوا فلسطين كلها. ولكن التوراة ليست منطق الكون. وحتى لو تحققت النبوءة فإنها لن تقضي على قوة مطلبنا ورسوخه في وجدان أبنائنا. وثمة في جانب آخر رغبة دفينة في نِفوس اليهود في أن يصيروا مثل كل الشعوب. لقد تأرجحوا بين حياة الذلة والمسكنة وبين حياة البطش والظلم. قضوا خمسمئة سنة أذلّاء في أوروبا والعالم، ثم قضوا الخمسين سنة الأخيرة باطشين في فلسطين. وأظن أن عقلاءهم يتمنون لو يستقر الوضع الآن فيتاحَ لهم أن يعيشوا

حياة طبيعية حتى لا يعود البندول إلى الجهة الأخرى فيذوقوا المسكنة في طور لاحق.

ولعل عقلاء الفلسطينيين أيضًا يريدون حياة طبيعية يبنونها لشعبهم في الربع الباقي في فلسطين. ولكن مجانين اليهود لا يتركون لعقلاء الفلسطينيين إلا خيارًا واحدًا هو أن يهاجروا إلى المستقبل ويشنُّوا حرب تحرير مطالبين بفلسطين كلها.

قد يتغلب العقلاء فيعيش الشعبان في فلسطين. وهنا لا بد للشعب الفلسطيني أن يتعلم كثيرًا وأن يبني بلده. وقد يتغلب المجانين، وهنا لا بد للشعب الفلسطيني أيضًا أن يتعلم كثيرًا وأن يبني شتاته. لو حدث الانهيار وقُدِّرَ على الفلسطينيين أن يتفرقوا في الأرض أكثر مما قد تفرقوا فسوف يصاب كل فلسطيني بمرض نفسي اسمه العودة. هذا المرض موجود الآن ويعاني منه الخمسة ملايين فلسطيني في العالم. وإذا تفرقنا كلنا في العالم فسوف يغدو هناك عشرة ملايين من المرضى النفسيين الذين توجد في وجدان كل واحد منهم غرفة مقفلة جدرانها سود. وهذا المرض النفسي لحسن الحظ أو لسوئه يورَّث للأبناء. وسيعاني منه الفلسطينيون واليهود طويلًا. لكنه، لحسن الحظ، لا يمنع من التعلم والترقّي. بل لعله يحثُّ عليهما.

إذن فنحن، الفلسطينيين، نحتاج إلى أن نتعلم كثيرًا وإلى أن نتفوق كثيرًا. لكن طبيعة المعارف والمهارات التي نحتاج إليها ونحن في بلدنا تختلف عن تلك التي نحتاج إليها في الشتات. والخطط التعليمية التي تصلح هنا قد لا تكون ممكنة ولا صالحة هناك.

على المفترق لا يشعر المرء برغبة في أن يفعل شيئًا سوى أن ينتظر. لكن، ألا يجدر بنا ونحن ننتظر أن نزجي الوقت ونتسلّى بأشياء تنفعنا سواء أسلكنا هذا الطريق أم ذاك؟ ثم إن وقوفنا على المفترق قد يطول. نحن الآن في دوامة انتفاضة دامية. قد تنتهي بعد سنة، أو بعد خمس. ثم قد يأتي بعدها وقت جامد مثل الوقت الذي مررنا به بين الانتفاضة الأولى والثانية. وقد ننتفض مرة ثالثة بعد عشر سنين، وقد تجيب الانتفاضة الثالثة آخرتنا ويكون فيها رحيلنا أو ثباتنا على أرضنا ثباتًا فيه مزيد من القهر.

من يدري؟ كذاب الذي يقول: إن بصيرته قادرة على رؤية شيء من هنا. أهون عليه أن يرى ضوء شمعة من على مسيرة شهر من أن يرى ما سيحل بنا بعد عشر سنين.

فما نوع التعليم الذي نريد أن نتعلمه الآن؟

أتحدث الآن عن الضفة الغربية وقطاع غزة. أما الشتات فهو ليس مما نستطيع أن نضع له الخطط ولا أن نرسم له شيئًا. له ديناميته. لن نفلح ونحن على المفترق في تعليم عميق وإبداعي. البحث العلمي غير متاح والبلدُ أمرُها مضطربٌ. فحتى بعد انتهاء الانتفاضة ستكون هناك سنين عجاف. نحتاج إلى تعليم أساسي (مدرسي وجامعي) يخرج لنا أشخاصًا مهرة في حقول معينة بحيث تنفعهم مهارتُهم هنا أو في الشتات.

عن التعليم المدرسي

كنت أسأل ابنة أخي، التي أنهت الشهادة المدرسية لتوّها بمجموع ٩٧٪ وبعض الكسور، عن أسئلة الامتحان النهائي في اللغة العربية، فقالت: «إن ورقة الأسئلة تضمنت شيئًا عن الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية». حسنًا فما هذا؟ اضطربت المعلومات في رأسها، لكنها قالت: إنها أجابت إجابة صحيحة. وأنا أصدقها. وإلا فمن أين لها بهذا المجموع الضخم؟ حدث هذا الموقف بعد أقل من شهر من ظهور النتائج (وأنا أكتب في الخامس عشر من أغسطس/ آب ٢٠١٣).

ولم أتبرع لابنة أخي بالإجابة عن ماهية الاستعارة التصريحية والمكنية؛ ذلك أنني لا أعرف الجواب. فكيف ذلك وأنا قد كتبت كتبًا عن شعر أبي تمام، والمتنبي، وشوقي؟

كثير من «علومنا اللغوية» مجرد تمحُّل. وقد جعل النحاة القدامى من البلاغة والنحو والصرف بيتًا للأشباح. وقد يعنُّ لي في بعض الأحيان أن أُثني عليهم آخذًا في اعتباري ظروف عصرهم، ومدركًا أنهم وجدوا في النحو، وفي البلاغة، وفي الفقه، قنوات تصريف لطاقتهم الذهنية الكبيرة. ولسنا في هذا بدعًا بين الأمم، فقد أنفق لاهوتيو بيزنطة زمنًا وهم يتجادلون في عدد الملائكة الذين يمكن أن يقفوا على رأس الدبوس. لست ضد تدريس بعض علوم الأوائل، وشرطي أن يسبق هذا تمحيصٌ لهذه العلوم بحيث يدرك المرء ما هو حقيقي فيها وما هو مجرد تمرينات لخلايا الدماغ. وبحيث يتم ربط هذه العلوم بحياة الناس، فمثلًا -ولعلك

تستغرب- لستُ ضد تعريف الطلبة بالجناس (مثال: سمَّيته يحيى ليحيا)، فكثير من الشعر الشعبي في بلاد العرب يتخذ الجناس مطيةً، وعتابا بلاد الشام نمط من الشعر لا يقوم بغير الجناس. فهنا يوجد شيء ما زال حيًّا في هذا النمط البديعي. وانتبه إلى أنني قلت التعريف بالجناس، ولم أقل دراسته. فأنواع الجناس تصل في إحصاء بعضهم إلى أربعين، يُضاف إليها نحو من مئة وعشرين لونًا آخر من ألوان البديع سوى الجناس. كل هذا في البديع. فأما الاستعارات والتشبيهات فهي ضمن علم آخر هو علم البيان. وأما أساليب الطلب والتمني والترجي ... إلخ فهي من علم المعاني. ولعلك تريد، أو لا تريد، أن تعرف أن علم البلاغة يضم هذه العلوم الثلاثة: البديع والبيان والمعاني.

فهل تراني أتحدث إليك كما يتحدث مُعلِّم المدرسة؟ حسنًا، لقد كنتُه يومًا.

وقبل أن أخرج من مزاج «مُعلِّم المدرسة»، أبحث لك في الإنترنت عن تعريف الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية: التصريحية أن تقول لصاحبك: «أيها الأسد». والمكنية أن تقول لصاحبك: «سررتني وأنت تزأر في وجه ذلك الرجل الوقح». ففي التصريحية استعرت له الأسد كله. وفي المكنية استعرت له صفة من صفات الأسد، وهي الزئير، دون أن تذكر الأسد.

ولو درس الطلبةُ الاستعارة هكذا لهان الأمر، ولكنهم يدرسون نوعي الاستعارة في كلام مطوَّل يشبه تعاويذ الشيخ شَمهورش.

أريد أن يكون في منهاج الرياضيات شيءٌ عن اللوغاريتمات يكون مفهومًا ويساعد في حل المسائل العملية، ولا أمانع في دراسة التوافيق

والتباديل بعض الدرس. ولكنني أريد أن يكون ذلك كله مسبوكًا في قوالب عملية تسهِّل على الطلبة الفهم، وتجعلهم يرون فائدة التوافيق والتباديل. وأما عندما يدخلون في التخصص فليكن هناك تجريد أكثر، وليكن هناك تشعب.

الطريقة التي يتم بها تدريس العلوم والآداب في مدارسنا تعتمد على كثير من الحفظ وقليل من الفهم. ليس في الآداب وحدها بل في العلوم أيضًا. افتح كتاب الكيمياء وكتاب الأحياء وخذ لنفسك نظرة عجلى.

لتكن هناك دروس أخرى نقرأ فيها معهم أشعارًا عن الحب والوطن، وتلك القصيدة «الخمرية» التي نظَمها أحمد الصافي النجفي.. لكن عن كوب الشاي، و«قصيدة» الذئب للبحتري، وقصيدة لنزار قباني عن هزيمة الـ ٦٧، وقصيدة «حياة مشقات» لإلياس فرحات. ثم في نشاطات مدرسية خارج المنهاج نلقي قصائد لمحمود درويش ولأبي القاسم الشابي ولإبراهيم ناجي. كل هذا دون التطرق لكل السفاسف البلاغية. فقط نقرأ القصائد ونستمتع بها.

لو حدث هذا لأصبح في قلب الطالب إدراكٌ تلقائيٌّ لكل الأدوات البلاغية. فمن تذكر منهم الجناس ورآه في الشعر بوضوح فهذا هذا؛ ومن نسي الجناس والاستعارة فلا بأس عليه، فهو قد تشبع بأدب أمته، وامتلأت نفسه فصاحةً بصورة تلقائية.

المُعلِّم في بلدنا هو الموظف الوحيد الذي يعترف الجميع بأنه يأخذ مرتبه عن جدارة. وأنا هنا لكي أطعن في هذه الجدارة. هو سجَّان أكثر منه معلِّمًا. والمنهاج رديء.. لا أعني كتب المنهاج فقط، بل المنهج التعليمي رديء، والفكر التعليمي رديء.

للمـدارس فـي بلدنـا قدرة على خلق حالة نفسـية معينة لدى الإنسـان سأصفها بقدر ما أستطيع، وقد لا أملك القدرة التعبيرية الكافية، إما لأنني مـا زلـت حتى الآن أعاني من هذه الحالة، وإما لأنني أكتب وعلى رؤوس أصابعي شياطين السخط، فتصطبغ كلماتي بمشاعر الكره الفياضة فتغطي على الفكرة.

يشـعر الطالب أنه عبد. يشـعر أن المدرسـة والدوام المدرسـي محور حياته. ويشـعر أنه يجب أن يفهم كل شـيء ويحفظ كل شيء. أكان يحب الكيميـاء أم كان يكرههـا، فالكيمياء قَدَره، عليـه أن يحصل على درجات عالية. عليه أن ينجح في كل المواد: بالفهم أو بالحفظ أو بالغش. عليه أن يلبي رغبات عائلته. يعدُّ نفسـه أبله لأن عددًا من زملائه تمكنوا من حفظ أشـياء ومـن فهـم أشـياء وعجـز هـو عنهـا. يدخـل فـي دوامـة «التفوق»، والمنافسـة. يقولون هي منافسـة شـريفة. لا، بل هي منافسـة قاتلة للشوق الذي بداخل الإنسان للتعلم.

ثم يعيش المرء حياته كلها عبدًا.

ربما كان هذا هو الدور الأساسـي للمدرسـة: أن تجعل الإنسان عبدًا. لم أر أحدًا يمارس شيئًا بإبداع وبحب إلا ويكون قد تعلمه وحده.

تمنعنـي شـهوةُ التكسـير التـي تجتاحنـي الآن من أن أمضي في شـرح فكرتي. فلتسـتقر في أعماقي مدة أخرى حتى تنضج، وحتى تزول حرارة الكراهية التي تعتمل في نفسي، وعندئذ قد أفصِّلها في مقال آخر.

فضيحتان في جامعتين

قبل أيام صدر ديوان المرحوم محمد العمد مدير كلية النجاح سابقًا.

أحصيت في الديوان أكثر من ثلاثمئة غلطة نحوية وعَروضية، وقدَّرت أن فيه نحو ستمئة غلطة مطبعية. وهو ديوان صغير من مئة وخمسين صفحة مع فراغات واسعة بين الأبيات. وأشهد أن طالبًا فالحًا في السنة الجامعية الأولى كان قادرًا على إقامة جُلّ هذه الأغلاط حتى بدون الرجوع إلى المخطوط. وأشهد أن الشاعر كان متينًا في إقامة الوزن واللغة، ولكن اللجنة -التي سمَّت نفسها «لجنة تحقيق الديوان وإخراجه» والمكونة من أربعة دكاترة، ثلاثة منهم متخصصون في اللغة العربية- ارتضت أن تقدم لرئيس الجامعة هذا الكتاب، على هذه الصورة المخجلة، ليكتب مقدمته، وليصدره باسم الجامعة. فالمعذرة للشاعر المرحوم.

أيها المحققون الكرام، لولا أن بلدنا صغير، وأنني قد ألتقي ببعضكم مصادفة، لكنت سلقتكم بكلام غير هذا الذي قرأتموه أعلاه.

ووقع بيدي كتاب صادر عن جامعة أخرى، اسمه **الفكر العربي الحديث والمعاصر**. وقد وردت في مقدمته أسماء ١٤ شخصًا (أكثرهم دكاترة) ساهموا جميعًا في اختيار نصوص الكتاب من كتب فكرية شتى. وذكر في المقدمة أن النصوص «مرفقة بسير (ذاتية) كتبها المحررون، لتضع النصوص في سياقها التاريخي». ذاتية؟ شيء مخجل. لكن المخجل حقًّا سيأتيك في الفقرات التالية.

إذن فالمحررون قد كتبوا السِّير! وهؤلاء المحررون أساتذة جامعيون يرسِّبون الطالب ترسيبًا لو اقتبس فقرة واحدة في بحثه دون الإشارة إلى مصدرها.

السيرة الأولى لرفاعة الطهطاوي، وفيها بضعة أسطر منقولة من كتاب لعمر الدسوقي. (والدسوقي لم يقع في غلطة تلقيب سعيد باشا بالخديوي، و«المحررون» وقعوا). والسيرة الثانية سيرة خير الدين التونسي، وطولها نحو ٢٥٠ كلمة، وهي منقولة حرفيًا عن كتاب أحمد أمين **زعماء الإصلاح**، (مع إضافة عدد من الأخطاء المطبعية، وغير المطبعية. فـ«المحررون» يصرون على أن الباي أحمد تولى الحكم سنة ١٨٣٧ هجرية، أي بعد أربعة قرون من الآن). وسيرة الكواكبي (نحو ٢٥٠ كلمة) منقولة حرفيًا عن كتاب أحمد أمين أيضًا (ونسختي التي بيدي الآن صادرة عام ١٩٦٥ عن مكتبة النهضة المصرية).

وقد ذيَّل السادة «المحررون» كتابهم بسجل للمراجع. ولكن كتاب أحمد أمين، المعتدى عليه أكاديميًا، غير مذكور؛ ولا كتاب الدسوقي مذكور. وأترك سيرة نزار قباني لضيق المقام، غير أن فيها من القَصِّ واللصق ما يخجل من مثله ضعافُ الطلبة.

بخلاف السطو الأكاديمي هناك من الأخطاء اللغوية والمطبعية ما لا تجده حتى في كتب الأرصفة. هذا الكتاب مُقرَّر منذ خمس عشرة سنة على آلاف الطلبة، ومنصوص في طبعته الثالثة على أن «جميع حقوق الإعداد والتحرير محفوظة للمحررين». وهناك عبارة طريفة أخرى في المقدمة رجوت ألا تفوت القارئ الكريم، فالطبعة الثالثة تصدر «كنتاج

لتطوير الطبعات السابقة والتي ساهم فيها كافة أعضاء دائرة الفلسفة والدراسات الثقافية في جامعة بيرزيت» فتأمل!

جو المقال: نُشر في جريدة **الحال** التي يصدرها معهد الإعلام في جامعة بيرزيت. وردَّت عليه الدائرة الساطية. ولم تعترف بالسرقات. فرددتُ ردًّا وقع في خمس عشرة صفحة. وقرر عميد الآداب دفن ردي. فآثرتُ السكوت لأن أحد الأساتذة استرضاني بلهجة فيها شبه اعتراف. وبالمناسبة فإن ما ذكرته من النصوص المسروقة مجرد أمثلة ... السطو أبلغ من ذلك.

مدرستان أجنبيتان في نابلس

مبارك عليكم يا أهل نابلس.. تفتتحون هذه الأيام مدرستين: واحدة أمريكية وأخرى إنجليزية. وهذا يذكّرني بقصة الخوري اللبناني الذي ركب حماره قبل مئة وخمسين سنة صاعدًا في الجبل، فسأله أحدهم: «إلى أين يا أبونا؟» فقال له: «ذاهب إلى القرية في رأس الجبل لافتتاح مدرستين». قال له: «مدرستين مرة واحدة، وفي قرية؟» فقال الخوري: «سنفتتح مدرسة اليوم، وبعد قليل، سيفتتح البروتستانت مدرسة».

على أن مدارس لبنان التبشيرية اهتمت باللغة العربية، وخرَّجت عددًا من كبار فطاحل الأدب العربي. ومدارسنا الأجنبية تبتعد عن اللغة العربية شيئًا فشيئًا. ونرجو لمدرستي نابلس أن تهتما باللغة العربية. ونهديهما خلاصة بحث لبناني حديث.

البحث كتبه صوما أبو جودة من الجامعة الأمريكية ببيروت، وفؤاد صيَّاح من مدرسة مار يوسف في قرنة شهوان، وقد استندا إلى عينات وافية مقسومة قسمين: طلبة درسوا العلوم والرياضيات باللغة العربية، وطلبة درسوها باللغة الإنجليزية. ونتائج البحث ثمانية، وجميعها بلا استثناء تقول: «إن الذين درسوا باللغة العربية أفضل تحصيلًا وفهمًا واستمتاعًا بالمادة. والمفلحون ممن درسوا بالإنجليزية (وهم أقل بكثير من المفلحين ممن درسوا بالعربية) أفلحوا لأن الأساتذة كانوا يغشّون ... ويشرحون الدرس بالعربية». (البحث منشور في كتاب **اللغة والتعليم** بتحرير قاسم شعبان، عام ٢٠٠٠، إصدار الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية).

الناس في نابلس هاجمون على المدرستين، والصفوف صارت ممتلئة. مبارك مرة أخرى. والغلط ليس في أهالي نابلس بل في النظام التربوي الحكومي. وافتتاح مدارس أجنبية ليس الحل، فوزارة التربية والتعليم عندنا مُطالبة بأن تكف عن إصدار تلك البيانات التي تفاخر فيها بنتائج المدارس الحكومية.. فما أسهل تلفيق الإحصاءات. أداء مدارسنا الحكومية رديء، وخير علاج له الصدق مع النفس.

هناك طريقتان للإصلاح ... الأولى تكلف مالًا كثيرًا. وهي مهمةٌ ولا بد منها، وتتمثل في رفع مستوى المعلمين ماديًّا، وتعريضهم لدورات حقيقية ولعملية توجيه فاعلة. والطريقة الثانية مجانية، وهي النظر في المناهج وأساليب التدريس. لا يكفي أن تتفضَّل وزارة التربية علينا بما صنعته من حذف لثلث منهاج اللغة العربية. فالثلثان الباقيان رديئان أيضًا، والحذف فيه رشوة فجَّة للطلبة.

عن اللغة

قصة ذبابتين

أسهرتني ليلة أمس ذبابةٌ. ذبابة سريعة ومجنونة. وأنا مثلك عزيزي القارئ، أنتظر وقوع الذبابة على زجاج النافذة ليسهل عليَّ اصطيادُها بضربة بالجريدة. لكن ذبابة أمس أعجزتني، ونمتُ مرهق الأعصاب منها. وأسهرني الليلة اسم مسلسل. لقد حضرت هذا المسلسل اللعين بحلقاته الأربع والأربعين، ولكن ماذا نسميه باللغة العربية؟ هذا مسلسل كوميدي إنجليزي، واسمه «كيبنغ أب أبيرانسيز»، والمعنى الحرفي: «الحفاظ على المظاهر». وكلمة المظاهر في قاموس أمي تعني القناع الاجتماعي الذي يرتديه الناس لكي يظهروا أغنى وآنق وأكثر تمدينًا مما هم. ولم أجد لكلمة (المظاهر) في الفصحى هذا المعنى. وعند أهل بلاد الشام ومصر تعبير أقوى هو «قُدَّام الناس». فنحن نتكلف ثوب عرس غاليًا حتى لو كان مستأجرًا، ونستعير للعروس بعض الأساور الإضافية.. «بَسّ قدام الناس». وصلت الفكرة؟ وخطر ببالي مصطلح قديم أكثر انطباقًا. بل هو يعبر عن اسم المسلسل بشكل بديع. وورد في قصة:

افتقر رجل في الزمن القديم، وبلغ به الفقر أن جاع عيالُه، ولكنه احتفظ بثوب أنيق غالٍ لكي يتجمَّل به ويرتاد أندية القوم. ارتدى ثوبه، وتطفل على مجلس أحد البرامكة. قُدِّم الطعامُ في آنية من فضة، فأكل الرجل ثم أخفى إناءه في ثيابه. وتكملة القصة أن أحد الخدم اكتشف أمره فرفعه إلى البرمكي، فعرف منه البرمكي قصته فأعطاه مالًا جزيلًا.

أها! «التجمُّل». هي الكلمة. نحن نتجمل ونظهر بغير مظهرنا ونخفي فقرنا. هي الكلمة التي تجمع ثلاث كلمات إنجليزية. لكن المعنى عتيق، وقد انصرفت كلمة التجمل إلى معنى آخر. خسرناها. عمومًا، لو أُريد لهذا المسلسل أن يترجم لما قامت بعنوانه كلمة أفضل من «التجمُّل».

اللغة تتغير، وتمَّحي المعاني عن الكلمات لتحل محلها معان جديدة. كانت (العلبة) الإناء الذي يحلبون فيه الناقة، فصارت أعمَّ من ذلك، وكانت الذرَّة النملة الصغيرة، فأخذت معنى علميًّا جديدًا. وكان القطارُ قافلةَ جمالٍ تسير في خط، فصار القطار ما صار. كان الناس قد بدأوا يسمونه «ترين» الإنجليزية، أو«تران» الفرنسية، ولكن المترجم القدير الذي يعرف لغته القديمة أدخل كلمة القطار بقوة فدرجت. وكان «الجميل» شحم الجمل، وكانوا يحبون الشحم ولا يأكلون اللحم إلا سمينًا، وكانوا يحبون المرأة السمينة لأن هذا دليل على الترف فسموها جميلة لما على جسمها من جميل أي شحم. ونقول اليوم «صبرًا جميلًا» أي صبرًا كصبر الجمل.

المجتمع العربي غني بالكلام الدقيق. كلمة «وحشتوني» في مصر، و«يصطفلوا» في الشام، و«أجرمن عنه» في فلسطين، ليس لها في الفصحى مرادفات. والكاتب الذي يلتزم الفصحى، كمحدِّثكم، يشعر في بعض الأحيان برغبة عارمة في أن يستعمل كثيرًا من العامية للتعبير عن مواقف دقيقة، ولكن رغبة أخرى تحول دون ذلك: هي الرغبة في أن أحدِّث الناس في أوسع رقعة ممكنة. فلا بد من الفصحى.

«وحشتوني» معناها أوحشني غيابكم. و«يصطفلوا» معناها ليفتَصِلوا وحدهم ولا شأن لنا بهم. فإذا قلت لأمك: «عمَّتي باعت قدور النحاس،

وزوجها حلف ألا يشتري لها قدور تيفال»، قالت لك أمك: «يصطفلوا». و«أجرمن عنه» معناها: أها، الآن عرفنا السبب! فإذا قلت لأمك: «عمي تزوج على زوجته»، قالت: «أجرمن عنه باع السيارة، وصار يصبغ شعره».

وأعود إلى ذبابة أمس التي أسهرتني، فإنني عندما قمت في الصباح وجدتها نائمة على المنضدة الواطئة التي يسميها الإنجليز منضدة الشاي ويسمونها في بلاد الشام تربيزة أو إسكملة وفي مصر طبلية. وقد أتيتها في نومها بالموت الزؤام، أي السريع، بجريدة عتيقة. وذكَّرتني صريعة الجريدة بذبابة أخرى كانت قد حبست نفسها في سيارة في يوم بارد.

كنا في السيارة خمسة أو ستة، والبرد شديد وقد أغلقنا النوافذ، وكان كل واحد منا يهشُّ على الذبابة ويهديها إلى جاره، ومضينا على هذه الحال ساعة، وبتقدير آخر سبعين كيلومترًا. ثم فُتحت الأبواب، وترجَّلت الذبابة أول من ترجَّل. وبدأتُ على الفور أفكر في مصير هذه المسكينة التي تغربت، ولست أظنها قادرة على أن تطير عائدة إلى موطنها حيث أبناؤها وجيرانها. وعزيت نفسي قائلًا: «لعلها توفق بسيارة أخرى تكون عائدة إلى الوطن».

قد قصدت في مطلع كلامي أن أتحدث عن الإنتاج الإعلامي المتطور، لكنني انحرفت إلى حديث الذباب، فإن كان بقي معي قارئ، فلن يسمع عن الإنتاج الإعلامي؛ لأن مزاجي قد انحرف.

سيسمع عن «التأثيل». وحنانَيك، فهذه كلمة حلوة! معناها الفحص عن أصول الكلمات. فمثلًا الورقة قد تكون بيضاء، أو بنِّية اللون. ولكن كلمة (ورق) معناها الأصلي أخضر. هناك إشارة خفيفة في لسان العرب إلى هذا المعنى. ولكننا نتأكد من أصل المعنى بالرجوع إلى السريانية

مثلًا فالأخضر في السريانية «يروقو»، وهو بالعبرية «يروق». وهذه اللغات الثلاث، العربية والسريانية والعبرية، نشأت معًا، ولا يدري أحد أيها سبق. ولكن العربية تطورت وألبست كلماتها معاني جديدة وظلت حية لم تمُت يومًا. فأما السريانية والعبرية فقد استراحتا قرونًا، ومن هنا حفظتا لنا المعاني الأصلية في كثير من الكلمات.

التأثيل علم ممتع. وسترى فيه الأعاجيب. لكنه علم عميق. ويقتضي من صاحبه أن يكون متواضعًا لا مكابرًا. و«الذبابة» بالمناسبة موجودة بلفظها في السريانية والعبرية.

وكنت قد «فسبكتُ» مؤخرًا بَسطًا وردت فيه كلمة عِزرائيل، و«عزر» بالعبرية معناها ساعد، وإيل عندهم لفظ الجلالة، فمعنى عزرائيل على هذا «مساعد الله». ولو فتحت لسان العرب لرأيت أن من معاني عزر بالعربية «ساعد»، ومثلها آزر.

وكلمة أخيرة لأصدقائي السريان: لغتكم جميلة، وصارت لغة عبادة، واللغة العربية شبعت حضارة وثراء، فاشكروا الله على أنكم تحمِلون لغتين: لغة مقدسة، ولغة حضارية.

وكلمة أخيرة لأعدائي الإسرائيليين: لغتكم جميلة ومقدسة، وقد أحييتموها لغرض غير نبيل هو اغتصاب أرضي. سأحب لغتكم، وسأظل لكم من الكارهين. ولجدعون ليفي الصحفي الإسرائيلي الذي رفض الصهيونية والعنصرية ودافع عن حق الفلسطينيين عشرات السنين كلمة: لو أن كل فلسطيني صنع لقضيته ما صنعت أنت لقضيتنا لكنا بألف خير. بورك فيك.

المدراء والتقيم

قبل أزيَدَ من خمس عشرة سنة دخلتُ في الإدارة، وكتبتُ عقبئذٍ لصاحبٍ لي رسالة قلت فيها: «إنني سقطت في الوحل». وما زلت أعالج من هذا الوحل كل نازلة وجائحة؛ على أنني أُصبت منه رزقًا طيبًا، جرى مجرى شوكولاطة سعاد حسني التي ساحت ثم راحت مطرح ما راحت. والمُدراء -الذين سأنتفي منهم عما قليل- كأخي الدَّين: همٌّ بالليل ومذلَّة بالنهار. لا مع سيدي الموظف بخير ولا مع ستي المدير الأعلى بخير. وليس أشد على المدير من التقييم السنوي.

وما كتبتُ لك هذه المقدمة إلا اصطيادًا لكلمتين: المُدراء، والتقييم، وهما في زعم أهل «قل ولا تقل» خطأ. وأنا أقول بصوابهما. لا بل إنني أقول بصواب كل شيء يدرج على ألسنة الناس. وعندما كان كل من شدا نزرًا من العربية يكتب بابًا بعنوان: «قل ولا تقل» كان لي باب في مجلة بعنوان: «قل ما تشاء».

ما قال القائل «مدراء»، وعدل عن «مديرين» المقيسة، إلا وفي غريزته اللغوية ما يدفعه دفعًا إلى اشتقاق هذه الكلمة. نعم، كلمة «مديرين» على القياس. ونحن لا نجمع المقيم على مقماء بل على مقيمين. ولكن مدراء تختلف، لا على مستوى الصرف، بل على مستوى آخر يهمله الصرفيون.

اللغة العربية تحب جمع التكسير حبًّا جمًّا: رأيتُ الناس في بعض بلاد العرب يجمعون السيارة على سياير، والإشارة الضوئية على أشاير،

والبنطلون على بناطيل. هذا الشغف بجمع التكسير موجود في العاميات وفي الفصحى القديمة والجديدة. وقد كنت أنا نفسي أخطّئ من يقول مدراء حتى هداني الله بالناقة. فالناقة تجمع على: نوق، وأنوُق، وأنؤق، وأوْنُق، وأيْنُق، وأيانق، وأنواق، ونياق، ونياقات. وليس في هذه الصيغ التي ذكرها اللسان جمع التصحيح: ناقات (واستدركها عليه التاج). كل قبيلة اخترعت جمعًا، واختاروا التكسير.

ويخطّئون من يقول (تقييم) بمعنى تحديد القيمة. ويريدونها تقويم. والواقع أن اللغة العربية الحديثة اخترعت كلمة تقييم اختراعًا لأن كلمة تقويم معناها تصحيح الاعوجاج، فكان جديرًا الخروج إلى صيغة صرفية أخرى إيذانًا بالخروج إلى معنى آخر. والناظرون إلى اليائي والواوي لا يرون الخشبة التي في عيونهم، عنيتُ آلاف الجموع الشاذة التي تزخر بها المعاجم.

يريدون تثبيت اللغة. واللغة أشطر منهم، وهي تتغير وستظل تتغير وأنوفهم في التراب. عمل اللغوي أن يصف اللغة التي يستعملها الناس، وأن يؤلف قاموسه مما يدور على ألسنتهم، لا أن يجبر ألسنتهم على التحدث بما ورد في قاموسه. في كل شأن من شؤون حياتنا هناك رجعيون وتقدميون. وفي شأن الفصحى عندنا رجعيون وحائرون، ولم أجد تقدميين.

رسالة إلى مدقق لغوي

صُنعُ جرَّة من تراب أسهل من صنعها من فخار مكسور. قد تكسرت قواعد النحو والصرف إلى غير رجعة، فلنعُد إلى تراب اللغة لنصنع نحوًا جديدًا، بدل أن ننفق جيلًا أو جيلين ونحن نعالج قطع الفخار.

بذل علماؤنا الأقدمون جهودًا كبيرةً في النحو. واليوم يلقنها المعلمون للطلبة بطرائق شبيهة بطرائق القدماء، ولكنهم يلوِّنون التمارين بالألوان، «إجرين عوج لابسين بابوج». ويخرج الطالب من المدرسة وقد نسي كل قواعد النحو.

أقول قولي هذا وقد كتبت في نحو اللغة العربية كتبًا ثلاثة جلوت فيها هذا العلم العتيق وصقلته ما استطعت. وثمة كتاب رابع في الطريق إلى النشر.

من الآن فصاعدًا سأحول جهودي إلى الهدم.

قد تطورت اللغة العربية كثيرًا وأصبحت أجمل وأوسع، وأكثر تعبيرًا عن مشاعرنا وعن معارفنا. باللغة العربية نكتب أجمل الروايات، وإليها نترجم كل ما نريد من أدب ومن علم. هي لغة تفيض بالحيوية. ولكن القيود التي يفرضها النحاة اليوم عليها تجعل الناس خائفين من التحدث بالفصحى، وينفتح الباب على مصراعيه للعامية.

أريد أن نُحَوِّل جهودنا إلى المفردات، إلى إغناء لغتنا بكل ما يجعلها أقدر على التعبير. وأريد أن نتخفف من النحو. ستتحول لغتنا العربية من

لغة مُعرِبة إلى لغة غير مُعرِبة. ولن يرزأها ذلك فتيلًا. فالركن الأساس في اللغة المفردات، والقدرة على التعبير. ولغتنا عفية وقوية.

بزوال الإعراب عن لغتنا سيكتب الكاتبون أفكارهم بلا قيود. وسيتحدث المتحدثون بالفصحى بانطلاق.

لي صديق يعمل مدققًا لغويًا، وله هوايتان: الأولى تصحيح أخطائي النحوية، والثانية أن يغير لي كلمة «بدون» واضعًا مكانها «من دون»، وسأرسل إليه رسالة هذا نصها:

أخي الكريم،

الشيخ غوغل ما ترك شيئًا إلا صنعه، ونحن ننتظر أن يصنع لنا حساء العدس في ليالي الشتاء. وقد فحص بعضهم في غوغل عن تعبير «بدون» في ثلاثمئة وسبعة وعشرين كتابًا تراثيًا، فوجد أنها وردت ألفين وخمسمئة وإحدى عشرة مرة. وإذا قلتَ لي إنه جاء في القرآن «من دون» فالمعنى في تلك الآية مختلف. وإذا أردتَ أن تخوض معي في معاني الباء ضمن درس معاني حروف الجر قلت لك: «انظر مليًا في الباء زائدةً تر وجهًا».

ولا تتعب نفسك في نقل التنوين من الألف إلى ما قبلها «قليلاً/ قليلًا»، فقد طبع عبد السلام هارون شيخ المحققين كتب الجاحظ وأشرف على كل همزة وكل تنوين فيها، وقد جعل تنوين النصب فوق الألف. فأما عن تصحيحك أخطائي النحوية، فلك مني عليه الشكر الجزيل. ويعلم الله أنني رجلٌ لحّانة لا أكاد أكتب شيئًا إلا وجدت أنا، أو وجدت أنت، فيه غلطة نحوية. والسلام.

ويل لكل هَمزة!

كان ينبغي أن أستسلم قبل عشر سنين. اليوم استسلمت. العارفون بي وبطريقتي في الكتابة بدأوا يحزرون طبيعة الاستسلام. وغير العارفين سيعرفون قريبًا.

قبل سنوات عقدت لزملائي في مؤسسة إعلامية تضم اهم وافهم الصحفيين العرب. موضوع الدورة «الهمزة». ليست الهمزة التي في وسط الكلام، وليست همزة شؤون وشئون ولؤلؤ ولآلئ. ابدًا. بل اسهل من ذلك بكثير. دورتي كان موضوعها الهمزة فوق الالف في اول الكلمة.

كنت أرى زملائي يغلطون فيها كثيرًا. فيكتبون مثلا «إستقلال» بهمزة وحقُّها ألا تُهمز، و«انابيب» بلا همزة، وحقُّها أن تُهمز. وهناك طبعًا إنَّ وأنَّ وأن. عقدت لهم دورة للهمزة الأولى فوق الالف فقط. وانطلق الزملاء بعد الدورة فرحين.. واستمروا في ارتكاب الاخطاء التي ظلوا يرتكبونها منذ الازل. ثم كأنني ادركت ان الهمزة الافتتاحية تلك غير ضرورية.

لقد اسقطنا التشكيل في الجرائد من زمان، فلماذا لا نُسقط الهمزة الافتتاحية.

اليوم استسلم. وكما ترى فانني اسقط الهمزات من كتابتي. وبعض الهمزات التي ستراها في مقالي سببها أن برنامج مايكروسوفت اوفيس

يتكـرم أحيانـا فيضع همزة حتى لو لم اضعها انـا، كما في كلمة أحيانًا فانا اكتبها بلا همزة ولكن بيل غيتس يتسلل الى السطر ويضعها دون ان اشعر.

التسهيل الاملائي يجلب معه تغييرات في الأسلوب. فاسقاط التشكيل يجبرنا على تجنب المبني للمجهول كثيرا، فترانا نقول: «تم السماح» بدل القول «سُـمِحَ»؛ لان سـمح بدون ضمة على السـين تقـرأ بوجهين. وقس علـى ذلـك أمورًا كثيـرة. لقد تغير اسـلوبنا في الكتابة بشـكل اكثر مما قد يتوقعـه المـرء بسـبب اهمـال التشـكيل، ويتغير اسـلوبنا بقدر ما باسـقاط الهمـزات الافتتاحيـة، فمثـلا عندمـا أقـول لـك «افتتـح الشـهر المقبـل سـوبرماركتا» قد تظن انني آمرك بافتتاحه. لذا فأنا أكتب «انا افتتح الشـهر المقبل سـوبرماركتا» فكلمة انا وضحت الامر. من شأن كل تبسيط لرسم الكلمات ان يؤثر في الأسلوب.. ويجعله ممطوطا بعض الشيء.

شجعني على الاستسلام أربعة أشياء: أولًا، ان اللبنانيين ركِبوا رأسهم وصاروا يضعون همزات افتتاحية كلما وجدوا ان القارئ سينطقها، وثانيًا، ان المصريين، في كتب قديمة نشرت في النصف الأول من القرن العشرين وصحَّحهـا مؤلفوها الكبار، كانوا يسـقطون همـزات «إن وأن ولأن» حينًا ويضعونها حينًا. يصنع ذلك عامل المطبعة ولا يؤاخذه المؤلف. ثالثًا، ان اسـقاط الهمزة يريح الطابع على الحاسـوب كثيرا. رغـم ان واحدًا مثلي، كتـب وحـرر بضعـة آلاف مـن الصفحـات وكانـت همزاتـه فـي كل ذلك صحيحـة، سـيجد صعوبة فـي اسـقاط الهمزة. رابعًـا، تلـك التجربة التي خضتها مع زملائي. فكأنهم بعدم تجاوبهم مع ضبط الهمزة –رغم إقبالهم على الدورة المذكورة واحتفالهم بها، وتقديمهم الوعود بانهم سيلتزمون

بوضع الهمزات في أماكنها- كأنهم قالوا: «ما اصعب الالتزام بشيء فائدته قليلة».

طريقة رسم الكلمات تؤثر في كتابتنا، والتأثير يمتد الى كلامنا المنطوق ارتجالا. فنحن نتعود ان نكتب «جرى افتتاح» بدل «افتُتح»، ثم ترانا في كلامنا نقول «جرى افتتاح». اللغة المنطوقة، وهي الأصل بلا شك، تتغير بتغير رسمنا لها بعض التغير. لم لا.

لقد غير الناس الرسم القرآني للكلمات منذ القدم، ومرجعي أبو بكر الصولي، المتوفى قبل أكثر من ألف ومئة سنة، فقد ذكر الامر رافعًا القداسة عن التمثيل الخطّي للنص.

بَذل جهد منظم مفروض من فوق في محاولة لاصلاح رسم الكلمات عبث. لكن، على كل معجم وكل مؤلف ان يتخذ لنفسه طريقة يجعلها منهجًا يلتزم به، ولننظر ما ستأتي به الايام.

تنبيه: في هذا المقال أسقطت الهمزات، إلا ما سبقت يدي وعيي إليه. وستجد في هذا الكتاب الذي أقوم على تحريره الآن مقالًا طويلًا تعمدت فيه دس أغلاط نحوية بالمئات، وسوى ذلك، فمواد هذا الكتاب مكتوبة بالفصحى المألوفة.

الكراكيب

موقفنا ذليل تجاه الأشقر. سأعالجه بهدوء قدر استطاعتي، فالرصانة ليست من بضاعتي.

كان العربُ في أيام بني أمية، في الزمن الذي كان فيه يَحُدُّهم من الشرق الصينُ ومن الغرب فرنسا، يتغزَّلون بالعيون السود، ويرون العيون الزرق قبيحةً. وهذا أبلغُ تعبيرٍ عن نسبية الجمال. وعن أن القويَّ يفرض معاييره.

عندما كتب الطبريُّ **تاريخَه**، كان أفضل كتاب تاريخ في الدنيا. وعندما وضع الخليل **مُعجمه** كان أكبر إنجاز لغوي في الكرة الأرضية.

كان كل فرد في أوروبا أجهل من كل فرد في العالم العربي- الإسلامي.

والآن صار كل فرد أوروبي أفضل علمًا وتحضرًا من كل فرد عربي.

الفرد الأوروبي اليوم يحمل في وجدانه موقفًا من الأشياء يؤهله ببساطة لأن يصنع الحضارة، وأن يخلق الثروة. وآية ذلك أن ألمانيا تهدَّمت تمامًا في الحرب العالمية الثانية، ولكنها بعد عشر سنوات قامت من الغبار لتصبح «أسطورة اقتصادية». فمن أين أتاها هذا العزم؟ ذلك شيء صار كأنه في جينات الإنسان الأوروبي.

نريد اليوم انتشال أنفسنا من الحمأ المسنون، دون خسران وجداننا العربي-الإسلامي. ونحن على حقٍّ في هذه وتلك معًا.

ستظل العيون الزرق في نظرنا أجمل من السود إلى أن نخلق حضارة جديدة.

لست مع فكرة تنشيط حضارتنا القديمة. الأمر ليس كذلك. نحن مثل ذلك الدكان العتيق المليء بالكراكيب الذي مات صاحبه، وأراد ابنه أن يُحَوِّلَه إلى سوبرماركت رابح. فهل يتمسك بكل كراكيب أبيه؟

يكفيه أن يكبّر صورة المرحوم بطربوشه وقمبازه ويضعها في برواز لتعطي انطباعًا بالعراقة. ويكفيه أن يحتفظ بمفاهيم والده الأساسية مثل الأمانة والصدق في المواعيد والاستقامة. وبعد ذلك، فإلى المحرقة بكل الكراكيب.

مفاهيمنا الأساسية شبيهةٌ جدًّا بمفاهيم أبي طربوش «الأمانة والاستقامة ... إلخ»، وإلى المحرقة بكل الخرافات.

وفي الواقع: نحن متمسكون بالتفاصيل فقط، بالكراكيب.

يتندَّر الأجانب بعبارة «إن شاء الله». ويرددونها مع ابتسامة خفيفة. يعرفون أن العربي إذا أراد أن يهمل شيئًا فإنه يلقيه على مشيئة الله.

العربي المعاصر تكفيري ومنافق وكذاب، ومتمسِّك بالخزعبلات، وليس مستقيمًا. إنه أقل الناس صدقًا. والنهضة بحاجة إلى أخلاق أولًا وعلم ثانيًا. وليس عندنا من ذينك شروى نقير.

التراث السياسي الفلسطيني مليءٌ بالكذب وخداع الشعب. والتدين المنتشر في فلسطين ليس صحوة إسلامية ولا سخام الطين، بل استغراق في التعبد لتجنب رؤية الوضع المتجهم. في طبعتنا العلمانية نحن كذابون، وفي طبعتنا المتأسلمة كذابون.

عندما أجد شيئًا إيجابيًّا سأحدِّثكم عنه، «إن شاء الله».

الإرعاب النحوي

هم هناك. إرعابيون، ليس عندهم أدنى ميل للتفاهم. الأبيض عندهم أبيض، والأسود أسود. يجوسون خلال محطات الإذاعة والتلفزيون، والصحف، ويعشّشون في المدارس والجامعات. عرفوا من النحو والصرف أشياء محدودة وثبتوا عليها. وكل من خالفها فهو أولًا جاهل، وثانيًا فاسق يريد هدم الدين، وثالثًا ناقص؛ لأن من يخطئ في النحو والصرف ليس مكتمل الإنسانية، ورابعًا «ليبرالي جديد»، وربما من أعداء الأمة.

مشكلة هؤلاء النفر أنهم قليلو العلم، تافهون، قشريون، و... إرعابيون، أي يستخدمون الرعب وسيلة في المحاجة. ومشكلة الشاب اليافع معهم أنه لا يجد بدًّا من الاستكانة. فمن هو حتى يقف في وجه ألفية ابن مالك؟

ولو عرف القارئ أنني أحد الإرعابيين النحويين لضحك ملء شدقيه، أو لتحيَّر في أمره. وربما شجعه ذلك على متابعة القراءة.

لقد علَّمتُ النحو والصرف، واشتغلت في الصحف والإذاعات والتلفزيونات طويلًا، وكتبتُ في النحو والصرف كثيرًا، لكن نشاطي الإِرعابي كان مُسيَّجًا بالتروِّي، ومحكومًا بمساءلة النفس.

الدقة اللغوية مهمة، والنحوية أيضًا اليوم. إذا وقعتَ على غلطة في النحو عند كاتب تسلل إلى نفسك الشكُّ في دقة معلوماته. وإذا تنطَّح كاتب لكلمة عتيقة فوضعها في غير موضعها واكتشفتَ ذلك زويت ما بين

حاجبيك وأسقطته من عينك دَرَكَةً. وإذا سمعت المراسل الصحفي يغلط في النحو شككتَ -قليلًا أو كثيرًا- في دقته وفي ثقافته وفي الأخبار التي ينقلها. اللغة الصحيحة تزيد النص أناقةً، وترفع صدقيته. لكن الصحة اللغوية والنحوية عنصر واحد صغير. فكم نص صحيح فصيح رميتَه من يدك لأنه تافه!

نحن ندعو دعوة صريحة إلى تبسيط النحو، وإلى تخليصه من شوائب الدهور. وندعو إلى الإقرار بأن الكلام العربي مفهوم بتركيب الجملة وليس بضبط أواخر الكلمات. والبرهان هذا الذي تقرأ، فأنت تفهمه غير محتاج إلى الفتحة والضمة. ونطالب المشتغلين باللغة بأن يفهموا أن هذا المخلوق الذي اسمه «اللغة» يتغير مع الزمن، وأنه سيصبح مخلوقًا آخر بعد بضعة قرون، تمامًا كما تختلف لغتنا الحاضرة عن لغة الجاحظ. والنحو يتغير أيضًا: أين فاء السببية في كتابتنا المعاصرة، وأين أسلوب الشرط الجازم، وأين بعض أساليب التعجب (أترى صحفيًا أو روائيًا اليوم يقول: أعظِم بهذا الحدث!)؟

قد يأتي يوم يسقط فيه الإعراب سقوطًا، فيكتب الكاتب: «اصطف (اللاعبين) قبل المباراة»، ولا يجد من يرفع حاجبًا. وهي -بعدُ- عبارة مفهومة.

على أننا لم نصل إلى هذا. وجدير بالمرء أن يحفظ على لغته أناقتها وصحتها بحسب المعمول به. خير لمثقفينا أن يسايروا اللغة في تطورها لا أن يحاولوا نسف النحو، ويخوضوا في متاهة التحطيم. فمثلما ترفض اللغة الثبات على طريقة الجامدين، ترفض أن تتغير بأصابع الديناميت.

الترفق عنوان الثقة. وقد مرت بنا الدعواتُ إلى الحرف اللاتيني، وإلى العامية. فهل صنع أصحابُها شيئًا سوى إثارة زوابع غير مثمرة؟ ذلك أن دعواتهم كانت متسرعة وقائمة على كثير من سوء الفهم والافتراضات الفجة.

فتحوا ذات يوم جريدة جديدة، وزرتُ صديقًا لي فيها فطاف بي في مكاتبها، قال: هذا قسم التدقيق اللغوي، وأردف مفتخرًا: «عندنا خمسة عشر مدققًا لغويًّا». قلتُ في نفسي: «كيف يمكن لصحيفة في بلد صغير أن يكون فيها ثلاثة صحفيين يغطون الشأن المحلي، وصحفيان للثقافة، وخمسة عشر إرعابيًّا؟ لا بُدَّ أن مستواها في الأرض». هو ذاك. هي تحترم النحو والصرف إلى حدِّ التقديس، وبالطبع على حساب المضمون.

فهل العرب كسالى؟ هل أهملنا تعلم قواعد لغتنا؟ أم لعلنا لا نملك من الذكاء ما يملكه صحفيو الغارديان التي سنحت لي زيارتها ولم أجد فيها مدققين لغويين، بل وجدت محررين وصحفيين؟ الواقع فيما أرى غير ذلك.

لقد قضينا مئة عام نلوم أنفسنا. وآن أن نلوم اللغة نفسها، وأن نتعقب المتشددين بالتقريع، وبالتأكيد على أهمية المعاصَرة، وعلى أن سُنَّة التغيير تسري على اللغة مثلما تسري على كل شيء.

لا بد للمجتمعات العربية من اطِّراح ثقافة الخوف. ولا بد من تعليمٍ يتيح للطلبة نصوصًا جديدة، ويُدَرِّبهم على قواعد النحو والصرف بأبسط الأشكال. ولا بد أن نعترف بأن كثيرًا من الضوابط ماتت في السلائق، ولم تعد مهمةً لفهم المعنى.

فأما تجميد اللغة لخدمة الدين، بدعوى ألا تصبح لغةُ القرآن الكريم والحديث الشريف لغةً مختلفةً عما نتكلم اليوم، فهذا شيء لم نستطعه حتى في العصور الإسلامية الباكرة. الواقف في وجه السيل إما أن ينجرف، وإما أن يبلل ملابسه، حدًّا أدنى. وقد تعهَّد ربُّ الكون الجليل بأن يحفظ كتابه، وصدق الله وعده. وآن لنا أن نصدقه، وألا نحاول مدَّ يدِ المساعدة بطريقتنا التجميدية.

فهل نحن من دعاة العامية؟ لا، بل نحن من أشد أنصار الفصحى. ولهذا بالضبط نريد تبسيطها وتيسيرها. نريدها أن تبقى أداة ثقافية لأربعمئة مليون ناطق بالعربية. ونريد أن ينتفع هؤلاء جميعًا بكتاب يصدر في مصر أو في المغرب أو في العراق، ونريدهم أن يتفاعلوا كأمة كبيرة، لا أن يسعى فيما بينهم التراجمة كما يسعون فيما بين وفود الاتحاد الأوروبي في كل مؤتمر.

أعود إلى الإرعاب النحوي. من أهم العناصر في تكوين الإرعابي النحوي قلةُ معرفته وضعفُ قياسه. هو جامد كالصخرة التي تسدُّ باب الكهف. هو من أهل الكهف. صحا على عالم قد تغير فأصر على استعمال عملته العتيقة. هو شخص طيب، يريد الحفاظ على لغتنا الجميلة، ويحن إلى الماضي لأنه لا يريد التفكير في المستقبل. ولو اتسع علمُه ليشمل لغة أخرى، وليشمل -قبل ذلك- تاريخ تطور العربية نفسها لأعفانا من كثير من هذره.

خير ما نصنعه أن نقرأ كثيرًا، وأن نكتب كثيرًا، وأن نستعمل لغتنا كثيرًا. هذا يحييها ويجعلها غنية بالمفردات.

خزانة مليئة بالجثث

أنظـر بفرح إلى قلـم الحبر الجاف الذي اسـتهلكتُه حتى النهاية وهبط الحبـر فـي داخل أنبوبتـه حتى القاع، وأرميه في سـلة المهمـلات وأنا في منتهى السعادة. كيف لا، وهو القلم الذي انتفعت بكل ما فيه بعد مئة قلم سـبقته ضاعـت كلهـا مني وهي في مقتبل شـبابها. ما أكثـر التبذير في هذا العالم!

وأمسـك قلمّـا جديـدًا وأبتهل قبـل أن أكتب به ابتهـالًا: «رب ضع كل العراقيـل الممكنـة فـي طريق هذا القلـم إن خطر بباله أن يكتب شـيئًا عن اللغة والنحو والصرف».

قد أفنيتُ من العمر سنوات كثيرة وأنا أفرغ غيظي من تعقيدات مفتعلة فـي لغتنا العربية بنشـر كتب في النحو والصـرف. وقد آن لهذا الفارس أن يترجَّـل. آن لهـذا القلـم أن ينصـرف تمامًـا عـن الكتابة «عـن» اللغة، وأن يكتب كل شـيء آخر مسـتعملًا هذه اللغة، اللغة العربية، التي أحبها مثلما أحب أمي وأبي.

لكن دعائي لم يُستَجَب.

بـدأت مصيبتُنَـا بالخليـل بـن أحـد الفراهيـدي. فهذا رجـل رياضي. كتـب معجمه المشـهور **العين** بحسـب معادلة رياضيـة؛ إذ رصد تقاليب الحـروف فنفـى منهـا المهمـل وأخـذ المسـتعمل. كان يعيـش في عصر رياضـي، ففـي زمنـه (وزمن تلميـذه سـيبويه) قاس العـرب محيط الكرة

الأرضيـة. وفي ذلك الزمن أعطى العرب العالـم اللوغاريتمات (الكلمة مشتقة من اسـم الخوارزمي)، وأعطوه المادة التي درستها في مدرستك الأجنبيـة باسـم «ألجيبـرا»، وقـد اخترعهـا الرجل نفسـه في كتابـه **الجبر والمقابلـة**. وأسـتطرد هنـا فأقول لك: «إن أسـاريري نطقت بالبِشـر وأنا أقرأ كتاب بول بارسونز **مئة فتح علمي** ... فقبل أن يحدثني بارسونز عن غاليليـو وكوبرنيكـس قـرر أن العـرب فـي عصـر الخوارزمـي وضعـوا الأسـاس الأول للتفكيـر العلمـي الصحيـح» (انتبه: لـم يقـل الإغريق بل قـال العـرب)، وأزيـدك أن بارسـونز قال ذلك عـن العرب فـي الصفحة الأولى من كتابه.

كانـت تجتـاح تلـك «البغـداد» حمَّـى الرياضيـات، ترجمـت إقليدس واسـتوعبت علوم اليونان، ومضت تضع كل شـيء في قالب الرياضيات. وجـاء أهـل النحو والصرف فجذبوا اللغة العربية من قرنيها جذبة ألحقتها بالأرض. قالوا لها: «ومن أنت حتى لا تقعدي في قالب رياضي؟ ألست لغة مُحكمةً مقدسةً؟ ألست مضبوطة؟ فانضبطي. اقعدي هنا ولا تتحركي. هيـا قولـي وراءنا (أنـتِ اعمَيَيـتِ، تَعمَيِيـنَ، اعمَيِي)» فقالـت: «هذا ليس منِّي». فقالوا: «يا بلهاء، هذا تصريف افعلَّ من الفعل الناقص المعتل اللام بالياء». فقالت العربية: «برئتُ من هذا». وظلوا يضربونها بالعصا. وظلوا يقولون افعوعل وافعنلل حتى صاح الديك.

بكل بسـاطة وضع أهل الصرف ثلاثة أحرف: فاء، عين، لام تجمعهن كلمة (فعل). وقالوا للعربية: «اقعدي هنا». وكلما جاءتهم كلمة لا تقعد، أقعدوهـا بالقـوة. كان إنجـازًا رياضيًـا بارعًا. ولكن اللغة أوسـع من ذلك وأجنُّ من ذلك.

علـم الصـرف العربي ليـس بحاجة إلى إصلاح، هو علـم مكتمل. هو كعلـم الخيميـاء، مكتمل وفاسـد بالجملة. وإكرام الميـت دفنه. فلماذا لـم يدفن في الألف ومائتي سنة التي مضت؟ ربما لأن خزانتنا المعرفية عامرة بالجثث فلا نعرف من أين نبدأ.

ولأن دعائي لـم يُستجب، فإنني سـأتناول جثـة أخرى. لـي بها صلة أحسـن مما لي بعلم الصرف. فقد كنتُ في زمن بائد بثثتُ في إذاعة لندن أيـام كنـت أعمل بها نحوًا مـن ثلاثين حديثًا في علم العَـروض، بقي منها عشـرون حديثًـا تفضَّـل بعضهـم فرفعهـا علـى اليوتيـوب. وقـد تعلمـت العَـروض مـن ثلثـي صفحة. فتحـتُ معجمًـا كان رائجًـا في زمننا اسـمه المنجـد علـى حرف الشـين فـإذا صفحة قد خُصِّـص ثلثاها فقـط لأوزان الشـعر. فمـن هنـاك عرفـت الموازيـن وتوكلت علـى الله. كنـت في نحو الخامسة عشرة. ولـم أحتج بعد ذلك إلى شيء في علم العَروض، واتَّزنت لي الأشـعار. وكان إلياس فرحات الشـاعر المهجَّر أبرع مني، فلم يعرف عن العَروض شيئًا قطُّ، ومات على ذلك مخلِّفًا ديوانًا كبيرًا موزونًا أحسن وزن.

فـإذا عرفـتَ بعـد ذلك أن علم العَروض لا يتسـع له مجلد من سـتمئة صفحة فقد عرفت ما أعنيه بكلمة «جثة». والمجرم مرة أخرى الخليل بن أحمـد. لقد رسـم هـذا العالم الجليـل والرياضـي الفذُّ للعَـروض دوائر، وحشـر العَروض في معـادلات رياضية. وكلمة إنصاف لشـيخنا الجليل، أحـد كبـار العقـول فـي الثقافـة العربيـة: لقـد اسـتنبط الخليل هـذا العلم اسـتنباطًا، وقنَّن الأوزان تقنينًا جميلًا، لسـتُ أشـكُّ فـي ذلك طرفة عين. لكنـه قنَّـن كثيـرًا، وابتـدع بدعـة الدوائـر العَروضيـة التي فيهـا المهمـل

والمستعمل، بالضبط كما فعل في كلمات اللغة في كتاب العين. هذا رجل يحب الابتداع ولا يسلّم بما هو موجود. قد رأى الأبجدية العتيقة (العربية والعبرية والآرامية) تسير على خطى (أبجد هوز حطي كلمن) فقال: لا والله، هذا لا يكون. لا بد من أساس علمي. فرتب الأحرف بحسب صدورها من عمق الحلق حتى أطراف الشفتين بادئًا بحرف العين. كان الخليل هكذا، يريد لكل شيء أساسًا علميًا.

وجاء الجاحظ فاشتكى شكوى مُرَّة من علم العَروض وتعقيداته.

مشكلتنا مع اللغة العربية أننا نقدسها. السنسكريتية مقدسة، فأين هي الآن؟ لغة بائدة. ولو فتحت فيسبوك وقرأت للمغاربة وللمصريين وللشوام وللخليجيين، فقد يقع في روعك أن اللغة العربية ستصبح قريبًا ثلاث لغات. ولو فتحت ما على الرفّ من روايات فسوف تجد أن أسطر الحوار بدأت تميل إلى العامية ميلًا شديدًا، وأن كلمات عامية كثيرة أخذت مكانها في السرد نفسه. هذا تطور تاريخي لا يدَ لنا فيه. ولم يستطع مجمع لغوي في الدنيا أن يصنع لغة. الفصحى ستكون أجمل وأقدر على الاستمرار إذا حررناها من القوالب الرياضية.

الحرف العربي والانتقام من الماضي

أراد مصطفى كمال أتاتورك أن يطور التعليم في تركيا، فاستضاف التربوي الأمريكي جون ديوي ثلاثة أشهر في عام ١٩٢٤. قيل: إن ديوي هو الذي أشار عليه باطِّراح الأبجدية العربية لأنها صعبة التعلم، ولكنني من قراءة بعض ما كتبه ديوي من ملاحظات ذكية وعميقة أشك في أنه أسدى تلك النصيحة. وأعتقد أن أتاتورك ألغى الحرف العربي (وبعد أربع سنوات من مغادرة ديوي) لتعميق القطيعة مع الماضي، ولجعل التراث العثماني المكتوب مغلقًا أمام الجيل الجديد. هي خطوة ذكية من أتاتورك، ولكنها غير حضارية. فالغرض هنا سياسي وثوري -بمعنى تحطيم التمسك بالماضي- وليس تسهيل الكتابة، ولا تعليم الصغار اللغة التركية بسهولة.

ديوي كان يعرف ولا شك أن مواطنه الأمريكي بنجامين فرانكلين كان يريد تغيير الإملاء الإنجليزي؛ لأن هذا الإملاء غبي. ولعله أيضًا سمع بأن الأيرلندي برنارد شو كان مشمئزًا من الإملاء الإنجليزي ويسعى لنسفه نسفًا. وكلا الرجلين وضع مقترحات عملية في هذا الصدد، ولكن أهل الإنجليزية على جانبي الأطلسي تمسكوا بإملائهم؛ لأنهم لا يريدون القطيعة مع الماضي، أو كسلًا.

إملاؤنا العربي سهل جدًّا بالمقارنة مع الإنجليزي. هو ليس في سهولة الإملاء الألماني. فأولئك القوم، على صعوبة قواعد لغتهم، مستمتعون

بإمـلاء سـلس يتقنـه الأجنبي بسـرعة. ويمكـن لإملائنا العربـي أن يصبح أسـهل لـو بذلنا جهدًا فـي إصلاح كتابة الهمـزة. وأما الحجـة القوية التي يسـوقها القائلـون باصطنـاع الحـرف اللاتينـي فهـي أنه ييسـر بيـان اللفظ بالحـروف دون الاضطرار إلى التشـكيل. وهذه مسـألة فيها نظر. فالكلام العربي فيه اختلاج شـديد في الحروف الصوائت. ومنذ الجاهلية كان في العـرب من يكسـر أول المضارع ومـن يفتحه، وقد قـرئ القرآن بلهجات عـدة. وكانـت قريـش تسـهِّل وتميـم تهمـز. والعربيـة الحاضرة، وأشـهر القراءات القرآنية أيضًا، تتبع همز تميم لا تسهيل قريش. هذا موجود كثيرًا في الفصحى وموجود في العامية أكثر. هذه طبيعة لغتنا. ونحن نحبها كما هي، ونرفض حذلقات جماعة «قل ولا تقل» وسماجتهم.

العبـري يكتب بحروفـه، والكوري بحروفه، واليابانـي بالحروف التي ورثها عن أجداده. ونحن نكتب بحروفنا، ونريد أن نكون متحضرين على طريقـة الأمريـكان والإنجليـز الذين حافظـوا على الماضـي، وليس على طريقة أتاتورك الذي أراد الانتقام من الماضي.

النحو: اتركوه ولا تصلحوه

قالوا: تيسير، وقالوا: تسهيل، وقالوا: بل الضبط المطلق. وبعضهم قال: العامية، وبعضهم قال: لا يهمني الأمر كله. ونقول: لنا في هذا كله كلام. وكلامنا سيكون مزعجًا لمعظم الفئات المذكورة أعلاه.

فهل كان العرب في العصر الأموي ينطقون بالتشكيل في أواخر الكلمات: قليل منهم، ربما في بعض البوادي. في بداية العصر الأموي: كان عبد الملك بن مروان يجهد نفسه في اجتناب اللحن. وكان ينجح لأنه لزم القرآن والعلوم الدينية مدةً في شبابه الباكر، ولم يغلق المصحف إلا عندما أتته الخلافة. وابنه الوليد كان لحّانة يخطئ في التشكيل. فكيف والوليد من الأسرة الأموية القرشية، وكيف وهو مولود بعد وفاة النبي بأربعين سنة فقط؟

لا نريد أن نقتبس بضع عشرات من الأمثلة من العصر العباسي كما تفعل الكتب التقليدية. نريد أن نطمئن إلى أمور، ونمضي. فقط نذكر لك من الحقبة العباسية أن علماء البصرة والكوفة كليهما كانوا يحتكمون إلى بعض الأعراب في الصغيرة والكبيرة من المسائل. واضطروا حتى في تلك الفترة الباكرة جدًّا من حياة «علم» النحو إلى أن يختلفوا اختلافات ذريعة. واضطروا إلى أن يصنعوا هيكلًا ضخمًا من القواعد المتشابكة، مستعصيًا كل الاستعصاء على الفهم، لكي يحتووا الجوازات المختلفة. وجاء أول كتاب حقيقي في النحو، وهو كتاب سيبويه المسمى **الكتاب**، بالغ التعقيد؛ لأنه أراد أن يفسر أساليب كثيرة ينقض أحدها الآخر.

ربما كانت اللغة العربية مُعرَبةً على ألسنة كثيرين من عرب الجاهلية. لكن الإعراب اضمحل. (ونقصد بالإعراب تشكيل أواخر الكلمات بالضمة والفتحة والكسرة أو تغييرها بالياء والواو وما إليهما). ونعم، لم يضمحل الإعراب من اللغة الألمانية: ترى الطفل الألماني اليوم يُعرب كلامه، ويتعلم الكلام مُعرَبًا من الطفولة. لغتهم الألمانية استقر لها إعراب سلس، وليس فيه تعقيدات إعراب العربية كما ورثناها من سيبويه، فظل موجودًا. عاش إعرابهم ومات إعرابنا على الألسنة. فماذا تريدني أن أصنع لك؟ تريدني أن أعود إلى عصر سيبويه وأُعرب إعرابًا صحيحًا؟ هأنذا أفعل في كتابتي، وكان مارون عبود شيخ شيوخ النقد يفعل ذلك في كتابته. ولكنه كان يتكلم في غرفة الدرس وخارجها بالعامية، وكذا كنت أفعل عندما كنت ألقي دروسًا في النحو على طلبة الإعلام في الجامعة. كنت أتكلم العامية هربًا من الافتعال والتصنع وثقل الدم. وكنت أقول لطلبتي: «أنتم مضطرون للفصحى المنضبطة نحويًا في عملكم الصحفي المقبل، أعانكم الله».

وقرأنا لأهل التيسير النحوي كتبَهم. وحاولنا أن نساهم في هذا التيسير رأفة بطلبتنا لا إيمانًا بأن هذا هو الطريق المناسب للمئة سنة المقبلة. جمعت ما يلزمنا من النحو في كتيب بحجم جواز السفر (مساحة وسُمكًا)، وجاء على صغره مختلفًا عن الكافية والألفية اختلافًا حقيقيًا، فهو يصف العربية المعاصرة، وهو أيضًا يستشهد بنحو سبعمئة مثال من الجمل التي تسمعها في الراديو أو تقرأُها في الجريدة. وأنا فخور بهذا الكتيب، واسمه موجز النحو. لكنه ليس المنارة إلى مستقبل النحو العربي. هو مصباح ينير للصحفيين مواضع أقدامهم لمرحلة معينة.

مات الإعراب على الألسنة قديمًا، وتمسكنا به لأننا دخلنا في ثلاجة الموتى ألف سنة. وعندما صحَونا في أواسط القرن التاسع عشر اتخذنا طريق التقليد. أردنا أن نعيد عقارب الساعة إلى الوراء، إلى الوراء بما يكفي لكي نعيش عصر المجد والقوة، وعصر الأدب الجميل والقوي: أدب الجاهليين الفطري وأدب الأمويين الذي يفيض حيوية بما فيه من استحضار للقيم الجاهلية وللمفردات القبلية التي بدأت تنقرض سريعًا بفعل الحياة العربية الجديدة. المثلث الأموي: الفرزدق وجرير والأخطل، كان مثل مثلث لعبة البلياردو الخشبي، يحضن كل الكرات داخله. وقد حضن هؤلاء الثلاثة المفردات القديمة، وأثاروا زوبعة نقدية ولغوية، واتخذهم النحويون واللغويون أساسًا ومنبعًا لاستقاء الأمثلة، أصبحوا عمود ما يسمى عصر الاحتجاج، وكان معهم شعراء بدو آخرون كذي الرمَّة والعجاج ورؤبة وشعراء من الحضر كعمر بن أبي ربيعة وعبيد الله ابن قيس الرقيات. وجاء الكميت والطرمَّاح متأخرين قليلًا وكانا متهمين في طريقة استخدامهما للمفردات البدوية.

بعد وفاة المعري (٤٤٩ هـ) دخلنا في الغيبوبة الأدبية، لكن استمر التمسك بالنحو كما تركه النحاة القدامى. وأغرقَنا الدارسون بالشروح. لكن الناس ظلوا فاقدين للإعراب.

والآن مضى قرن على العصر الذهبي، عصر أحمد شوقي ومطران وحافظ، والبارودي قبلهم.

تم إحياء الأدب إحياء رجوعيًّا وساير شوقي عصره وجاء شعره سياسيًّا ووطنيًّا وإسلاميًّا وفرعونيًّا، وكان ذا شخصية بارزة في شعره،

وتغزل بخفة ظل، ووصف الخمر وصفًا مبتكرًا. كل ذلك في قوالب القدماء النحوية واللغوية والشعرية.

وعاشت صحافتنا في عصر الإحياء عيشة أدبية. كانت -على الطريقة الفرنسية، ربما- صحافة أدب وخبر. ومات الأدب فيها بالتدريج، وذهب إلى المجلات. والآن صارت صحافتنا كلها صحافة أخبار. وماتت المجلات.

وظل الإعراب موجودًا. حافظت عليه بعض المنابر الإعلامية بشدة: ومنها مثلًا محطة البي بي سي العربية (منذ ١٩٣٨). كان العاملون فيها يترجمون الأخبار كلمة كلمة عن الإنجليزية، وكانوا بعد ذلك يغردون في برامجهم بالفصحى الأدبية. ولم تستطع الإذاعات العربية الرسمية مجاراة البي بي سي دائمًا. وحتى البي بي سي فعندما بدأت تركز على استقاء الأخبار من مصادرها العربية بدأت تفقد ضبطها النحوي. بدأت توظف الصحفيين لا المترجمين. وقد عملتُ في راديو البي بي سي. وها أنا أكتب إليك بلغة فيها تقعر في الأسلوب لا يخفى عليك، أراني مُوَزَّع النظرات بين سيبويه العتيق الذي في داخلي يُملي عليَّ أن أجاري الأساليب القديمة، وبين مقتضيات التعبير السلس البسيط. أتباهى باصطناع اللغة العتيقة، وأفيء إلى العقل فأكتب بأسلوب سهل، هو في الواقع سهل عليَّ أيضًا، ولستُ أستعمل الأساليب القديمة إلا بقدر من التكلف يزيد وينقص.

في السنوات العشر التي قضيتها في لندن بدأ يتوافد علينا الموظفون الصحفيون. وحتى أنا أصبحت صحفيًّا وكانت لي لقاءات إذاعية صحفية كثيرة.

العمل الصحفي يجعل المرء يعالج اللغة علاجًا حيًّا. ويجعله ميالًا إلى تطويعها وتبسيطها.

لكن، كلُّنا ظللنا، وحتى يوم الناس هذا، نستعمل الفصحى المشكَّلة. وسأفاجئك أيها القارئ بمطلب رجوعي. إنني أطالب اللغة العربية بأن تستعيد آلاف المفردات العتيقة وتحييها. أريد أن يعرف العربي أن «الأذْرَد» هو المسن الذي فقد أسنانه، وأن «الأهتم» هو من كُسرت أسنانه كسرًا، ولعلي أريد من العربي المعاصر أن يضم إلى قاموسه كلمة «الأجلع» وهو الشخص الذي لا تنطبق شفتاه كل الانطباق فتظل أسنانه بادية ما لم يبذل جهدًا في إطباق فمه. وكان الخليفة موسى الهادي (الذي سبق هارون الرشيد) أجلع. وقد وكَّل به أبوه الخليفة المهدي خادمًا يلازمه ولا يزال يقول له: أطبِق موسى، حتى لقد لُقِّبَ موسى الهادي «أطبق موسى».

وقد استفادت مجامعُنا اللغوية -وأحسنها أثرًا مجمع القاهرة- من اللغة القديمة في مجالات الطب والفلسفة والموسيقى ومجالات أخرى شتى، ووضعت فيها معاجم اختصاصية مهمة.

أريد للغتنا أن تصبح أغنى. لكنني بالطبع لا أطلب نقل **مخصص** ابن سيده إلى المعجم الجديد. وأريد لنا أن نكون نشطين علميًّا فنأخذ بكلمات العلوم من اللغات الأخرى أخذًا ذريعًا، ونساهم بكلمة أو كلمتين. وأريد أن نولد كلمات جديدة، وألا نقف بالمرصاد للصحفيين عندما يولِّدون كلمات جديدة مثل الاصطفاف والاستحقاق وبامتياز. فهم يترجمون مفهومات أجنبية إلى العربية. سأظل ممتعضًا من كلمة «مقارَبة» إلى ما شاء الله. ولكنني لا أنتقد من يستعملها.

أريد لمفردات هذه اللغة أن تنمو؛ لأن نموها نمو للعقل وللعلم، وأن تستعير من العاميات كثيرًا، وأن تأخذ من اللغات الأجنبية كثيرًا؛ لكي يكون كل العلم المتوافر عند الأمم الأخرى متوافرًا لنا بلغتنا. وأريد أيضًا أن نتعلم الفوارق بين الصفات بكلماتها العربية: فـ «الأجلح» هو الرجل الذي سقط شعره من جانبي الرأس، وأما «الأصلع» فهو من سقط الشعر من وسط رأسه ومن جانبيه جميعًا. وأصحاب علي كرم الله وجهه يصفونه بالأجلح، فهي صفة مستحبة عن الصَّلَع. وعمومًا -وحتى نرضي السنة والشيعة- فقد كان عمر وعثمان وعلي جميعًا ممن فقدوا شعر الرأس؛ وصِفهم كما شئت بحسب مذهبك.

ويعيدًا عن الأجلح والأجلع -أراك كرهتني أيها المعاصر لما أجشمك!- نبقى في النحو.

قد طُفتُ بك في دنيا الأدب ولغته، وعليَّ أن أذكِّرك بأن لغة القدماء في بيوتهم وأسواقهم لم تكن لغةَ أبي تمام، ولا لغة الفرزدق. وهنا أقف وقفة كي أصف لك كيف تعامل اللغويون والنحاة العرب والمستعربة في القرون الأربعة التي تلت الإسلام مع اللغة العربية.

قدَّسوا القرآن واستقرت لديهم نسخة منه ثابتة ثباتًا طيبًا، رغم «القراءات». وظلت لغة القرآن بمفرداتها ونحوها المقياس الأكبر. ورغم غمزات المعتزلة وتنفيسات الزنادقة استقر في الأذهان أن القرآن بكلماته هو كلام الله. وغدا أي نقاش في هذه المسألة طريقًا سريعًا إلى النطع، وهو البساط الذي يوضع تحت من يراد قطع رأسه. وقد أدَّب المهدي والرشيد الناس بالسيف. ليس من فرط إيمان الرجلين فحسب، وكانا

مؤمنين، بل أيضًا لأن الخلافة منصب مقدس، ولأن الرجلين ينتميان إلى بني هاشم ويستمدان الأحقية في الخلافة من هذا النَّسَب. فمن مصلحة الحاكم المطلق المستند إلى هذا النسب ألا يمسَّ أحدٌ قداسة القرآن.

عرفنا ناقدين لهذه القداسة المطلقة: رجالًا من البدو ذوي الفطرة التي لا تستسيغ الحُكم المطلق كثيرًا؛ كأنما قالوا لأنفسهم لغة القرآن عربية جميلة وقوية وحلوة، تمامًا مثل لغة قبيلتنا؛ ورجالًا من المستعربين الذين لمحوا البريق الخابي للحضارة الفارسية المغلوبة. والذي عايش حضارتين يكون عقله أنقد من عقل من عايش حضارة واحدة. ولكن كرَّ السنين ثبَّت القداسة الحرفية للقرآن.

أكتب هذا ولا أبدي رأيًا شخصيًا في القداسة الحرفية للقرآن لسببين: أن رأيي ليس مطلوبًا هنا، وأن إبداء رأي في هذه المسألة يخرج بذهن القارئ الكريم من مجال فهم نظرة أولئك الأقوام إلى مجال محاسبتي، وفي هذا تشتيت.

لخدمة القرآن وتفسيره استعان الفقيه بالشعر الجاهلي. وأما الشاعر واللغوي فإنهما رأيا في القرآن القمة العظيمة للغة العربية، وبدءا يريان اللغة العربية تحت ضوء مختلف. فهي ليست لغة تنفعنا في التفاهم، بل هي «اللغة الشريفة». نرى ابن فارس في معجميه وفي كتابه **الصاحبي** يقدس العربية تقديسًا. لم يكن أحد مثل الجاحظ، خفةَ روحٍ وموسوعيةً واقتدارًا، ورغم ذلك فهو لم ينتقد القداسة الحرفية للقرآن، وإن قال بالصرفة. وعلينا أن ننتظر قرنًا ونصفًا لنسمع أحدً نقدةٍ للحَرفية، وجاءت منسوبة للمعري عندما سُئل عن بلاغة القرآن فقال: «إن الألسن صقلته

في المحاريب أربعمئة سنة». فهو يعيد بلاغته إلى تعود الناس على آياته وتكرارهم إياها إلى حد أنها صارت المقياس.

ورغم الإقرار شبه المطلق بالقداسة الحرفية للقرآن فإن الشعراء والكتاب واللغويين والنحاة لاحظوا أن القرآن لا يحتوي على كل المفردات. قالوا: «إن القرآن ليس كتاب لغة»، وكانت اللغة في عُرف ذلك الزمن تعني المفردات. إذن فماذا عن المفردات الأخرى؟ هي أيضًا شريفة لأن اللغة العربية كلها لغة شريفة. وبما أن القرآن يحترم اللهجات العربية الأخرى، وقد زعموا أنه احتواها ضمن قراءاته المختلفة، فإن الأساليب الأخرى بما فيها من انحرافات نحوية هي أيضًا مقدسة. كل كلام العرب الأقحاح مقدس.

أنفقت عربيةُ القرون الأولى بعد الإسلام عمرها في أحضان القداسة. وجاء الفرس فأمعنوا في تقديس العربية مثلما يمعن كلُّ أجنبي في تقديس لغة الغالب.

وقد رأيتُ في زمني عربًا تعلموا الإنجليزية وقضوا زهرة شبابهم وثمرة كهولتهم وهم يحاولون إتقانها والتفوق فيها على أهلها، ورأيتُهم يفوقون أهل اللغة في تحريهم «الصحة» والدقة، وفي تثريبهم كل من يخرج عن الأساليب «المستقيمة».

يلازم تقديس اللغة تجميدها كما يلازم الزيت الزعتر. فماذا نفعل بآلاف الشواذ؟ نضع لها آلافًا من القواعد؛ لأن اللغة الشريفة لا تعترف بالشواذ. وهكذا ولد النحو العربي مُثقَلًا بالقواعد الكثيرة.

لم تنكسر هـذه الدوغما أبدًا. حتى اليوم لم تنكسر. وحتى في عقلي أنـا، وتراني أصفها بالدوغما، لم تنكسر. تجدنـي أعيد قراءة ما كتبتُ من أسطر خوفًا من الوقوع في خطأ نحوي. النحو العربي مقدس وكفى.

فهل في هذا ما يعيق الطلبة في مدارسـهم، ويشـغلهم عن الخوض في العلـوم المختلفـة؟ بلا شـك. درس القواعـد في المدارس هـو قطعة من العذاب. يستطيبه بعض الطلبة من ذوي الميل إلى الرياضيات، ثم يجدون أنه قليل الفائدة أصلًا.

وهـل يعيـق النحـو المتكلميـن بالفصحـى؟ يعيقهـم جـدًّا. ويُعَطِّـلُ تفكيرهـم. ويجعلهـم يتأتـأون ويجاهـدون فـي إقامـة الجملـة نحويًـا، ويسـلكون في سـبيل ذلك مسالك شـتى: فقد يطيلون الكلام، وقد يقفون في غير مكان الوقف، وقد يسـتغنون عن فكرة مركبة في سـبيل النجاة من حفرة نحوية. خير لنا أن نغني اللغة بالمفردات المفيدة من إضاعة الوقت في النحو الذي لم تسـتطع ألسـن العرب المحافظة عليه منذ مئات السنين إلا تحت عصا القداسة الحرفية.

عنـدي غَيرة على العربية؛ ليس لأنها لغة شـريفة، بـل لأنها لغة مفيدة، ولأنها لغتي. ولا سبيل إلى نهضة عربية بلغة أجنبية.

المعلومة ليسـت فاقدة اللون والطعـم والرائحة. المعلومة ملونة بلون بلدك. ونهر بَرَدَى أهمُّ لابن دمشق من نهر الأمازون. وكل معلومة صغيرة عنـه تهم ابن دمشـق، ولـن توردهـا **الموسـوعة البريطانية**. والـذي يأتيك بدقائـق المعلومات عـن محيطك هي لغتك. ولغتـك بحاجة إلى عنايتك

بها بدلًا من اعتنائك بجدَّتها العتيقة المتوفاة. وقيل: «كلب حي خير من أسد ميت».

عندما تبدأ النهضة المنشودة لا بد لهذا العالم العربي المصبوغ بلون الصحراء الأصفر، لهذه البقعة الجرداء الفقيرة البخيلة من الأرض، من أن تُحرث بعزم كبير كي تخرج قوتًا يدرأ الجوع. لن يستطيع العربُ شراء السيارات الفارهة من الأجنبي، ولن يستطيع أثرياؤهم سرقة أموال الناس بمساعدة الحكام لكي يتنعموا ببعضها ويرسلوا معظمها إلى الخارج. سوف يضطر العرب -بمساعدة الوعي الجديد الذي استحكم في نفوسهم- إلى الدخول في مرحلة تقشف وتنمية. وفي هذه المرحلة يجب أن يتعلموا، ومهما قيل عن التعليم المباشر: التعليم الصناعي والزراعي والتقني، الذي من شأنه أن يعطي نتائج سريعة، فإن التعليم العميق مطلوب لتوفير عقول إدارية وقيادية ذات رؤية. هذا لن يأتي إلا من الثقافة. ولا تزال العربية الفصحى الأداة الأهم لنقل هذه الثقافة. وكلما اتسعت رقعة الناطقين باللغة ازداد الانتفاع بالناتج الثقافي. فالكتاب الذي يطبع في المغرب سيفيد المصري والأردني والسعودي، والمؤتمر الذي يعقد في لبنان سيفتح أفقًا لأربعمئة مليون عربي وليس فقط لخمسة ملايين لبناني. وقل مثل هذا عن الإعلام، وعن السينما والأدب. ستدخل العامية كثيرًا. ولكن المغربي والمصري واللبناني سيحرصون جميعًا على انتخاب المفردات والتعابير العامية التي يفهمها كل العرب. العاميات تتلاقح وتتشذب، وتزحف على الفصحى ليس لافتراسها، بل لتكون جزءًا منها.

وستظل هناك عاميات كثيرة. وستدخل كلمات كثيرة منها إلى الفصحى ثم تخرج بعد سنوات، وستدخل كلمات لتبقى. مسرحية مدرسة المشاغبين وحدها أدخلت إلى الفصحى عديدًا من التعبيرات التي صار كل عربي يعرفها بل ويستعملها. مات منها كثير، فلم يعد يفهمه إلا الكهول الذين ضحكوا لعادل إمام في تلك الحقبة، وبقي بعضها.

لن يقف في وجه العاميات شيء، ولن تموت الفصحى.

والنحو؟ لا أستطيع تقديم ضمانة بشأنه. لكنه بصورته الحالية عقبة. ولن نتجرأ عليه في العقود المقبلة. فالمناخ الديني الذي صاحب الربيع العربي، وهو مناخ يعبر عن وجدان الشعوب، جبان أمام المسلَّمات. والمجامع اللغوية لا تفكر مثلي. وهي تقليدية وتنقصها الجرأة. ولعل الحل يأتي من الصحفيين الذين سيكسرون تلك القواعد النحوية التي ليس من ورائها فائدة، سوى ارتزاق بعض الأساتيذ من تدريسها.

سنتخفَّف من بعض المثنَّى، ولكنه سيبقى بقدر ما هو مفيد. وهو باق في العامية أيضًا ومفيد. وسنترك التشكيل كله فهو لا يفيد شيئًا. وسيتحرر التلاميذ من التفريق بين الحال والتمييز، وسيبقى نائب الفاعل، فهو أسلوب مهم لكنه مستغن عن التشكيل: «حوكمِ الرئيس» منطوقةً هكذا ستكون مفهومة. وسنظل قادرين على أن نكتب بفصاحة وبتعبير قوي مستخدمين المفردات الدقيقة المعبرة عن المعنى ولكن بدون اهتمام بالنحو القديم.

سنطيح بالأسماء الخمسة. وأما أدوات الشرط الجازمة فلا أرى صحفيًّا استعملها جازمة. لقد ماتت قبل عقود. لا ترى صحفيًّا يقول: «إن

يـأتِ نبـأ جديـد نُعِره اهتمامنا» بـل يقول: «إذا أتى نبأ جديد فسـوف نعيره اهتمامنا». الشـرط الجازم سـقط منذ القديم. البقية فـي حياتكم! وأما فاء السـببية فهي ساقطة منذ قرون، ولا تكاد تجدها حتى في كتب المدارس. ومع ذلك يفردون لها درسًا طويلًا، بغرض التعذيب.

لن يسـقط مع النحو تركيب الجملة العربية. سـتبقى جميلة وبهية. في وسـعها أن تظـل بهية بدون الإعـراب. وأما مخارج الألفاظ فسـوف نظل مختلفين عليها. وسـيقترب المثقف من المخارج الوسـطى المشتركة بين الشعوب الناطقة بالعربية.

ارتاد بيل برايسـون حانة بغلاسغو وكتب وصفًا مفصلًا للعبارات التي سـمعها، كتبها كما سـمعها، وبعد طول جهد استطاع تخمين بعضها وظل كثير منها مغلقًا. وقد أعطيت صديقي ديڤيد -وهو من غلاسـغو ولا أكاد أفهم كلامه- كتاب بيل برايسـون وأقرأته تينك الصفحتين عن لهجة أهل غلاسغو.

وبمناسـبة عبارتـي هـذه الأخيـرة: «أقرأتـه تينـك الصفحتيـن»، يطيب للقـارئ أن يَقِفني ويقول لـي:« ارحمنا يا أخي. هلَّا بدأت بنفسـك؟ هلَّا جعلت لغتك معاصرة؟ هلا أسقطت الكلمات الغريبة من أسلوبك؟»

يا أخي أنا عندي عقدة نفسـية. قد اشـتغلت مذيعًـا زمنًا، وأورثني هذا عقـدة الضبـط النحوي، وجعلنـي أكتب كأننـي أحكي، ثم إنني اكتسـبت معـارف لغويـة بمقـدار ما، فأنا أتحسـر على مـا أنفقته من عمـر في درس اللغة ولا أضيع مناسبة دون استغلالها لكي أشعرك بما عندي. يا أخي ألم

تكـن تفعـل ذلك وأنـت تكتب مواضيع الإنشـاء في المدرسـة؟ أنا عندي طفولة لغوية مستديمة. عندي مشكلة. افهمني.

من أجمل الأساليب التي مرَّت بي أسلوب مصطفى أمين. تقرأ فكرته أو مقالـه أو كتابـه فتنحـدر عباراتـه في حلقـك كالماء الـزلال لا تجد لها طعمًـا ولا تشـم لهـا رائحة، هي عبـارات مليئـة بالمعنى وليـس فيها نتوء لغـوي. وكان الرجـل ذا عربيـة قويـة ومتينـة، وكان صحفيًّـا حتـى أنامله. وهيكل لغتُه سلسة، ومتينة. ثم انظر إلى هيكل متحدثًا على شاشة الجزيرة عشرات الساعات، هل رأيته؟ يتكلم بالعامية الخالصة. ولو أراد الفصحى لاسـتطاعها، ولكنـه يعـرف أن أفكاره لن تتدفق بها، ويعـرف أنه لن يصل إلى الجمهور بنفس القدر.

وقـد ناقشـتُ مع كثيرين حلقـات هيكل على قناة الجزيـرة، فانا أكتب كلامـي هـذا في وقتـي هذا وأنا مديـر للبرامج في هذه القنـاة، ومن بعض مسـؤولياتي إعـداد حلقـات هيكل للبـثّ وترتيب مسـألة تسـجيلها. ولم يحدث أبدًا أن قال لي أحد: «إن هيكل يتحدث بالعامية». ألـم يلاحظ أحد ذلـك؟ ألـم يلاحـظ أحد أن الشـيخ الشـعراوي كان يقرأ الآيـة بالفصحى ويفسرها بالعامية؟

الإنسان يطلب من اللغة الفهم. ولا يقف طويلًا أمام الفتحة والضمة. وغيرتي على اللغة العربية تتجاوز ما أطلبه من ورائها من نفع لنشر العلوم والثقافـة فـي العالـم العربـي كله. لـدي غيـرة وجدانية أيضًـا. ومن بعض مشـاغلي تقديم الشـعر العربي القديم للناس وشـرحه، وقد أصدرت في

هذا الصدد بضعة كتب. يسرني أن أشعر أن لغتي ذات ماض ثري. وأستمدُّ من أدب اللغة العربية قدرًا كبيرًا من الحكمة والتجارب.

وكلما مررت بموقف تغافلت فيه عن إساءة تذكرت البيت:

ليس الغبي بسيد في قومه   لكن سيد قومه المتغابي

وذات مرة داعبتُ زميلًا يكبرني بسنوات في جلسة، فحزن حزنًا شديدًا، ونظر إليَّ نظرة المطعون بخنجر، وانسحب دون كلمة. فخرجت وراءه، وقبَّلت رأسه كما يقتضي العُرف، وقلت له، وهو متأدِّب يفهم الشعر ويحسه، قلت له: شأني وشأنك كما قال القديم:

نميل على جوانبه كأنَّا   نميل إذا نميل على أبينا

فطابت نفسه، وأقسم أنه لا يحمل ضغنًا، وصدَّقته، وصدَق.

في الأدب القديم سلوى وفيه حكمة، وفيه جنون، وفيه كل عُقَدنا، ومشكلاتنا، وفيه صورة لأعماق نفوسنا. وليس طلبي التخفف من النحو سوى سعيٍ إلى أن نعيش في هذا الزمن، ونكفُّ عن تعذيب أنفسنا وأطفالنا.

أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١١

قل للزمان: ارجع يا زمان

فـي الزمن الصعب تكثر الكتب التي تتحـدث عن «المدينة الفاضلة». يخلـق الكاتب بلدًا خرافيًا يسـود فيه العدل والرخـاء. فعلها توماس مور، وقبله الفارابي، وقبلهما أفلاطون، وفعلها غير هؤلاء.

وعـرب اليـوم كتبوا الكتب عن مجتمع يسـوده العدل والرخاء. لم لا، فإذا كنا نعيش عصر المهانة والظلم فلا بأس بأن نحلم بالعدل والرخاء.

لكـن هـذه المئات مـن الكتب تشـترك جميعًا فـي مشـكلة. فهي كلها تتحدث عن شـيء مضى، لا عن شـيء سـيأتي. باختصـار: كلهم يريدون العودة إلى دولة الخلفاء الراشدين.

ولي في هذا نظرات ثلاث، وأزيدك بيتًا، ثم عبرة.

العودة بالزمن إلى الوراء شيء مستحيل، كما علمت. وهذه واحدة.

وزمن الخلفاء الراشدين لم يكن مثاليًا، فثلاثة أرباعهم مات قتلًا، كما أن الدولـة الراشـدية (ودامت ٢٩ سـنة فقط) شـهدت الفتـن والنزاعات، وتفاوتًـا فـي الثـروة بيـن النـاس عافـه أبـو ذرٍّ، ولـم يُصلحـه الإمـام علي رضـي الله عنه لانشـغاله بوقعـة الجمل، ثـم بحرب صفِّين مـع الصحابي معاويـة بن أبي سـفيان، رضـي الله عنهما. ثم انتهت هـذه الدولة القصيرة العمر بمُلك وراثي. هذه ثانية.

وأصحابنـا يحلو لهم التمسـك بضد اللباب، فربمـا رأيت بعضهم ولا يهمه في الحياة إلا تقصير الدشاديش وإطالة الجلابيب. وهذه ثالثة.

تذكرت أبياتًا لأحمد شوقي بعد قمع ثورة البوكسر الصينية (١٩٠٠): يصف فيها لغتهم بأنها ميتة، وعلومهم بأنها عتيقة دارسة، ويعلن اشمئزازه من تمسكهم بشعائرهم الدينية، ويخلص إلى القول: «هيهات قد نفذ القضاء وصرتم في حكم قادر»، يعني بالقادر المستعمر.

لكن الصينيين نهضوا، ونظروا إلى المستقبل؛ ولم يأخذوا بنصيحة شوقي، فتمسكوا بلغتهم وأقاموا على تبجيل كونفوشيوس؛ فلقد اكتشف الحكم الشيوعي، ومنذ السبعينات، عجزه عن استئصال تراث الأمة من النفوس. ومع نهوض الصين الأخير، بقيادة دنغ جياو بنغ، نهضت بقوة العقيدة الكونفوشية.

ولعل في هذا عبرة. فالتمسك بالإرث الروحي لا يعني بحال أن نحلم بعودة الزمن إلى الوراء. وفي يقيني أن التنطُّح إلى إلغاء تراثنا الروحي مسعى عدمي، وفاشل. كما أن الاستخفاف بلغتنا العربية وعدم استخدامها في تدريس كل العلوم (الفيزياء والرياضيات، وكل شيء) يعبران عن جهل عميق بأهمية اللغة الأم، ويعبران عن بصبصة بالأذناب، وعن لحس بصاق السيد الإفرنجي.

بلغتنا العربية فقط يمكن أن نرتقي، على أنني «لست مغسِّلًا وضامن جنة»: أنا لا أضمن بقاء هذه اللغة، ولا أضمن أن نرتقي أصلًا.

صرح مُعجمي كبير

كنتُ في بيروت قبل بضع سنين، وقصدت «دار العلم للملايين» كي يحدثني روحي البعلبكي عن المعجمي عبد الله العلايلي. ونصب الفريق الكاميرا ومصابيح الإضاءة، وتدفق الكلام. أردت أن آخذ من مضيفي في مكتبه -وضيفي في برنامجي التلفزيوني- مقطعًا أضمّنه وثائقيًا لقناة الجزيرة سميَّه: **عظام العربية في لبنان**، والتورية مقصودة. وندَّت عن البعلبكي إشارة إلى أنه ينشئ مُعجمًا عربيًّا عربيًّا. ذلك بعد **مُعجمه العربي الإنجليزي** الفاخر الذي سَدَّ في المكتبة العربية ثُلمَةً.

حوَّلت مجرى الحديث إلى معجمه الجديد، فوثب إلى منضدته متحمسًا حماسة المؤلف المنغمس في عملٍ جنين. وأراني -والكاميرا ترى معي- مسوَّدات المعجم الذي وصل به إلى حرف اللام، وشرح لي أن معجمه يضم كل جديد، حتى لو كانت اللفظة مستعارة من لغة أجنبية. فأبى عليَّ الخبثُ والعبثُ إلا أن أسأله: «هل كلمة «بوتوكس» موجودة؟» فأخذ يقلِّب الأوراق راجعًا إلى حرف الباء، فرأيتها مكتوبة مقحمة، كأنما تذكرها بأخَرة. ورأيت هذا المخطوط السمين مكتوبًا بخط يده ومشكولًا شكلًا تامًّا بالأحمر. ورأى المشاهدون معي كل هذا في ذلك البرنامج على قناة الجزيرة الإخبارية.

وصدر معجم **المورد العربي** في نحو ١٥٠٠ صفحة بأعمدة ثلاثة مكتظة. ووصف نفسه على الغلاف بأنه «قاموس اللغة العربية المعاصرة

مـع كل المترادفات»، وبأنه يمثـل «منهجية جديدة للمعجم العربي». وقد صدق في الأولى وفي الثانية، ولكن من ألَّفَ فقد استَهدَف.

جمـع البعلبكي فـي **معجمه** بين معجـم المعاني ومعجـم المترادفات فأثقـل كاهـل اللفظـة الرئيسـية، وقد تغيـب عـن القابس العجلان إشـارة المساواة (-) التي تفصل المعنى عن المترادفات. ولكن إيراد المترادفات يزيـد المعنـى وضوحًـا. وفـي سَـوقه المترادفـات فصَّـح المؤلـفُ آلاف الكلمات الدارجة. لم يقف وقفة متردد هيَّاب يلتمس الفصيح المعجمي، ولو كان وقف هذه الوقفة لقلنا له: «ما زدتَ على أن رتبت المعجم القديم ترتيبًـا مختلفًا». لقد أثـرى **معجمه** بهذه الدوارج، ولم يُحجم عن كلمات كثيرة التقى فيها ساكنان. فدارجة بلاد الشام تسمح بهذا، وتأباه الفصحى. وقد يبالغ في هذا فتراه يورد عليك كلمة «كيمِياء» بكسـر الميم، ثم يتبعها بـ «كيمياء» السـاكنة الميم، ويزيد فيأتـي بكيميا، بغير همـزة، مرتين: مرة بكسر الميم ومرة بسكونها. فكأن روحي البعلبكي يريد عرض كل ما في سوق اللغة من خيارات.

أثقـل البعلبكـيُّ **معجمـه** بالنظائـر، فهو مثـلًا يتبع كلمة خوان (بكسـر الخـاء) التـي تـرادف مائدة، بكلمة خـوان (بضم الخاء). ولـم يكتف، في كثيـر من الأحيـان، بالأفصح أو الأشـيع ومال إلى الاسـتيفاء، فأثقل بهذا الاسـتيفاء صفحـات **معجمـه**. وفتحـت لـه ثقافتُـه الواسـعة مـن اللغـات الأجنبيـة ومن العلوم المختلفة بابًا واسـعًا أدخـل منه إلى المعجم العربي ألفاظًا كثيرة جدًّا لم يسعد بها معجم عربي من قبل.

ويعقـد المؤلـف فـي الملزمـة بعـد الملزمة مـن معجمه الكبيـر فصلًا صغيـرًا ملونًـا باللـون الـوردي يـورد فيـه طرائف اللغـة. فالثعبان يسـمى

أبا عثمان، و ١٤ اسمًا آخر. ونقول: «فلان صابر على النوازل، وحمول للنائبات، ولا يتضعضع عند الفاجعة».. وعبارات كثيرة من هذا الباب، الأمر الذي يذكِّرنا بإبراهيم اليازجي في **نجعة الرائد وشرعة الوارد**. هذه فصول طريفة ومسلية.

وقد سار البعلبكي في **معجمه العربي** سيرتَه في **معجمه العربي-الإنجليزي** في أن رتَّب الكلمات على الحرف الأول دون التفات إلى الجذر، تسهيلًا على المُراجع. وبهذا شتَّت شمل العائلات اللغوية، فأنت تجد «ضرب» بعيدة عن «تضارب» بـ ٤٥٠ صفحة. ولغتنا ما زالت -رغم ما عربناه من الكلمات الأجنبية- تستند إلى أساس مكين هو الجذر الثلاثي. وقد احتال بعضُهم على الكلمات الأجنبية بأن أوردها كما هي، واحتال على بعض ما التبس جذره الثلاثي بإيراده في موضعه مع إحالة في موضع الصيغة المألوفة. وكنتُ رأيتُ، في كتاب لي سابق ذي طابع معجمي، أن اللبس الأكبر يقع في بنات الواو وبنات الياء فضممتُهن جميعًا إلى الألف، فالقول والقيل جذران، وبينهما في المعاجم بضع صفحات، فجعلتهما تحت «قال»، ورأيت في هذا حلًا طيبًا.

في كل اللغات توجد للكلمات جذور، وقد تخلى المعجم الإنجليزي عن الترتيب بحسب الجذر؛ لأن التغييرات على الكلمة تكون في الغالب الأعم باللواحق لا بالبوادئ. ولا كذلك الكلمة العربية.

أيًا كان الترتيب فإن **المورد العربي** يوصلك إلى مبتغاك، فإن وصلت وجدت ثروة لفظية ومعرفية. فهذا المعجم معجمان في كتاب واحد: هو قاموس للمعاني، وهو قاموس للمترادفات. ولئن وصفت جدتي الشيء

الـذي يجمـع ما هبَّ ودبَّ بعبـارة «جراب الكردي»، ذلـك الكيس الذي يحمله البائع المتجول وفيه شيء من كل شيء، فنحن نصف هذا المعجم الجديـد بأنـه «جـراب العربـي»، ونقول: إنه لـم يجمع ما هـب ودب، بل جمـع فأوعـى، وقدَّم للمجامع اللغويـة ذخيرةً ثمينةً ستشـغلها طويلًا، إن هـي أرادت أن تشـتغل. هـذا إلـى أناقة فـي الطباعة، وصبر علـى الضبط، والتزام بمنهج صارم.

كانـت الصناعـة المعجميـة العربية قوية منذ مئات السـنين، وسـبقت، ليس فقط الصناعة المعجمية الإنجليزية والفرنسـية، بل لقد اشـتد عودُها قبل أن يكون هناك لغة إنجليزية وفرنسية؛ ثم نشطوا هم في خدمة لغتيهم معجميًّـا، ولـم ننشـط كثيـرًا، إذ وقعنا في حيرة بين قديـم اللغة وجديدها. وبالمورد العربي قطعنا مسافةً طويلةً.

الألمان يتكلمون الألمانية

ستظل أنغيلا ميركل جميلةً لسنوات طوال. البراءة التي تطل من عيني ميركل تنسيك شراسة ثاتشر رحمها الله.

والحديدية الألمانية تشبه الحديدية البريطانية في كثير. فكلتاهما درست العلوم. على أن سيدة أوروبا الحالية تحمل شهادة الدكتوراه في فيزياء الكوانتوم، وقد عملت في الأبحاث النووية اثنتي عشرة سنة بعد الدكتوراه. وهي تملك شهادة امتياز في الرياضيات، وأخرى في اللغة الروسية التي تتكلمها بطلاقة (فلا تستغرب أنها لا تستخدم سماعة الترجمة في لقاءاتها مع بوتين).

سعدتُ بابتسامة ميركل العذبة وهي تحيي الأنصار عقب فوزها الأخير الذي وصف بالساحق في الانتخابات الألمانية. وبالطبع تغيَّب البروفسور يواخيم زاور زوجها (فيزيائي) الذي يؤثر تجنب الأضواء. وميركل، التي تبلغ التاسعة والخمسين، لا تحمل اسم زوجها، ولا اسم أبيها (كاسنر). بل تحمل اسم زوجها السابق (الفيزيائي أيضًا) أولريش ميركل.

- هذه الناشطة الشيوعية السابقة -فقد نشأت كزوجيها، إن جاز التعبير، في ألمانيا الشرقية- استطاعت بعد الوحدة أن تقرأ البوصلة السياسية. دخلت في الحزب الديمقراطي المسيحي الذي كان ناخبوه من المحافظين الذين تربوا على كراهية الشيوعية والتوجس من أي شخص له أية علاقة

بهـا، دخلت هذا الحزب الذكـوري الذي يميل تاريخيًّا إلـى الكاثوليكية، دخلته رغم الوصمة الشيوعية، ورغم أنها بروتستانتية وابنة قسيس، ورغم أنها أنثى. وفي هذا درس.

لقـد احتضنـت ألمانيا الغربية بعـد عام ١٩٨٩ شـقيقتها الفقيرة ألمانيا الشـرقية، وأنفقت عليهـا من المال ما أنهك الاقتصاد الألماني لسـنوات. كان المال يضخ ضخًّا لإعمار ألمانيا الشرقية. وكان في الخُلق والقوانين الألمانيـة مـن الصرامـة ما جعـل الألمـان ينصهرون من جديد في شـعب واحد، بلا منٍّ ولا تفرقة. وتوجوا هذا الخلق عام ٢٠٠٥ بانتخاب ميركل للمنصب الأول في البلاد، المستشارية. وها هي تفوز بأربع سنوات أخر، فإن أتمتها فضلت ثاتشر بسنة.

في ألمانيا عنصرية ضد الأجانب، ككل دول أوروبا، وأكاد أقول ككل دول العالم. وهي تعاني عقدة تاريخية بسـبب سـلوك النازية، أو بالأحرى بسبب الهزيمة الماحقة في الحرب الثانية.

مرت ألمانيا بمخاض التشرذم بضعة قرون، وكانت الخريطة الألمانية تدعى بالفسيفساء لكثرة ما فيها من الممالك والإمارات المتنافرة. ومرت بمخاض الوحدة على عدة مراحل. ومرت بمخاض الانتقال إلى التصنيع، بعـد إذ تخلفـت عن ركب الثورة الصناعية طويلًا. وكان المخاض الأخير التنافس الاسـتعماري والهزيمة الأولى التي أتت بهتلر، ثم الهزيمة الثانية التي شـطرت ألمانيا وأفقدتها عدة أقاليم ذهبت لتشيكوسلوفاكيا وروسيا وبولندا وفرنسا. ثم كانت الوحدة الأخيرة قبل ٢٤ عامًا.

ما جعل ألمانيا تبقى ألمانيا هو اللغة، ومنظومة القيم الثقافية المشتركة.

عندما ذهبتُ إلى ألمانيا الغربية في أواخر السبعينيات، أيام هلموت شميدت، وكانت تدور في الفلك الأمريكي أكثر مما هي الحال الآن، ظننتُ أن كل الألمان يتحدثون الإنجليزية، وأنني قد أحتاج، وربما لا أحتاج، إلى تعلم اللغة الألمانية.

وفي المطار فوجئتُ. سطعت في ذهني، كمصباح المئة شمعة، فكرة: «الألمان يتكلمون الألمانية».

وكأن هذه الالتماعة خَبَت شيئًا، فبعد نحو سنتين، وكنت أقف مع البروفسور كالنبرغ في مكتبة كلية التاريخ بجامعة دارمشتادت بإزاء رفٍّ تصطف عليه مجلدات موسوعة بروكهاوس الألمانية الضخمة، سألت أستاذي: «ولماذا كل هذا العناء، لماذا لم تترجموا أشهر موسوعة عالمية وهي البريتانيكا؟» قال لي: «البروكهاوس موسوعتنا نحن، وفيها ثقافتنا وتاريخنا، وطريقة نظرنا نحن إلى العالم ومن زاويتنا، وكثير من العلوم التي فيها ابتدعها ألمان». لا أدري إن كنت فهمته حق الفهم. لكنني الآن أفهم أن اللغة والثقافة تسبكان الأمة سبكًا. ولا بد أيضًا من خُلق سَمْح يتقبل الآخر ولا يصر على وصم كل إنسان بوصمة: فهذا أبيض وذاك أسمر، وهذا ابن مدينة وذاك فلاح، وهذه امرأة مطلقة وتلك بكر، وهذا ابن الإقليم الفلاني فهو شحاذ ابن شحاذ، وأما هذا فهو ابن بلد ثري، وهذا شيعي وذاك سني، والثالث مسيحي.

ما زالت صورة ميركل بابتسامتها الجميلة تداعب خيالي. اسمحوا لي أن أتفرج على صورها في النت ثم أعود إليكم.

هذه المرأة الألمانية عالمة خطيرة، وهم لا يرون في اشتغالها بالسياسة خسارة للعلوم النووية، فعندهم مثلها آلاف.

وقصة أخيرة عن الاجتهاد الألماني. كان مقر كلية التاريخ في جامعتي تلك حصن المدينة الأثري. وهو حصن شامخ عتيق، وجدوا أن خير طريقة لاستغلاله إسكان كلية التاريخ فيه. سألت زميلًا لي عن تاريخ بنائه، فقال: «سنة ١٩٦٥». أهو جاهل أم هازئ؟

ثم عرفت أن الحصن تهدَّم حجرًا حجرًا في ليلة واحدة في الحرب، ليلة قتل فيها أحد عشر ألف إنسان، وأصبح اسمها في قاموس المدينة «براند ناخت» أي ليلة الحريق. ثم أعيد بناؤه في عشرين سنة ليكون طبق الأصل عن الحصن القديم.

لا أظنني واعدًا حفيدتي بالوحدة العربية. لكن، إن عشتُ لأرى ابنًا لها فسوف أقول له: «سترى العرب أمة قوية. وعليك أن تؤمن بحرق المراحل، فهؤلاء السادة الكرام -من محيطهم لخليجهم- يملكون ثروة هائلة هي لغتهم العظيمة، وثقافتهم الراسخة التي سيجتمعون حولها. فإن رأيتهم الآن يحتقرون لغتهم ويرسلون أولادهم إلى المدارس الأجنبية لغيرما سبب سوى اكتساب لغة أخرى، وإن رأيتهم يتنابزون ويبرزون الاختلافات الثقافية الطفيفة بين بلد وبلد، وبين قرية وقرية مجاورة لها، فهذا كله شيء على السطح».

وقد أقترب من أذنه وأهمس: «العرب يتكلمون العربية».

اللغة الأم.. لغة المعرفة والوجدان

سامي وعلي تخرَّجا من روسيا، ومأمون وتوفيق تخرَّجا من ألمانيا (للمصداقية فالأولان شقيقاي، والثانيان صديقاي). تخرجوا وعادوا إلى الوطن العربي، لم يدرس أي من الأربعة المذكورين في مدارس أجنبية في بلادهم، قبل الانطلاق إلى روسيا وألمانيا. وعاد الأربعة إلى الوطن العربي ... واكتشفوا حاجتهم إلى الإنجليزية، وبسرعة استدركوا الأمر. الأربعة جميعًا يتعاملون بالعربية (ومن قبيل المصادفة أن أربعتهم مهندسون). لكنهم مضطرون إلى الإنجليزية. وجميعهم أتقن الإنجليزية بما يكفي لحاجاته وزيادة.

عالم اليوم يصفونه بالقرية الصغيرة، ويطيب لي أن أصفه بدُنيا اللغتين.

أصبح الطبيب والمحامي والنجار والحداد جميعًا محتاجين إلى قدر من اللغة الإنجليزية. نعم، النجار الجيد لا يستغني عن الاطلاع على التصاميم الحديثة في الكتالوجات وفي مواقع الإنترنت.

اللغة الإنجليزية وراءك، إن أغلقت دونها الباب فستدخل من النافذة. ولكن، إن أهملت لغتك الأم في مقتبل حياتك، ولم تتعمق في ثقافة قِومك، فسوف تظل ... من العوام.

اللغة الأولى وجدان: تفهم بها الشعر وتتذوقه، تضحك بها وتبكي، بها تفهم النكتة والنادرة، وبها تتعبد وتناجي خالقك. وهي أيضًا معرفة: تتقنها صغيرًا بأيسر جهد، وتقرأ قراءة غزيرة، قراءة فهم

واستمتاع، وتضع أساسًا إسمنتيًّا صلبًا يقوم عليه في مقبل الأيام صرحُكَ المعرفي. والعلم في الصغر كالنقش في الحجر. لن تنتفع بالمعارف التي تكسبها كبيرًا انتفاعَك بمعارف اكتسبتها صغيرًا. اللغة الأولى تؤسسك.

اللغة الثانية فهم وتفاهم وفضيلتها أنها تفتح لك العالم. واللغة الثانية ليست الروسية والألمانية ... بل الإنجليزية.

يسمع ابن اللغة العربية الذي تربى عليها قول المتنبي:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلْ الهوانُ عَلَيهِ　　　مَا لِجُرْحٍ بميت إيلامُ

فتفيض في ذهنه معاني الهوان والذل والاستخذاء والخذلان، وتأتيه موجةٌ أخرى فيتذكر نقيض ذلك من شمم وإباء وعزة وشهامة ومروءة ونخوة وكرم وسخاء وسماحة. كل هذه المعاني تحتشد في وجدانه، فيطرب للبيت ويعرف معناه العميق.

ويسمع البيت نفسه شخصٌ لم يعرف من لغته الأم سوى كلمات العوام، فلا يرى فيه شعرًا.

هناك قولان لمستشرقين: الأول الفرنسي ريجيس بلاشير الذي كتب كتابًا مهمًّا عن المتنبي، والثاني الألماني كارل بروكلمان الذي وثَّق مصادر الأدب العربي توثيقًا مشهورًا. ومغزى القولين واحد: «نحن نفهم معنى الشعر العربي، لكن تذوقه شأن أبناء اللغة العربية وحدهم».

لقد درس بروكلمان الألماني وبلاشير الفرنسي العربية فأتقناها، ولم يمتلكاها في الوجدان.

ومـا ينفِّـر طلبتنا من اللغة العربية أننا نخلط قديمها بجديدها، حتى في الصفـوف الدنيـا، وأننـا نصرُّ علـى تعليمهم مـن قواعدها ما يأبـاه المنطق السليم: من وجوه إعرابية غريبة، وتصاريف مملوءة بالشواذ. فلو علَّمناهم الفصحى من خلال النص الجميل والقصيدة الرائقة دون التفات إلى نحو وصرف فسوف يشتد عودهم، ويقرأون بغزارة، ويمتلكون اللغة صحيحة سـليمة، وتصبح لهم الفصحى فطرة أو كالفطرة. وسـيتاح لمن أراد منهم التبحر أن يتبحر.

الروانف والشناتر

أراد بعض الأدباء اختبار أبي الخير السخاوي، فسألوه أن يفسر لهم عبارة قالها الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لكاتبه، وهي: «ألصق روانفك بالجبوب، وخذ المزبر بشناترك، واجعل حندورتيك إلى قيهلي، حتى لا أنغي نغية إلا أودعتها حماطة جلجلانك». فقال لهم أبو الخير: معناها: «ألزق عضرطك بالصَّلة، وخذ المِصطر بأباخسك، واجعل جحمتيك إلى أُثعباني، حتى لا أنبس نبسة إلا وعيتها في لمظة رباطك».

فغلبهم وسخر منهم، إذ فسر لهم اللغز بلغز.

المعنى: ألصق مؤخرتك بالأرض، وخذ القلم بأصابعك، واجعل عينيك إلى وجهي، حتى لا ألفظ كلمة إلا وعيتها في صميم قلبك.

لا، لم تكن اللغةُ العربيةُ على هذه الشاكلة، لا في عصر الإمام علي ولا في عصر السخاوي (نحو سنة ١٠٠٠هـ). والكلام السابق مُلَفَّقٌ بغرض التسلية.

على أن العربية عامرة بالكلمات الميتة. وإذا نظرتَ في كتاب **المخصص** لابن سيده فلن تعارضني عندما أقول لك: «إن ما نستعمله اليوم من كلمات عربية هو خمسة بالمئة فقط من الكلمات المدونة».

دخل أبو العلاء المعري مجلس الشريف المرتضى، فداس على ثوب أحدهم فقال له غاضبًا: «ألا تنظر يا كلب؟» فقال له المعري: «الكلب من

لا يعرف للكلب سبعين اسمًا». وسرد المعري على المجلس سبعين اسمًا للكلب. ودوَّن الناس فيما بعد خمسة وسبعين اسمًا للكلب. وعند الناطقين بالإنجليزية يوجد نحو ٥٠٠ اسم للكلب، لكن كل اسم عندهم يشير إلى نوع مختلف من أنواع الكلاب. فألفاظهم فيها ثراء معنوي. وألفاظنا مترادفات.

وكنت وجدت قائمة تضم ٢٣٨ اسمًا للمصيبة في العربية. ثم وجدت في كتاب الدواهي لأبي عبيدة أكثر من ذلك. ثم قرأت أن أبا حمزة الأصفهاني زعم أن للمصيبة ٤٠٠ اسم (من أسماء المصيبة: الخيتعور، والخنفقيق، والعنقفير). ولن أحدثكم عن أسماء الناقة، ولا السيف، ولا الأسد.

كنت في سن الصبا آخذ المزبر بشناتري وأكتب الكلمات الصعبة، ثم مللت، ثم أدركت أن الأمر لا قيمة له، ثم بدأت أفهم أن المهم ليس تجميد اللغة ولا حراستها ولا الحفاظ عليها، بل المهم أن نفهم، وأن نؤمن بأن التغيير طبع الحياة، وأن الجمود طبع الموت.

اللغة والديناصور

المكان: حديقة الحيوان، والزمان: الآن. القاعة تمتلئ برائحة غير محببة. كان بعض الحاضرين ينتعل جزمة العمل المطاطية التي تصل إلى قريب من الركبة. ومضى الخبير يشرح في هذه الورشة المهمة. والحضور مسؤولو الحديقة وحُرَّاسُها ممن يتولون إطعام الحيوانات ورعايتها.

والمحاضر! خبير حيواني طبعًا.

أخذ يشرح عن الجهاز الهضمي للديناصور، وعن أنواع الدناصير الكثيرة؛ اللاحم منها والعاشب، والزاحف والطائر. ومضى نصف النهار. وبعد الغداء دخل في تفاصيل الإنزيمات التي تفرزها أحشاء كل نوع من الدناصير وانتهت الورشة وسط إعجاب الحاضرين وتكأكأوا على المنصة يشكرون الحيواني، ويستفسرون عن بعض ما غمض من شرحه، ويتناولون نسخًا من المطويات التي أحضرها لهم.

خرج الحاضرون إلى الردهة التي تصل إليها أصوات القردة والوحوش من أقفاصها، وكل منهم يُحَدِّثُ صاحبه بإعجاب عن هذه الورشة الرائعة. أحدهم، وكان قصيرًا وزائغ النظرات وذا شعر مفلفل، قال لزميله: «ومتى سيجلبون الدناصير لنضعها في أقفاص، ونطبق ما تعلمناه في الورشة؟»

في ورشة أخرى كنا مجموعة من الصحفيين نتعلم قواعد اللغة. شرح المحاضرُ الضيفُ حالات الابتداء بنكرة، وسُرِرنا بغزارة علمه. وغلط أحدُنا فسأله عن واحدة من هذه الحالات، فقضى ساعتين ونصفًا في

شـرحها. وكان معنـا زميل قصير، ذو شـعر مفلفـل، وكان أيضًا وبمحض الصدفـة زائـغ النظرات، فقال هامسًـا بعد انتهاء الورشـة: «هذا علم رائع، ومن المؤكد أنه ينفعنا في الكتابة».

وشـرح لنـا المحاضر الكريم باب الشـرط كله، لكن ذلـك اقتضى منه سـنتين ونصف السـنة، ثم أخذ في باب الاسـتثناء، وما زلنا فيه حتى الآن، وقد جلَّل الشـيبُ رؤوسـنا، وأصبـح محاضرنا العلَّامة يتـوكأ على عصا. وقـد أمضينا جلسـة الخميـس المنصرم في تحليـل عبارة «جـاء القوم إلا حمارًا».

وللقارئ أن يفتح الآن على غوغل ويطبع عبارة «جاء القوم إلا حمارًا» وسيجد عشرات المواقع تورد المثال نفسه وتشرحه شرحًا مستفيضًا.

لقد شـاد كبار النحاة هيكلًا شـامخًا من القواعد والشـواذ. ولـم يتركوا في النحو مقالة لقائل. فهل أفاد هذا أبناءنا شـيئًا؟ وجاء أصحاب التيسـير الجـدد، فكتبـوا كتبًا بالعشـرات خلَّصوا فيهـا النحو من كثير مـن زوائده. ولكنه بقي صعبًا.

ثمـة مشـكلة أساسـية، عنـد القدامى وعنـد أصحاب التيسـير. كلاهما يتحـدث عـن أحافيـر. كان النـاس فـي زمـن سـيبويه مثلمـا هم فـي زمننا يتكلمون بلغة مختلفة عن التي تصفها كتبُ النحو.

ما زال أبناؤنا مضطرين لدرس كلمة «إذ ما» وهي حرف شـرط جازم، فهـل صـادف أن قرأتها فـي مقالة أو في كتاب؟ ويدرسـون جملة «محمد محمـد صديقـي»، فهل سـمعت بمثل هـذه الغثاثة؟ وجملـة «أعجبني ما

أدَّبتَ ولدك». وعبارة «ما مسموح التدخين في الحافلة»، وجملة «اشتريتُ أوقيةً ذهبًا».

هذه العبارات اقتبستها من كتب التلاميذ الفلسطينية للصفَّين العاشر والحادي عشر. وهذه الكتب تدرِّس النحو باعتبار أن لغة الشاعر الجاهلي ولغتنا العربية المعاصرة لغة واحدة.

في مدرستي المثالية سوف نلتزم بالفصحى، هذه اللغة العظيمة التي يفهمها أربعمئة مليون إنسان، ولكننا لن ندرس القواعد. فقط سنقرأ ونحفظ أشعارًا حديثة كثيرة، وبعض القديم، وبعض الآيات، وسنحفظ نصوصًا مسرحية لنؤدي تمثيليات واسكتشات بخليط من الفصحى والعامية. ولن نسمح بأن يكون صاحب الفصحى في المسرحية هو «سي قفاعة» الذي يضحك منه الناس، فلا نريد أن نربط الفصحى بالعتيق المضحوك منه. سنجعل اللغة شيئًا حيًّا.

المشكلة أن الآباء سيأتون في نهاية السنة لكي يشطبوا أسماء أبنائهم. سيقول لي أحد الآباء: «أنا أفهمك يا أستاذ، لكن أنت تعرف جيدًا، أريد لولدي أن يعيش في عصره وأن ينجح ويأتي بعلامة عالية ويدخل الجامعة ويصبح طبيبًا. ليتك تأتي بعد مئة سنة لكي تطبق أفكارك النيِّرة». ولن أترك هذا المحترم يذهب دون رد. سأقول له: «وكيف ستنفع «إذ ما» ولدك عندما يصبح طبيبًا؟» وسيحاول أن ينصرف تاركًا لي الكلمة الأخيرة. ولكنني لن أدعه يذهب. سأقول له: «يا محترم، عندما جاء الأجانب وفتحوا فرعًا ضمن مدارسنا نحن هنا في البلد قبل سنوات يتم فيه تدريس اللغة العربية عن طريق قراءة الروايات وتحليلها وتداول

الأشعار الحديثة، وتم إلغاء القواعد تمامًا»، قبلت وزارة التعليم العالي منهجهم وطأطأت رأسها لهم، وقالت لهم: «سنعادل شهاداتكم». وتمت المعادلة. وكان الحاصل على درجة متوسطة في هذا المنهج المستورد (واسمه «البكالوريا الدولية») يأخذ بعد معادلة درجته علامة في أواسط الثمانين؛ لأن الوزارة تحترم المستورد. احترمت منهج (البكالوريا الدولية) ووضعته على رأسها وليس فيه نحو ولا سيبويه.

لكن، لو ابتدعنا منهجًا مشابهًا، لا بل أفضل من البكالوريا الدولية، فسوف تقول لنا الوزارة: «ابحثوا لطفًا عن «سات» أو «جي إس إي» أو أي شيء مستورد؛ فهذا مقبول لدينا. أما أن نطور نحن منهجًا للغة العربية فالعياذ بالله».

وسوف ينصرف هذا الأب غاضبًا أو راضيًا، وستبقى الحسرة في قلبي على ما أنفقت على هذه المدرسة النموذجية التي خلت من تلامذتها. أفكر في تحويلها إلى سوق خضار، بحيث يستأجر الباعة غرف الدرس، وسأسمح بالعربات في ساحة المدرسة.

أبو همروش

عائدًا إلى البيت على قدميّ، تريُّضًا واحترازًا من السكَّري قبيل هجمته المرتقبة. وقفتُ بأصل المرتقى آخذ نفَسًا. بحذائي وقفت سيارة. لم أقف لها، فلعلها لم تقف لي. فقط، تمهلتُ في مَشيي. وزحفت السيارة معي. وسرعان ما جاءني صوت خشن من داخلها:

- «اطلع!»

واقتربت من النافذة محدقًا في الرجل.

- «لم تعرفني بعد؟»
- «مم»، أحاول أن أتذكر....
- «أبو همروش».

هرشتِ رأسي. السيارة تقف في أصل المرتقى الصعب على طريق بيتنا، وأنا أحمل همَّ الصعود.

- اطلع!

يقصد «اصعد إلى السيارة»، وأشار بيده إشارة آمرة، فصعدت وركبت بجانبه. قلت له إنني كنت خارج البلاد ستَّ سنوات كاملات، وعدت قبل أيام. ران عليه الصمتُ مدركًا غلطته. ثم مضى صاعدًا وأصر أن يوصلني إلى البيت ودار بيننا حديث. وعندما وصلت قلت له: «بارك الله فيك، فقد خلصتني من هذا المرتقى الصعب».

لـم أقـل له: «إنه قطـع حبل أفكاري». لـم أكن من اللـؤم بحيث أكبّده تأنيب ضمير على الخسارة الجسيمة التي ألحقها باللغة العربية، وبالثقافة عمومًـا، بقطعـه سلسـلة فكرية مهمة بشـأن الحرف العربي وبشـأن النطق وبشأن الفصاحة.

وهـا هـو أبو همـروش يجعلنـي الآن -وقد وصلتُ إلى بيتي بسـلام- أخوض في شـأنه بدلًا من تسـطير ملحمة هوميرية في الدفاع عن الحرف العربي.

كبـار مثقفينـا في مصر ولبنـان الذين دافعوا عن العاميـة دفاع الأبطال، ورفعـوا رايـة الكتابـة بالحـرف اللاتينـي، وتحسَّـروا كثيـرًا علـى أطفالنـا المسـاكين الذيـن نجشّـمهم الحـرف العربـي فـي المـدارس، وخاضـوا حمـلات جريئـة ضد الفصحى وضـد الحرف العربي وضـد النحو. كانوا يدافعـون عمـا يرونـه الحـق. ونحـن أيضًـا ندافـع عما نـراه الحـق. ونبدأ بنقدهم، وأول النقد تقريع.

أيهـا السـادة! كل واحـد منكـم كان يتقـن عـدة لغـات، ونصف دسـتة من اللهجـات. فلمـاذا تـرون أن عقـل الطفل سـيضيق بالفصحى؟ نسـمع اللبنانـي يقول عن السـمكة الصغيرة «سـمكي زغيري» ونسـمع الخليجي يقول «سميتشـا صغيرونة» والمصري «سَمَكَة صُغَيَّرة»، فنعرف أن هذا هو هذا بغير كلفة. وكل واحد منكم، يا من ضاق صدركم بالفصحى وبالحرف العربـي، قـد زار بلـدان الغرب وسـمع أهلها يتكلمـون بالعاميـة ويكتبون بالفصحى. أمعقول أن يكون فات سـلامة موسـى أو عبد العزيز فهمي أن سـائق التاكسـي اللندني يتكلم بلهجـة «كوكني» تبعد عـن الإنجليزية التي

يتكلمها النائب البرلماني الذي يخطب في مجلس العموم على بعد كيلومتر بمقدار البعد بين العامية القاهرية والفصحى؟ أيكون فات أنيس فريحة الذي قضى زمنًا في ألمانيا أن عوامَّ همبورغ لا يكادون يفهمون على عوام ميونخ؟ وأنهم جميعًا يسمعون الفصحى في الراديو فيفهمون.

ولنأخذ حرفًا عربيًا واحدًا من الثمانية وعشرين حرفًا. حرف القاف. الفصحى تقول «القادر»، نكتبها هكذا، وننطقها بقاف تأتي من آخر الفم عند التصاق سقف الحلق بأصل اللسان. الدروز ينطقون القاف قرآنية، ومرقَّقة بتغيير شكل التجويف الفموي. ويقول الخليجي والسوداني عن القادر: «الغادر». ويقول البدو «جادر» بقاف هي مثل الجيم القاهرية. وأما أهل القاهرة فيقولون «آدر». ويصفون المرأة القوية، ذات الحيلة والشكاسة، بأنها «آآآدرة». وفي مدينتي نابلس بفلسطين يصنعون بالقاف صنيع القاهريين. فالقادر عندهم آدر، ومنهم من يفخِّم الهمزة.. كما في «آه». وفي نابلس عائلة أصرت على أن تنطق القاف مخلوطة ببعض الكاف، ونحن نسمي هذه القاف باسم تلك العائلة فنقول «قاف عبد الهادي». ولو ذهبت غربًا عشرين كيلومترًا لسمعت أهل طولكرم يخلطون القاف بالكاف مع تفخيم واضح. وقد مات حسن الكرمي، القاموسي الشهير، عن مئة سنة وسنة وهو ينطق القاف نطق أهله في طولكرم، وكان يطرب لقافه المخففة كثيرون وهم يسمعونها في برنامج قول على قول من إذاعة لندن. وقاف القرى المحيطة بنابلس هي كاف مفخمة، فإذا مضيت جنوبًا إلى قرى رام الله وجدت القاف كافًا صريحة. ولو واصلت جنوبًا وبلغت بيت لحم لسمعت القاف تصير غينًا، فكأنك في الخليج مع فارق انعدام النفط.

أعود إلى أبو همروش، ذلك الرجل الذي أوصلني بسيارته إلى بيتي. ذلك الرجل يتكلم بلهجة مختلطة اختلاطًا عجيبًا. فهو من أصول ريفية فلسطينية ولكنه عاش في المهجر مدة، وتضطرب -أو تصطلح- على لسانه أحرفٌ جمعها من لبنان ومن الأردن والشام، ويكاد يتقلب فيما بينها مستعمِلًا هذه القاف مرة وتلك مرة، وهذه المَدَّة مرة وتلك أخرى. يكاد كلامه يكون تلخيصًا لبرج بابل الفلسطيني.

هذا شيء عن القاف. ولن أقصَّ عليك قصة حروف العلَّة، ففي كل واحد منها ما في القاف من صور وأشكال. ولو سايرتني بعض المسايرة في المدِّ والمطِّ في الياء والواو والألف اللينة عند أهل الخليل ونابلس والقدس والشام، فلست أضمن بقاءك معي لو فتحت موضوع «النبر»، وكيف يؤخره المغاربة ويقدمه المشارقة.

لا نضع لكل العرب قاعدةً صلبةً في النطق، غير أن قُرَّاءَ القرآن في مصر والسعودية والمغرب ما انفكوا يثبتون قواعد للنطق جيلًا بعد جيل. وعندما ينطق المذيعون في المغرب وتونس ومصر والعراق بالفصحى فهم يقتربون من الفصحى القرآنية ما استطاعوا. ولا يندر أن ترى مثقفًا شاميًّا شديد الاعتزاز بالفصحى ويتقنها أحسن إتقان -ومثالي الشيخ علي الطنطاوي- تراه لا يكاد يفتح فمه إلا وتقول: «شامي أصيل». فهو، وإن كان مسيطرًا على مخارج حروفه بشكل جيد، يخرج أحرف العلَّة شامية بشكل بارز. تقول عنه: «شامي شامي، لا حلبي، ولا ديري، ولا درعاوي، ولا حمصي، بل شامي».

هذا تنوع طيب. وليس فيه ضرر. وهو كائن بسبب لهجات قَبَلية قديمة، وربما أيضًا بسبب لغات قديمة كان أجدادنا يتكلمونها كالسريانية

والأمازيغية والآرامية والقبطية والنوبية والكردية ثم اتخذوا العربية فنطقوا بإحدى لهجاتها، وطعَّموها بشيء من ماضيهم اللغوي.

القرآن بتلاوته وتجويده يقرِّب فيما بيننا، وطائرة البوينغ تقرِّب، والتلفزيون. وسنظل نتكلم بعامِّياتنا المختلفة. لكننا جميعًا صرنا نقول سيارة وتراجعت كلمة «عربية» عند المصريين، وكادت تختفي كلمة «أوطومبيل» في بلاد الشام. يقول لك الشامي: «دركسيون» وتقول: «ستيرنغ»، ثم تجدكما معًا بدأتما باستخدام كلمة «المقود» بدلًا منها، وتنطقانها نطقًا فصيحًا، وليست بالكلمة السهلة، غير أنها توحِّد بينكما. وتتكلمان في الاقتصاد والسياسة فتكثر الكلمات الفصحى على لسانيكما، وتصلان إلى ما يسمى اللغة البيضاء، أو الوسطى.

الفصحى ضرورة. وضروري أن تكتنز بالمفردات والأساليب الجديدة. وهي تفعل. ومن الخير للفصحى ولوجداننا الثقافي أن نستعير من قديم العربية ما يناسبنا. وكلمة «سيارة» الناجحة جدًّا كلمة قرآنية.

والحرف العربي! لقد نشأ مع لغتنا، وتعوَّدنا على صورته. وهو يتيح لصورة الكلمة أن تبقى كما هي، بينما يتلون العرب في نطقها ألوانًا، هذا ثبات طيب لا جمود. هذا ثبات مطلوب لكي نتفاهم. وقد أخذ بمثل هذا الثبات أقوام كثر منهم الإنجليز والأمريكان. الإملاء الإنجليزي مصيبة من المصائب، وهو خلطة جرمانية سكسونية لاتينية عجيبة. وهم متمسكون بإملائهم لأنهم تعودوا عليه، ولأنهم يرون فيه خادمًا لاستمرارية ثقافية، وتواصلًا معرفيًّا، وتبادلًا معلوماتيًّا. سأترك هذا الأمر.

قطعت كلامي مدركًا أنني كنت توسعت في هذه النقطة في مكان آخر لعله يكون ضمن هذا الكتاب. فأنا أكتب الأشياء وأرميها في الحاسوب، فإن قُدِّرَ لها أن تظهر في كتاب فالويل للقارئ مما سيرى فيها من تكرار.

ولعلّي لا أقص عليك القصص، كقصة أبي همروش، إلا لكي أصنع فارقًا بين مقال ومقال.

أقطع كلامي وأقفز قفزة.

أنا مُقدِم في الأشهر المقبلة على فترة من تدريس الطلبة الجامعيين في قسم الإعلام. ومثلما فعلت عندما كنت أدرس في هذا القسم قبل ستّ سنوات فسوف «أرغم» طلبتي على المطالعة. ليس شيئًا محببًا إلى قلوبهم، وهو ثقيل عليَّ.

تخيل! طلبة إعلام ولا تجري العربية الفصحى على ألسنتهم إلا بصعوبة بالغة، ولا يكادون يعرفون من مفرداتها إلا أشيع الشائع. لا يعرفون معنى: استخذى، ولا تضوع، ولا ساور، ولا استفتى، ولا تبوأ.

طالبنا الجامعي لا يعرف من الفصحى إلا بقدر ما يرد في نشرة الأخبار. فإذا تفاصح المحرر قليلًا وكتب للمذيع: «مقتضيات المرحلة»، فقد تقف الكلمة في حلق المذيع، فإن لم تقف وقفت في أذن طالبي الجامعي، وشغلت ذهنه بضع ثوان.

بضع فقرات: خذ فقرة من حافظ إبراهيم في ترجمته لبؤساء فكتور هوغو: «وإنه ليفكر في أمره، وفي تلك الأسمال التي كانت مثار النفور لكل من يراه، إذ أحس بوقع أقدام فاستوى جالسًا، فإذا هو يرى سوادًا

مقبـلًا، فتبيَّنـه فإذا هو غلام يعُدُّ من العمر اثنتي عشـرة سـنة، وهو يحتقب جرَّة له».

وخـذ فقـرة من قصة روبنسـن كـروزو، كما ترجمها بتصرف ونشـرها للأطفال كامل الكيلاني في مصر: «وإنَّا لكذلك، إذ أقبل وحشان هائلان، أحدهما يجري خلف الآخر، من الجبل إلى البحر. ففر الرجال، ولـم يبق منهم إلا حامل العصا. ثم هوى الوحشان إلى البحر يسبحان ويلهوان، ثم أقبـل أحدهمـا إلى مركبنا حتى كاد يدانينا. فأطلقتُ رصاصة على رأسـه؛ فصرعته من فوره».

وهذا محمد السـباعي، والد الروائي يوسـف السـباعي، يترجم أناتول فرانس: «كان نيقولا نيرلي متمولًا وصاحب مصرف في مدينة فلورنسـة، مـن أعمـال إيطاليـا، وكان جمعُ المـال دأبه وديدنه، يلتمسـه من كل وجه ويتأتَّـى إليـه من كل باب، وما إن يزال عاكفًـا على دفاتره وأرقامه من لدن طلوع الشـمس إلى غروبها، وكان يقرض الإمبراطور والبابا، وما منعه أن يقرض إبليس إلا خشية المطال، وأن إبليس أشد مكرًا منه ودهاءً».

وهـذا شـيء مترجَم عن الإنجليزية. والمترجم هـو أنيس فريحة الذي ناصـر العاميـة ودعا إلى الكتابة بالحرف اللاتيني. وقد كتب ما سـتقرأ في سنة ١٩٦٦ ناقلًا كلمات ناثان بيوسي رئيس جامعة هارفرد سنتئذٍ: «التربية الحـرة تُعـد في الأوسـاط الأكاديميـة موضوعًـا دقيقًا، يتجاهلـه بعضهم، ويزدريـه بعضهم، ويتخذه بعضٌ آخر أساسًـا لعقيدة وإيمان. أما الآن فإن أشـد أنصار التربية الحرة والذائدين عنها، خليقون أن يتحدثوا عنها، وفي

نفوسهم أسى وحنين إلى ما كان، حتى لكأنها شيء قد فقدوه ويُسُرُّهم أن يُبعَثَ لو كان بعثُه ميسورًا».

نعم، تلك عربية نفتقدها. لكننا لا نريد مثلها في كل حين. في كل الفقرات السابقة سعي إلى التفاصح، وفيها أساليب عتيقة، ولها رونقها.

لست أريد من طلبتي أن يكتبوا بلغة أدبية، ولا حتى أطالبهم بأن يفهموا كل ما كان كتبه الأجداد. أريدهم أن يدخلوا في الفصحى أكثر لكي يُعَبِّرُوا عن أنفسهم بشكل أفضل، ولكي يفهموا كثيرًا من الأدب والعلم.

ابن الهيثم: بحثت قبل أيام في موسوعة «تراجم العلماء» الأمريكية عن اسم ابن الهيثم، وتوقعت فقرة صغيرة. فهالني أن رأيت مقالة طويلة لو تُرجمت إلى العربية لجاءت كتابًا في مئة صفحة وأزيد. ضاق صدري.

فلنترجم مقالات من هذه الموسوعة وننشرها في كتب وعلى الإنترنت. وأما التأليف العلمي فسيأتي عندما يصبح عندنا علماء.

ستظل اللغة الإنجليزية مورد الظمآن في العلوم البحتة، وسيظل علماؤنا بحاجة إليها ليقرأوا بها الأمور البالغة التخصص، والبالغة الجدة. ولكن توافر كتب علمية مبسطة في اللغة العربية، وبعدد كبير، أمر مهم، ومقدور عليه.

نحتاج إلى الدكتور فاوست. ذلك العالم الذي بلغت به شهوةُ المعرفة أن باع روحه للشيطان مقابل الحصول على معرفة ليس لها حدود. كان بطرس البستاني فاوستًا. فهذا الرجل اللبناني قعد يكتب موسوعة كبيرة عن كل شؤون الدنيا. انظر إليه يحدِّثك عن قوانين الحركة وعن السرعة

والتسارع ومركز الثقل تجده عالمًا من علماء الفيزياء، يكتب لك كل هذا بعربية رائعة، ويعبر بالعربية عن كل هذه العلوم تعبيرًا مشرقًا، ويورد المعادلات والقوانين الفيزيائية ويفصل قوانين المقذوفات (المدفوعات بحسب تعبيره) ويشرح القوة الطاردة عن المركز (قوة التباعد عن المركز) في عشرات الصفحات. وقد قرأتُ شرح البستاني لقوانين رفع الأثقال بالبكرات، وجلست أندب أولئك الرجال الذين أخلصوا للعلم.

ذلك أن قانون البكرات مرَّ معنا في أيام الدراسة وأقبلت عليه بكل رغبة أريد أن أفهمه، ببساطة لأنني كنت أرى الميكانيكي يرفع السيارة بيده باستعمال منظومة بكرات وبدون أن ينفق بنزينًا ولا كهرباء، فكان هذا بالنسبة إلي كالسحر، وأردت أن أعرف كيف يكون ذلك. وكان كتاب المدرسة عقيمًا في شرحه، مكتوبًا بقلم مؤلف بليد الذهن معدوم التعبير. ونشأت في نفسي عقدةٌ من البكرات وقوانينها. وجاء البستاني ... وفي صفحة مطبوعة بأحرف منقرة عتيقة حدثني عن البكرات حديثًا جميلًا، وخاطب عقلي، ولم يعفني من المعادلات والرموز، وأفهمني. هو يشرح ويخاطبك، ويريد أن يفهمك. في كلامه بيان وإشراق. وفيه تفصيل العالم وإخلاص المعلّم. هذا رجل عرف الإنجليزية والفرنسية معرفة ممتازة ودرس الإيطالية والسريانية والآرامية والعبرية واليونانية القديمة واللاتينية، وقبلها -وأحسن منها كلها- عرف عربيته، أليس صاحب أول قاموس عربي في العصر الحديث: **محيط المحيط**. من معرفته الأصيلة بلغته الأم، العربية، استمد البستاني إقبالًا على قارئه العربي، وإحساسًا بهذا القارئ وباحتياجاته، وكلَّمه كلامًا وأفهمه إفهامًا. هذا الرجل مات قبل أن يولد طه حسين، مات وقد أسَّس مدرسة وأربع صحف.

نريد قامات علمية شامخة. وهذه القامات ليست نيازك تهبط من السماء لا نستطيع لها جذبًا ولا نملك لها دفعًا، بل هي ناس نصنعهم صنعًا في الجامعات وفي جسم المجتمع.

جورج برنارد شو صنعته الظروف. يقول كاتب سيرته هولرويد: «إذا أردت أن تعرف الحالة الموسيقية في بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر فالمرجع برنارد شو». فهذا الرجل كتب سلسلة مقالات -جُمعت مؤخرًا في مجلد ضخم- كلها هزل وسخرية، ينقد فيها الفعاليات الموسيقية في لندن. كان يخفي عن القارئ معرفته الموسيقية، ويحدثه حديث المتذوق السَّمِّيع. غير أنه كان يراجع المدونات الموسيقية، «النوطة»، ويفحصها قبل حضور الحفل. وفي أثناء هذا كله -وكان لم يبلغ الثلاثين بعد- كان يقدم المحاضرات بالمئات في الدعوة إلى الاشتراكية والعدالة الاجتماعية. ورأى أن عليه درس الاقتصاد، ولم يكن كتاب كارل ماركس **رأس المال** قد ترجم إلى الإنجليزية. فأكبَّ عليه يدرسه بالفرنسية، فمن أين جاءته الفرنسية؟ من الهواء. احتاج إليها فتعلمها. ثم انحرف برنارد شو إلى كتابة المسرحيات، فأصبح أشهر كاتب مسرحي في زمنه. قرأتُ شيئًا لهذا الرجل وقد نيف على التسعين من العمر يتحدث عن أثر السلاح النووي في الاستراتيجيات العالمية، فاحترتُ في أمره، يكتب كأنه شاب في الثلاثين، بحيوية وتوقد ذهن، وفي موضوع جديد لم تعرفه البشرية إلا قبل سنوات قلائل. كان برنارد شو عبقرية المعرفة والفن. ولم يدرس في المدارس سوى سنوات قليلة.

ورأيت ديفيد كريستال، وهو رجل صنعته الجامعات، وأطعمته الخبزَ دورُ النشر. وله نحو مئة كتاب، وهو لغوي موسوعي، ويكتب للناس

العاديين وللأكاديميين أيضًا. لم يتهم أحد كريستال بأنه عبقري. على أنه علاَّمة. وهو محرر **موسوعة كامبردج العامة**، فالذي يكتب في اللغة لا بد له من معرفة واسعة بالعلم والاجتماع والسياسة. ويزداد كريستال واحدة، فهو -وقد دخل السبعين- مهتم بالإنترنت وله قواعد بيانات مسجلةٌ حقوقُها باسمه.

الحاجة إلى العلم: سيرى المزارع التونسي نفسه -وقد وجد منافسة قوية من زيت الزيتون الإيطالي والإسباني في أسواق العالم- مضطرًا إلى كثير من العلم لكي ينافس ويأخذ حصة أكبر. الله يتكفل بصنع حبة الزيتون، يتكفل بخمسة وتسعين بالمئة من العملية، بالجزء الصعب. بقي على الفلاح الحرث والغرس والسقي والقطاف والعصر، وتلك أمور سطحية إذا ما قورنت بإنبات الشجرة وإخراج الحبة من زهرتها. وللإيطاليين والإسبان في جني محصول الزيتون فنون، ولهم في عصره فنون، وفي تسويقه أيضًا. ولا بد للمزارع التونسي من علم كثير حتى ينافس.

والأرض في بلاد العرب فقيرة، كأرض اليابانيين. ولتعويض فقر الأرض لا بد من علم كثير لفتح مجالات أخرى لخلق الثروة، بجانب الزراعة.

نحتاج إلى الكثير في علم الكيمياء كي ننجح في الصناعات الدوائية. لا يكفي أن نأخذ وكالة لصنع عقار معين ركَّبه مختبر في فرنسا. هذا صنيع الببغاء. لا بد من تعمق في الكيمياء والطب للخروج بعقارات جديدة. ولا بد من رقابة حكومية لضمان الجودة. ففي وضعنا الحالي لا

يطلـب المواطـن العربـي الدواء العربـي، ويطلب من الصيدلـي المرادف الأجنبي. فثقة المواطن العربي بالدواء العربي، المنتج ببغائيًا، ثقة ضعيفة لحضور الغش، وغياب الرقابة. فالمجتمعات العربية تعاني أزمة أخلاقية، علاوة على الأزمة الإبداعية. ليس هذا لأن العرب سيِّئو الأخلاق، بل لأن وضعهـم الحالي هـشٌّ اقتصاديًا وفكريًـا. فالغرب والشـرق ينهبان العالم العربـي ويسـيطران عليه اسـتراتيجيًا، والعرب مضطرون إلـى التفكير في المصلحة القريبة والمكسـب المتاح سـريعًا. وأسهل المكاسب أن تكون تابعًا وأن تأكل الفتات. السيادة صعبة، والاستقلال الحقيقي صعب.

لو كنت أشـك طرفة عين في أن اللغة العربية هي التي تعيق تقدمنا لما تـرددتُ فـي الدعوة إلـى أن نخرج من جلدنا، وأن نهجـر لغتنا، ليس فقط أحرفنا وفصحانا. لكنني على يقين من أن طريقنا نحو السيادة والثروة يمر عبر اللغة العربية.

منهاج مدرسـي: اطلعت مؤخـرًا على منهاج اللغة العربية الفلسـطيني لصفوف عديدة. ولي عليه تعليق قد يكون هذا مكانه وقد لا يكون.

اجتهد واضعو هذه الكتب اجتهادًا كبيرًا في الحفاظ على نقاء الفصحى وضبطهـا بالتشـكيل ضبطًـا لا مزيد عليـه، واجتهدوا فـي اختيار نصوص أدبيـة متنوعـة، وراعَوا الخلط بين قديم اللغة وجديدهـا. ولكن ثمة نقصًا فِادحًا عندهم في فهم كيفية عمل دماغ الإنسان.

يأتـون بقطعـة مـن الأدب، يجعلونهـا قصيرة، نصف صفحـة. ثم تأتي التماريـن والقواعد والتـذوق والتحليل صفحة وراء صفحة وراء صفحة. فتنفـق المعلمـة درسًـا وراء درس وهـي تتعامـل مـع مصطلحـات نقديـة

وتذوقية وقواعد نحوية. وتحلو للمؤلفين المقارنة بين نص ونص، ويحلو لهم أن يستخدموا أسلوب «أنا أقرأُ البيت..» كأنما لكي يهربوا من فعل الأمر «اقرأ البيت..». وما شاء الله من هذه الحيل التربوية السخيفة.

الطالب بحاجة إلى نص حلو مع قليل من التشكيل (التشكيل الذكي، وليس التشكيل الذي يشوه الكلمة حرفًا حرفًا)، ومع قليل من التفسير للكلمات الصعبة. فأما تلك الجداول المخيفة، وتلك البنود الكثيرة، والتمارين، فهي تتلف الأعصاب، وهي تدعو المعلمة إلى تحفيظ الطلبة وإرغامهم على سرد النقاط في الامتحان. لقد اخترعوا حكاية تدريس القواعد ضمن تدريسهم النص الأدبي. وهو اختراع فاسد؛ لأن القواعد أصلًا فاسدة، وليست مهمة.

ويأتيك كتاب العلوم اللغوية، وفيه لغو كثير وتقسيمات وجداول مرعبة. وبلاغة وعَروض ونحو وصرف، وكل ما ليس له أي لزوم من إعلال وإبدال ... كل هذا مسوق سياقة عصرية وبالألوان، وبمونتاج مطبعي متعوب عليه. وقد رأيت وقع هذا المنهاج على طالبة نابهة كانت تستعد لامتحان الشهادة الثانوية. رأيتها تحفظ الكتاب حفظًا. وتداولت معها في النصوص والقواعد، وهززت رأسي، عرفت أنها لن تحتفظ في ذهنها بأي شيء من هذا كله. وخاضت الامتحان وأحرزت علامة ٩٨ وثلاثة أعشار بالمئة. وهي تدرس الهندسة المدنية الآن. ولئلا تظن أنني أؤلف لك أمثلة من الخيال فالآنسة المشار إليها ابنة أخي.

وقد اختار المنهاجُ الفلسطينيُّ لبديع الزمان الهمذاني مقامةً مؤلمةً هي الثانية عشرة، الموسومة بالبغدادية. والبطل فيها يغدر بفلاح نزل بغداد

ويخدعه إذ يدعوه إلى الغداء في مطعم، ويأكل معه أصناف الشواء والحلوى، ثم يغافله ويتركه، والفلاح لا يملك ما يكفي من الدراهم، فدفع الحساب ركلاتٍ ولطمات. وتنتهي المقامة بافتخار بطلنا بفعلته.

اقتبس المنهاجُ الفلسطينيُّ الحكاية وأعجبه ما فيها من بلاغة ومفردات ولغة. أهذه قصة تُقدَّم لطلبة صغار! ويقول واضعو المنهاج في ذيل الدرس إنه «جرى اختيار المقامة لطرافتها». ولم يذكروا نصف كلمة عما في القصة من التمجيد الصارخ للغش والخداع، وعن استغلال ابن مدينة فهلوي محتال لفلاح مسكين.

وتذكرتُ شيئًا. وأذكره لكم هنا كيما أثبت أن الطفل حساس ويدرك الرسالة الأخلاقية.

دخل معلم اللغة العربية غرفة الدرس، وأنا في الصف الثالث الابتدائي، وكتب لنا على اللوح بيتًا من الشعر، وطلب منا أن نكرره على طول الصفحة لتحسين خطوطنا. كان بيتًا مشهورًا للمتنبي:

لا تَشْتَرِ العبدَ إلا والعصا معه   إن العبيدَ لأنجاسٌ مناكيدُ

وقد كتبتُ البيت عشر مرات أو أكثر أو أقل. لكنني تنبهتُ إلى أن البيت يقول شيئًا سيئًا عن العبيد وأنهم أنجاس ومناكيد، ويجب ضربهم بالعصا. ألسنا نعرف أن العبيد مظلومون؟ ألم يقل لنا معلم الدين: «إن عمار بن ياسر العبد رجل شريف، وإن سيده أمية بن خلف هو الشرير؟ فكيف يقال مثل هذا الكلام عن العبيد؟» أحسست ساعتها وأنا طفل في نحو التاسعة من العمر بوجود تناقض، ووجود رسالة أخلاقية غريبة.

لا، أيها السادة، يا من وضعتم منهاج اللغة العربية للصف الثامن في فلسطين، لا يمكنكم بحال أن تسقطوا هذه السقطة ولا تؤاخَذوا بها وبأشباهٍ لها كثر. لديكم مشكلة حقيقية في جانب «الرسالة». غير أن موضوعنا هو اللغة، فنمضي.

الكتاب المدرسي: العربي يقول: «أنام، وأقوم» ولا يخطئ فيهما لأنه سمعهما في بيته وقرأهما مرارًا، ولا يحتاج إلى أن تُصَدِّعُوا رأسَه بدرس الإعلال البغيض سنةً بعد سنة. وللجهابذة من واضعي كتب المدارس أقول: «فُكُّونا من سخافات النحو والصرف، وحُلُّوا عنا، وعن أولادنا. إنكم تجعلون اللغة العربية، في تلك الذيول القبيحة التي تلصقونها بالنص الأدبي، لوغاريتمات وطلاسم».

أفتحُ صفحة بعد صفحة في كتاب مدرسي، وأرى عنوانًا يتكرر: «المعجم والدلالة». وما هذا الذي تقصدونه بالدلالة؟ لـمَ هذا التباهي البغيض بالدلالة والمدلول. ألم تسمعوا بكلمة (المعنى)؟ لقد قرفت حقًّا من كلمة «دلالة» لكثرة ما قرأتها في كتب أكاديميي الزمن الأخير. يستعملها هؤلاء الذين درسوا من كتب جامعية ضحلة، ويصدعون بها رؤوس أبنائنا.

بعد هذه الوصلة الهجائية، أعود إلى التأكيد على أن النتيجة هزيلة حقًّا. ببساطة لأن اللغة لا تُعلَّم هكذا. ولماذا كل القمامة النحوية والصرفية في كتب المدارس؟ ألا يعلم واضعو الكتب المدرسية أن النحو اخترع بعد موت الأعشى؟ فلماذا لم يكن الأعشى يخطئ في اللغة؟

وظيفـة الفصحـى أن تصلنـا بتراثنا الأدبـي، وأن تجعلنا نفـرح بوجود عمـق حضـاري وثقافـي عريـق، ووظيفتهـا أن تجعلنـا نكتسـب العلـوم والمعـارف مـن الكتب ومـن التلفزيـون والراديو والإنترنـت، وأن تجعل أقاليمنا اللهجية المختلفة تستفيد بعضها من بعض. فلو كتب كل الأدباء المغاربة باللهجة المغربية، وكل العلماء العراقيين باللهجة العراقية، وكل الفلاسفة اللبنانيين باللهجة اللبنانية، لخسر كل إقليم من هذه الأقاليم أدبًا وعلمًا وفلسفةً.

الفصحـى ضـرورة. وتعليمنا لها بالطريقـة البالية يجعلنـا ضعافًا فيها، مرعوبين نفكر بالضمة والفتحة طول الوقت، ويجعلنا لا نعبر عن أنفسـنا تعبيرًا مرتاحًا. نعم، لست ألوم محاضرًا مهمًّا يقف أمام الجمهور ويتكلم بخليـط مـن الفصحـى والعاميـة. ولا ألوم علماءنـا وأسـاتذتنا الجامعيين عندما يتعاملون مع المقالات العلمية والفكرية بكثير من الوجل اللغوي. ترى الأستاذ الجامعي الذي يدرس علم الاجتماع يبحث عمن يصحح له بحثه، وتجده مرتبكًا وخجلًا من نفسـه. ويحلف لك بالله العظيم أنه كان أسـهل عليـه لو كتـب ذلك البحـث (وموضوعه المجتمع العربـي) باللغة الإنجليزية.

قـد اشـتغلت بعض الوقت مـع مركز أبحاث مهم وحقيقـي -وما أكثر مراكـز الأبحاث التي هـي دكاكين لاصطياد الميزانيـات- رأيت الباحثين يقفـون مكبلـي اليديـن بإزاء اللغـة العربية. يكتبـون كلامًا مليئًـا بالأخطاء النحوية والأسلوبية. وما أكثر ما وجدت بينهم من يرجوني رجاءً حارًّا أن أقسو عليه في التصحيح؛ لأنه يشعر أن النص لا يُعَبِّرُ عن فكرته. ذلك أنه درس العربية دراسـة عقيمة، وحاول معلِّموه أن يحشـوا في رأسـه النحو

والصرف حشوًا، فحفظ ما أرادوه على حفظه ونجح في الامتحانات ثم لم يبق في يده من النحو والصرف شيء، ولم يمر به من النصوص الجميلة ما يكفي لجعل العربية الفصحى سلسةً على سنِّ قلمه أو على لسانه.

قبل بضعة أيام صحَّحت نصًا طوله ١٢٧ صفحة. كتبه شخص يحمل شهادة الماجستير من جامعة عربية، رجل درس علومه باللغة العربية في كل مراحل التعليم. وجدت في النص اثني عشر ألفًا وأربعمئة غلطة (مع احتساب الفواصل والواوات المفصولة عما بعدها). وبعثت إليه بالنص مصححًا مع بيان الأغلاط على برنامج البالونات التصحيحية. النص اقتصادي، والرجل اقتصادي، ويعرف علمه جيدًا. لكنه ببساطة لا يعرف شيئًا من قواعد الإملاء والنحو، ولا التاء المربوطة ولا الهمزة ولا شيء، لا شيء.

ربما كان السبب في تفوق الخرِّيجين القدامى في اللغة العربية أنهم كانوا يقرأون أكثر، قصدت المطالعة الحرة المسترخية، حين ينسجم المرء مع كتاب أو رواية ويعيش أحداثها ويتشرب -وهو منسجم- لغتها تشربًا. فالمطالعة الحرة غير القسرية تجعل المرء يعيش اللغة، فيفرح ويحزن ويغضب وهو يعيش أجواء رواية معينة، أو كتاب تاريخ. وربما كان هناك سبب آخر وهو أن طريقة تدريس اللغة في الخمسينيات وما قبلها كانت تعتمد على الأذن أكثر مما هي الحال الآن، والأذن في مسألة اللغة أهم من العين. كانوا يقرأون قراءة جهرية أكثر بكثير مما يفعلون اليوم. كان الأساتذة يتذوقون القراءة السليمة ويحملون الطلبة على القراءة واحدًا بعد واحد، والويل لمن اسمه يبدأ بالهمزة. كان النموذج الإعلامي هو الإذاعة، وكان الناس يحترمون قُرَّاءَ نشرات الأخبار الذين يتلون نشراتهم بلغة سليمة

ومخارج فخمة. والقراءة الكثيرة تُدخل في الآذان أساليب اللغة المختلفة فتصبح هذه الأساليب جزءًا من اللاوعي، وما أسهل أن يستحضرها المرء فيما بعد. فأما تعليم اللغة عن طريق العين فليس الشيء الطبيعي. ولئن رأينا كتب الأوروبيين المدرسية لتعليم اللغة مليئة بالصور والألوان فهذا من قبيل تسلية الطالب، وتحبيب الكتاب إلى نفسه. فأما المنهاج الفلسطيني فقد فهم مسألة التعليم بالعين فهمًا آخر. فهو يقطِّع أوصال النصوص تقطيعًا، ويلون الكلمات الصعبة بألوان مختلفة فيخرجها بذلك من جسم النص، ويدعو الطالب دعوة ملحة إلى حفظها بمعزل عن النص، ويضع في كل درس الجداول الكثيرة، حتى ليكاد شكل الصفحة يكون أحجية هندسية. ثمة تفتيت للنص يبعده عن طبيعة اللغة. هناك سعي منظم لاغتيال النص وتقطيع أوصاله، ولا بد لعملية مهمة كهذه من إشراف المؤلفين على الطباعة ... يعطيهم ربي الصحة!

الحفظ: كان القدماء يحفظون أشعارًا أكثر مما يحفظ طلبتُنَا الآن. وكانوا أيضًا يحفظون الأحاديث النبوية والآيات والأشعار. والآن ماذا يحفظ طلبتنا؟ يحفظون النقاط والبنود. يحفظون الآن كل شيء لا لزوم لحفظه، وسيتم نسيانه فور الفراغ من أداء الامتحان، ولا يحفظون جسم اللغة وهو النص. يحفظون تشريح اللغة وعظامها وأشلاءها، ولا يحفظون صورتها المكتملة كخلق سوي. وفارق بين الراعي الذي يرى خروفه خِلقًا سويًّا، وبين الجزار الذي يراه، بين الساطور والوَضَم، أوصالًا.

الحفظ مهم، لكي ترسخ في الذهن صورةُ اللغة الفصحى؛ ذلك أنها لغة لا يستعملها المرء منذ طفولته الباكرة، فليست مسكوبة في ذهنه سكبًا، وهي محتاجة إلى بعض الحفظ القسري.

في العامية نحفظ بعض أبيات الشعر الشعبي لكي نغنيها أو لكي نتذاكر بها في مجالسنا، ونحفظ الأمثال. يأتي هذا الحفظ للأدب العامي تلقائيًا، ويحفظ الإنجليزي أمثاله الشعبية، ويحفظ بعض العبارات البليغة أو الطريفة، ويحفظ أغاني الطفولة ويغنيها. فنحن وهم في هذا سواء. ويحفظون عددًا لا بأس به من أبيات شكسبير، وبعض آيات من الكتاب المقدس.

كانوا يبالغون في الحفظ. وكنا. وكان أجدادنا، نحن العرب، يعدون الحفظ أساسًا في العلم. فالعلم ما وعت الصدور لا ما وعت القماطر والدفاتر. كان رأسمال العالم ذاكرته. فإذا احتفظ في بيته بكتب كثيرة أخفاها خجلًا.

وجاء غوغل، وقبله جاءت الطباعة. وتغير وجه الدنيا. فهل انتفت الحاجة إلى الحفظ؟ ليس تمامًا. ليس معقولًا أن أراجع غوغل مئات المرات لكتابة مقالة عن نزار قباني. عليَّ أن أحفظ له عددًا من الأبيات من هنا وهناك.

الحفظ ضروري حتى في الأرقام، ونعم ... في التواريخ. فأنا محتاج إلى حفظ سنوات كثيرة: قيام وانتهاء الحروب الكبرى، وسنة وفاة زعيم مهم، وما إلى ذلك. فهذا يساعدني في فهم العلاقات بين الأحداث. وفي اللغة؛ فالحفظ يساعد في ترسيخ الأسلوب. فهل نحفظ أشياء لا نفهمها؟ هذا عبث فيما أرى ... اللهم إلا إذا كان للتفكه ببيت شعر معقد أو عبارة رقيعة من عبارات النحاة. ذلك للتسلية. فهل نحفظ قصيدة طويلة للمتنبي؟ الأجدر أن نحفظ أبياتًا له متفرقة.

وتسألني: «وماذا عن حفظ ألفية ابن مالك؟» وجوابي: «لهذا الأمر ولأمثاله نسمي القرون الثمانية الماضية «عصر الانحطاط». ولست أظنك جادًّا في هذا السؤال».

طريقة إتقان اللغة العربية مدرسيًّا هي أن نُقرئ الطالب صفحات كثيرة: قراءة بريئة، قراءة محثوثًا عليها بالرغبة، قراءة بعينيه يقرأها في بيته، وقراءة جهرية يقدمها في حفل خطابي أو في قاعة الصف، أو في تمثيلية، وقراءة أخرى متمعنة مع شرح وتفسير لنصوص تاريخية أو حقوقية، فلا بأس أبدًا بأن يقرأ الطلبة بمساعدة المعلم نص مادة دستورية، أو معاهدة، أو نصًّا صعبًا للجاحظ.

لكنني أحب أن أفصِل عن كل هذه القراءات المدرسية نوعًا آخر أسميه «المطالعة». والمطالعة تبدأ من سنّ الثانية. فجدير بالطفل في عمر سنتين أن يحمل الكتاب ويتفرج على صوره، وأن يتعود على وجود كتب في الدنيا. ويتدرج بعد ذلك. وجدير بالفتى في عمر الرابعة عشرة أن يطالع عشرات الكتب التي لا علاقة لها بالمدرسة ولا بنشاطات المدرسة. يمكن لمكتبة المدرسة أن تحثه على ذلك بتوفير الفرصة، ويمكن للمعلم أن يقدم الإرشاد. ولكن، أين هذا المعلم؟ فإن توافر فهذا طيب، وإلا فلنضع بين أيدي طلبتنا الكتب الكثيرة. ولنتركهم وشأنهم. سيطالع كثيرون منهم لا محالة.

ولماذا المطالعة؟ هناك طالب مبدع في الكيمياء ويريد أن يصبح صيدليًّا. ارحمه يا أخي من العربية الجيدة التي صدعتنا بها!

الهدف من العربية الجيدة أن يتمكن الطالب -وفي سنٍّ مبكرة- من مطالعة الكتب والمقالات والمجلات والموضوعات المختلفة وبغزارة. الفصحى الجيدة ستساعد الفتى في سنٍّ مبكرة على أن يغترف مئات الصفحات من الكتب، وفي هذه الصفحات علم كثير وفن وأدب وفيها حياة ومجتمع ووعي. سيصبح مثقفًا، وعارفًا بشؤون دنياه. السنوات الباكرة التي يلامس فيها الكتاب العقل وهو طري تجعل الفتى ينشأ نشأة عقلية ومعرفية قوية. إن الذي يشتري الأراضي في وقت باكر يحصد الأموال الطائلة عندما يصبح سعر الأرض نارًا فيما بعد. وكذا الطفل الذي يبدأ القراءة باكرًا، فهو سيتمكن من امتلاك مهارة القراءة السريعة، وسيضع أساسًا متينًا يراكم فوقه الكثير من المعارف والتجارب. فأما إذا اكتفى بالمواد المدرسية المحدودة، وظل يخاف من الكتب غير المقرَّرة، ويؤجل أمرها إلى حين دخوله الجامعة، فسوف يحافظ على خوفه هذا، وسيدخل الجامعة وهو هيَّاب من الكتاب، وسيتخرج منها وهو ضحل الثقافة. الصيدلي محتاج إلى الثقافة. محتاج إلى معرفة مجتمعه، وإلى أن يكون إنسانًا واعيًا. الصيدلي ليس آلة تركِّب الدواء أو تبيعه. هو أحيانًا تاجر، وأحيانًا نصف طبيب، وأحيانًا خبير نفساني ولا سيما إن كان يعمل في مستوصف القرية، والصيدلي سيكون عضوًا في نقابته وسيتعين عليه فهم قوانين البلد وقوانين المهنة. باختصار كل إنسان محتاج إلى المطالعة الحرة.

أحرام على الصيدلي أن يقرأ رواية لنجيب محفوظ أو لغسان كنفاني ويستمتع بهما؟

والعربيـة الجيـدة سـتمكّن التلميـذ مـن قـراءة الخبـر والمقـال والنقد الاجتماعي والسياسي على الإنترنت. وسيدخل في بعض التفاصيل التي تـدور فـي المجتمـع باكرًا، وفـي هذا ما فيه مـن تنمية الوعـي الاجتماعي والسياسي.

ولن أزيد في هذا الحقل، فقد أوسعته حرثًا من قبل. غير أنه لن يفوتني التأكيد على الحاجة الماسة إلى تعلُّم اللغة الأجنبية، وبشكل أفضل بكثير مما يتم الآن في المدارس. ولمن يرى رأي الجاحظ من أن اللغة الجديدة تُدخـل الضَّيـم علـى اللغـة الأم نقـول: «حنانيـك، فهـذا ابـن المقفع قبل الجاحظ بنحو مئة سنة كان يُحسن من الفارسية بقدر ما يُحسن من العربية. وهـذا العقـاد بعـد الجاحظ بألف سـنة كان يسـتقي جـل معارفـه الفكرية والعلميـة والتاريخيـة من الكتب الإنجليزية، وكان مـن كبار الفصحاء في العربية».

الأصـل اللغـة الأم. كن قويًّا في العربيـة، ولا تحمل هم اللغة الأجنبية فسوف تأخذ منها بقدر ما تحتاج بسهولة إن أردت.

أو ادرس اللغـة الأجنبية واحتقـر لغتك، ثم عش حياتك وأنت ترقص على السلم.

مايو/ أيار ٢٠١٢

أنا وأنت واللغة الإنجليزية

أكتب شيئًا عن قضية من قضايانا الثقافية والتعليمية أم أنفق النصف ساعة المقبلة في تنظيف لوحة المفاتيح في هذا الحاسوب؟ لقد اندسَّت تحت مفاتيح الأحرف فتافيت خبز، وسنانيف من قشور بزر البطيخ الذي أتسلى به، وشَعر وغبار. وصار الحرف لا يظهر على الشاشة إلا بعد جهد.

بل أكتب في قضية ثقافية تعليمية. اكتشفتُ فجأة هذا المساء أن غدًا الجمعة، وأنني يجب أن أسهر الليلة. فأنا أريد تضييع بعض الوقت؛ لهذا أكتب. فهل تريد إضاعة عشر دقائق معي؟ لعلك تكسب فكرة، ولعلك تتسلى.

أقدِّم لك القضية ثم أوراق اعتمادي، ثم أسرح بك في حقل معشوشب بأفكار بعضها صيغ في لهجة التقرير الجازم، وبعضها وضع في خانة المشكوك فيه.

القضية هي نحن واللغة الأجنبية. وأقصد بنحن: العرب، وأقصد بالعرب: من شاء لهم حُسنُ الطالع أو سُوؤه أن تكون العربية لغتهم الأولى.

أيكون المرء مثقفًا ولا يعرف سوى العربية؟ أيحسن بنا أن نتعلَّم اللغة الأجنبية، وأن ننفق وقتًا ثمينًا في هذا المسعى؟ أمن الحكمة أن نجعل اللغة الأجنبية لغة تدريس لبعض الدروس، أو لكلها، ولبعض السنوات أو لكلها؟

توقفٌ عن الكتابة، فتخزين للأسطر السابقة. لا بُد من تنظيف لوحة المفاتيح لأنني أدق الحروف فبعضها يظهر، وبعضٌ يستعصي، وأعود القهقرى لأصلح الكلمة وتضيع الأفكار.

إن عدت إليك فهذا هذا، وستراه؛ وإن كانت الأخرى فها أنا أكلم نفسي.

تخزين.

عودة. أقول لك الحق: «وجدت تحت مفتاح الشفت الأيسر وحده مَزبلةً». وأعفيك من وصف قلع المفاتيح واحدًا واحدًا ثم بعد ذلك تركيبها.

هذه أوراق اعتمادي: أنا ممن درَسوا في مدارس الحكومة. وقد تعلمتُ القليل من الإنجليزية شأن أبناء مدارس الحكومة في الأردن وفلسطين. وفي الجامعة درست اللغة العربية.

لستُ من الموهوبين لغويًا. (أطمئنك إلى أن لوحة المفاتيح تعمل بسلاسة عجيبة، وأصابعي فرحة وهي تجري فوق اللوحة - أقصد: السبابتان فرحتان - على أن الأفكار طارت أو كادت، وقد آتي بعد قليل بحفنة بزر لكي أعيد القريحة إلى سابق عهدها).

كنت أقول لك ضمن تقديمي أوراق اعتمادي، وشهادة صلاحي للكتابة في هذا الموضوع: إنني ابتعدتُ عن اللغة الإنجليزية، فأنا غير موهوب في اللغات أصلًا. واللغة الأجنبية في كل بلاد الدنيا موضوع يحبه ولد واحد في الفصل المدرسي، ويكرهه كل الأولاد (يكرهون الموضوع، ويكرهون الولد).

نظرتُ إلى الإنجليزية نظرتين: أولاهما نظرة «السكان الأصليين» الذين يتعلقون بلغة المستعمِر. والثانية نظرة الطُّلَعة الشغوف بالتعرف إلى ما في العالم من أشياء. ومكثت هاتان النظرتان في نفسي حتى يومنا هذا. لن تخرج من ذهنية القابع تحت الاستعمار بخروج جيش الإنجليز من بلدك. بل تظل أنت وأولادك وربما أحفادك مستعمَرين ذهنيًّا. تظل ترى دولة الانتداب البائد المثل الأعلى. حتى اليوم عندي هذه العقدة، ولم أشهد الانتداب الإنجليزي بنفسي. ولو حفرتم قبري عندما أموت وأبلى وفركتم قِحفًا من أقحاف جمجمتي فسوف تجدون رائحة قوية نفاذة غير مستحبة، إنها رائحة تلك العقدة.

وبين حب التعلم وقوة التعلق بلغة أسيادنا السابقين رحت أنفق الساعات في مطالعة صفحات في الكتب الإنجليزية، وهَرَأتُ ثلاثة قواميس. ظللت أسعى إلى أن تصبح إنجليزيتي كعربيتي. وعندما سمعتُ مرة أن ثمة سقفًا لا يتخطاه المرء في معرفته اللغة الأجنبية حزنت، لكن استرحت.

صرت أستفيد معلومات عن العالم أكثر فأكثر بتطور معرفتي بالإنجليزية، وهذا شجعني على المضي. وعندما كنت في الثالثة والثلاثين حصلت على وظيفة في لندن مترجمًا في إذاعة لندن التي كانت مهمة ومشهورة آنذاك.

وعشت في لندن قرابة عشر سنوات، عملت فيها مترجمًا ومذيعًا ومحررًا ومديرًا للبرامج. ثم عملت أربع سنوات في فلسطين مراسلًا للإذاعة نفسها.

فهـذا دور جديد في معرفتي باللغـة الإنجليزية، وفي معرفتي بحكايتي معها. فأنا الآن قد عرفت أكثر كيف أنظر إليها، وما الذي أريده منها. أتقنتُها أكثر بلا شـك، واقتربت من سـقف قصوري. صار حفظ معنى كلمة معينة يقتضيني جهدًا أكبر. زاد إحباطي.

أنـا أعـرف الكلمة العربية الفصحـى؛ لأنها ارتبطت بمعناهـا ارتباطًا لا انفـكاك لـه في ذهنـي. فقد قرأتهـا صبيًّا غافلًا عـن أن اللغة وعـاء، أو أنها عنصـر مـن عناصـر الفكر، أو أي شـيء من هـذا. قرأتها صبيًّـا يلهث وراء تفاصيل حكاية يريد أن يعرف آخرها، قرأتها وأنا مشحون بحب الاستطلاع، والتصقت الكلمة في ذهني بمعناها. وأعرف الكلمة العربية العامية؛ لأنها جاءتنـي فـي مواقـف حياتية فرِحـتُ فيها وغضبت وحزنـت ومررت بكل شـعور. فالتصقت التصاقًا وثيقًا بوجدانـي. وعندما عاقرت الإنجليزية في بلادهـا عرفت من خلالها أشـياء جديدة ومررت بمواقـف جديدة. لكنني كنـت تعديـت الثلاثين. نعم، في بعض الأحيان تخطـر المفردة الإنجليزية ببالي قبل العربية. ونعم، أفكر قليلًا بالإنجليزية. ولكن سـتظل بالنسبة لي لغة أجنبية.

أقرأ بالإنجليزية، لكن ببطء. وأفهم كثيرًا، لكن ليس كل شيء. وترقص الأحـرف أمـام عينـي، وأشـرع أحيانًا في التهجـي إذ لا تتـراءى لي الكلمة صورة بل مجرد مجموعة أحرف. ولا أسـتغني عن القاموس إلا في قراءة خبـر أو تعليق سياسـي. هي أداة نافعـة. أنتفع بها كثيرًا، وأوسـع بها أفقي. ولكنني أفضل أن أنتظر صدور الكتاب مترجَمًا بالعربية. أحيانًا أعضُّ على شـفتي إن كان المترجـم مهملًا. وأحيانًا أتوق إلـى النص الأصلي لأعرف ماذا قال المؤلف بالضبط.

شقيت مع اللغة الإنجليزية وما زلت أشقى. ولأن معرفة هذا العالم تقتضي قراءة كتب كثيرة ومجلات وجرائد ومقالات بالعشرات في الإنترنت، فإنني محبط باستمرار لبطء قراءتي في الإنجليزية ولتعسر كثير من المفردات عليَّ. أقول هذا وأنا من قضى عشر سنوات في لندن بدأها مترجمًا، وعاشها بالطول والعرض متعلِّمًا قارئًا كاتبًا حاضرًا اجتماعات لا حصر لها، مشاهدًا التلفاز الإنجليزي، في زمن لم تكن فيه فضائيات عربية.

فهل سينال جميع الناس فرصة العمل عشر سنوات في لندن؟ وإذا كانت هذه معاناة رجل نال هذه الفرصة فكيف نطالب كل مثقف عربي بأن يتقن لغة أجنبية؟ ليس كل مثقف فرنسي يعرف لغة أجنبية، وبالتأكيد ليس كل مثقف إنجليزي يعرف لغة أخرى. والياباني يتعلم علومه باليابانية، والألماني بالألمانية. كل إنسان يتثقف بلغته، وبها يتعلم. فإن كان عدد من مثقفي البلد محتاجًا إلى لغة أجنبية لغرض علمي أو ثقافي فهذا هذا؛ وإلا فالافتراض المنطقي هو أن الإنسان يكتفي بلغته الأم ويكون مثقفًا ومتعلمًا كأحسن ما يكون. هذا في عدد محدود من البلدان. الأمر مع العربية مختلف بعض الشيء.

العربية ليس فيها كل شيء. هي أحسن حظًّا من السواحيلية؛ لأنها أوسع انتشارًا وتجد فيها كتبًا كثيرة مترجمة عن اللغات الأجنبية. لكن أهل العربية قاصرون علميًا في عصرنا، وهم متخلفون في الفكر السياسي. تريد أن تقرأ مقالًا لتفهم منه ما يجري في إيران فتجد مقالات لكتاب عرب، بعضهم متخصص في الشأن الإيراني، لكنهم لا يشفون غليلك. فإذا التمست شيئًا عن الموضوع بالإنجليزية فستجد تشكيلة أوسع وخبراء

أغـزر علمًـا وتجربة، ومقـالات وكتبًا كثيـرة عن إيران مترجمـة عن لغات كثيرة. فالإنجليزية نافذة تنفتح على لغات كثيرة أخرى.

لو أنني حصرتُ نفسـي في عقدتي، لو أنني ظللت مصممًا على إتقان اللغة الإنجليزية كأهلها فقط لكي أُشبه المستعمِر البائد، لو أنني أردت هذه اللغـة مـن أجـل إرضاء شـعوري الملح بأننـي مثلهم، لو أننـي أردتها لكي أتجمل بمعرفتها بين أقراني، لما انتفعت بها كبير انتفاع، ولما تعلمت منها سوى تعابير دارجة يكثر جريانها في المحادثة. لكنني نظرت إلى الإنجليزية النظـرة الأخـرى: أردتها أداة نافعـة، فتعلمت مفردات الكتـاب والجريدة، وفي هذه المفردات كثيرٌ مما لا يَرِدُ في الحديث اليومي مهما علا مستواه. كثيرة جدًّا هي الكلمات التي لم يسمعها قطُّ أبناء الإنجليزية بآذانهم ... بل عرفوها فقط بعيونهم على صفحة الكتاب.

فكيـف نُعَلِّـم الإنجليزيـة للطلبـة في مدارسـنا؟ وكيف ننظـر إلى اللغة الأجنبية بوصفها أداةً لتحسين أحوالنا والنهوض ببلادنا.

نقطـة انطـلاق أولى: اللغة الأم هي الأسـاس، ويجـب أن تظل كذلك. والشعب الذي يهرب من لسانه لا يستحق أن ينتمي إلى نفسه، بل يجب أن يصبح خادمًا لشعب آخر.

الناطقون بالعربية، لغةً أولى، ماضون في تعليـم أولادهـم في المدارس الأجنبية بحماسـة كبيرة لكي يُشـغِّلوهم سـكرتيري السماسرة في شركات الاسـتيراد. والتعليم الحكومي ينحدر بنفس السرعة التي ينحدر بها وضع المعلِّـم المالي والاجتماعي. والمدارس الأجنبية أو المتأجنبة هي بالفعل أفضل تدريسًا وأحسن تهذيبًا للطلبة من مدارس الحكومة.

لـن نتحـدث كثيـرًا عن هذه الطبقـة المتوسـطة التي ترسـل أبناءها إلى المـدارس التـي تحتقر اللغة العربية. هـم يعرفون مصلحتهم. لا بد أن لهم سـببًا حقيقيًّـا. إنهـم يسـيرون علـى بوصلـة المصلحـة، وهـي خيـر لهـم ولأولادهم من كل أفكاري.

المجتمعات العربية تبيع أثاث البيت: تبيع موادها الخام، وتبيع موقعها الجغرافي، وتبيع حُلمها بالنهوض مقابل سيولة مالية بسيطة تذهب للطبقة الغنية، وتستفيد منها طبقة وسطى تسعى بجدٍّ كبير للعمل سكرتيرةَ سمسار، فالطبقـة الوسطى لن يتـاح لأبنائها حتى أن يكونوا سماسـرة. لهم فقط أن يكونوا محاسبين في البنوك الأجنبية أو المشتركة، وموظفين في الشركات والـوكالات والجمعيـات غيـر الحكوميـة، ومترجميـن لمراسـل تلفزيون السي إن إن أو للجيش الأجنبي المحتل، وكَتَبَة عرضحال مودرن، أي كتبة مقترحات مشـاريع تقدمها الجمعيات غير الحكومية للحكومات الأجنبية لنَيل فتات من المسـاعدات. أما السماسـرة الحقيقيون فهم حفنة من كبار الأغنياء يقومون ببيع البلاد العربية بيعة وَكس، أي بثمن بخس، للأجنبي.

كان الانتـداب البريطاني جادًّا في تعليم الفلسـطينيين لغته لكي يعملوا وسطاء بين الجيش المحتل وبين الناس. وكان يعلّمهم ما يكفيهم فحسب. ولم يسـع إلى ضمهم إلى ثقافته؛ ذلك أن مسـح لغة شـعب من ألسنة أبنائه وإحـلال لغـة أخـرى محلهـا أمـر يحتاج إلـى مئات السـنين، والمسـتعمر الإنجليزي -بخلاف الفرنسي في الجزائر- لم يُرد ذلك أصلًا.

رأيـت عربًـا يتصببون عرقًا جاهديـن في تعلم اللغـة الإنجليزية. رأيت منهـم مـن يصارع ذهنه ولسـانه كي ينطـق بها كما ينطق بهـا أهلُها. وكلهم

رأيت سقفه. فأما العربي الذي وُلد ونشأ في بلاد أخرى فهذا ليس موضوعي. عليه أن يجاهد في الاتجاه المضاد، هذا إذا أراد.

أريد أن أعتذر عما أسرفت فيه من الحديث عن نفسي، فليس هذا مما أراه في المقالات المحترمة. على أنني أشفع الاعتذار بسبب: قد اتخذت تجربتي في هذا الموضوع أداة لفهمه.

مرة أخرى، ماذا نريد من اللغة الأجنبية؟ نريدها وحسب. لكن لا بأس من فهم حاجتنا إليها. الحاجة السمسارية قائمة. وعندما سيسألني زميلي أحمد غدًا عن ولده سأقول له: «ضعه في مدرسة إنجليزية، واحرص على تعليمه بعض العربية في البيت»، فسكرتير السمسار محتاج إلى العربية أيضًا. دعه يتعلم من الإنجليزية عبارات المحادثة اليومية، وليتعلم في الجامعة -في إحدى الجامعات المستوردة- تعبيرات البزنس. وأما شكسبير والفلسفة والكتب السياسية والفكرية العميقة فلن يحتاج إليها، ولن يحصل عليها.

أنا أدرك أن الطبقة الوسطى معها حقٌّ في الاهتمام بإنجليزية أبنائها أكثر من اهتمامها بتعليمهم العلم والفن والأدب. ونهوض بلادنا لن يتم في المستقبل المنظور.

خرّيجو المدارس الأجنبية يكتبون الإيميلات بالإنجليزية بطلاقة، فإذا كُلِّفُوا بكتابة رسالة من سطرين بالعربية أخذوا يلفون من مكتب إلى مكتب يلتمسون واحدًا «شاطرًا بالعربي». وإنجليزيتهم، بالمناسبة، أحقر من أن تتيح لهم فهم مقال لروبرت فيسك.

قد كنتُ وعدتُ أن أُمسك عن ذم سكرتاريا السماسرة، وآن أن أفي؛ ليس لأنني قضيت شهوتي من هَجوهم، فهي شهوةٌ نار، بل لأنني أريد أن

أتكلم عن سواد الناس، عن خيارات الناس الآخرين، وعن خيارات الحكومات، وأهل التخطيط.

ما تقوم به المجامعُ اللغويةُ ليس تافهًا، وإن نال فوق نصيبه من سخرية المثقفين والجهلة جميعًا. في دمشق والقاهرة والرباط علماء ولغويون جادون، وهم يطبعون المعاجم في شتى العلوم، ويسعون إلى التعريب سعيًا حثيثًا -وأحيانًا سريعًا- وهم معتدلون، يأخذون اللفظة الأجنبية إن كان لا بد من ذلك، ويضفون عليها جرس اللغة العربية، ويحاولون إيجاد بديل عربي. لكنهم، على سرعتهم، لن يستطيعوا اللحاق بالتطورات التقنية. ولا فائدة من تسمية هاتف بلاك بيري بالعُلَّيقة لأن هذا الهاتف سيندثر بعد حين، ولأن الاسم تجاري، ولأنه هكذا يعرف في كل العالم. ولا حاجة لتبديل كلمة الجلفنة، وهي الطلاء بالزنك، ووضع كلمة أعرابية مكانها، فالكلمة منسوبة إلى الإيطالي لويجي جالفاني.

المسألة ليست تعريب الألفاظ الجديدة. فحتى الأكاديميا الفرنسية التي صيغ على مثالها، واتخذ لقبها، «مجمع الخالدين» بمصر، تقف مبهورة الأنفاس أمام المفردات الجديدة التي لا تفتأ تغزو اللغة الفرنسية رغم غيرة القوم الشديدة على لسانهم. العالم يقترب بعضه من بعض، واللغة الإنجليزية أصبحت الوسيط اللساني الأول لكل الدنيا. وهي تأخذ من اللغات الأخرى بسهولة، ولا تنكر على المخترِع اختراعه، ولا على المكتشف اكتشافه، فما اكتشفه العرب في الفلك دخل الإنجليزية بأسمائه العربية، والمآكل والملابس الفرنسية تأخذ في الإنجليزية أسماء فرنسية.

إقبالنـا على الإنجليزية أو إدبارنـا عنها منوطان بالهدف من وراء ذلك. حسنٌ أن يتقنها عدد كبير لكي يترجموا لنا العلوم. وحسنٌ أن يتقنها الطبيب لكي يواصل تطوير معارفه، وحسنٌ أن يتقنها المثقف حتى يقلع عن رصف العبـارات الغبيـة. فأنت تعلم أن من يتقن لغة أجنبيـة يتورع عن كتابة كلام غـثٍّ بلغتـه. فهو يرى، وإن في عقله الباطن، كلامه مترجمًا ويرى كيف أن كلامه المنمق يصبح سـخيفًا عندما ينقل إلى لغة أخرى. وحسـنٌ أن يتقنها كلُّ مـن يعمـل في الدبلوماسـية وفي التخطيـط وفي مجال الطيـران، وفي تصليح السـيارات. قـد عدنا إلى القول: «إن كل عربـي يجب أن يأخذ من الإنجليزية بنصيب».

الإنجليزية البسـيطة التي لا تقتضي لإتقانها جهدًا كبيرًا يجب أن تصل إلى كل تلميذ مع نهاية المدرسـة. وهذا الشـخص قد يقف في دراسته عند هذا الحد. فإذا فتح الإنترنت ليتثقف أو ليتسلى عرف كيف يعالج التنزيلات والتحديثـات، وعـرف طريقَه وسـط غابة الإنترنـت. وإذا عمل في تصليح السـيارات تمكـن بمـا عنده مـن إنجليزية المدرسـة من فهم دليل الشـركة الصانعة للسيارة، واستطاع أن يتعامل بسهولة مع البشر، فهو قد يذهب إلى ألمانيا لإحضار سـيارة مسـتعملة -شـيء كانـوا يفعلونه كثيـرًا في النصف الثانـي من القرن العشـرين- فعندئذ سـيتمكن من التفاهـم مع الناس هناك دون أن يزعج الطلبة العرب في ألمانيا ويجرهم وراءه كي يترجموا له.

والطالـب الجامعـي مطالـب -مهمـا كان تخصصـه- بالتقـدم أكثر في الإنجليزيـة. مطالـب بـأن يتمكـن من قراءة خبـر في جريدة، مع اسـتعمال القامـوس. ومطالـب بأن يتمكـن من شـرح مَرافق جامعتـه لضيف أجنبي بكلمات بسيطة، ومطالب بأن يسـتعمل الإنترنت بشـكل أوسع من الذي

وصل إليه عند نهاية المدرسة. خرّيج الجامعة –حتى لو كان من تخصص اللغة العربية– يجب أن يمتلك من الإنجليزية ما يكفي لحشره في زمرة المتعلّمين. والجامعي الأعلى من درجة البكالوريوس، مُطالَب بأكثر؛ ومن يحصل على شهادة الدكتوراه يجب أن تكون إنجليزيته جيدة لكي يستطيع التقدم في علمه، حتى حامل الدكتوراه في النحو العربي لا يستغني عن نظريات لسانية مهمة موجود عنها الكثير في الإنجليزية وليس مترجمًا منه إلا القليل. أفهم أن يكون حامل الدكتوراه الأمريكي لا يجيد غير لغته، ولكنني لا أتقبل حامل دكتوراه عربيًا لا يعرف سوى لغته العربية. فالأمريكي الذي يحمل دكتوراه في الكمبيوتر أو الهندسة أو الأدب الإنجليزي يستطيع أن يطور علومه وأن يبتدع في مجالاته الجديد من خلال لغته الإنجليزية، فأما العربي فهو لن يجد الإضافات العلمية الحديثة باللغة العربية، ولا يحسن به الانتظار سنوات طويلة حتى تترجم هذه الإضافات.

الذي يحمل دكتوراه في الشريعة يُدعى إلى مؤتمرات مهمة ناطقة بالإنجليزية، طبعًا يوفرون له ترجمةً فورية في الجلسات العامة، ولكن أهم ما في المؤتمرات تلك اللقاءات الصغيرة على هامش المؤتمر في قاعة الشاي وفي المطاعم، وعلى مائدة الإفطار في الفندق. هذه هي التي تعقد أواصر المعرفة العلمية بين الناس، ويجري فيها أحيانًا تبادلُ الأفكار بشكل أفيد مما يجري في الجلسات العامة، ثم إنك تعرف أن الترجمة الفورية تعرض لك جثة الموضوع لا جسمه.

الشاعر معفى من إتقان أية لغة غير لغته. اذهب أيها الشاعر وتغنَّ بلغتك حتى تشبع.

هنـاك درجـات في إتقان اللغـة الأجنبية. ومفيد أن تعـرف ما تريده من هـذه اللغـة. ومـن المهـم أن تبذل الجهد مدفوعًا بالسـعي إلـى نيل الحصة المطلوبة التي تفيدك في حياتك، وألا تكون مدفوعًا بعقدة النقص. فعقدة النقص تجعلك تركز على ما هو سطحي.

تحدثـت فقـط عن الإنجليزية لأنها أهم وسـيط عالمـي. انظر فقط إلى لبنان وكيف يتحول إلى الإنجليزية على حسـاب الفرنسية. هذا والفرنسية وسـيط قوي بالطبع، وتقترب منها الإسـبانية. لكنني لا أنصح أحدًا بإنفاق وقتـه فـي تعلم الألمانية. قد فعلت هذا، وأضعت بضع سـنين، ورغم أنني ترجمت إلى العربية كتابًا عن الألمانية لم يكن متاحًا بأية لغة أخرى وكان ضروريًا لطلبتي أيام كنت أعلِّم في جامعة، فإنني أزعم أن استفادتي منها لا تسـاوي جـزءًا من تعبـي في تعلمها. فإن كنت تعيش فـي ألمانيا فهذا هذا؛ وإلا فلا تتعب نفسك.

لا نطالب العربي بأن يتقن الإنجليزية إتقانًا كبيرًا. ذلك غير ميسـور إلا إذا عـاش فـي بلد يتكلمها. يكفيه أن يأخذ منها النصيب الذي يسـاعده في عمله وبحثه.

مـن واجـب المـدارس أن تعقد ورشـات المحادثـة، وأن تعطي الطلبة القصـص والحكايـات البسـيطة بالإنجليزيـة بغـزارة، وأن تنسـى حكايـة القواعد. بالله عليكم لا تحاولوا تكرار مصيبتنا في تعليم النحو العربي.

كان المعلم يصدع رؤوسـنا بمصطلحات النحو الإنجليزي؛، ثم ذهبنا إلـى بـلاد الإنجليز ورأيناهـم لا يعرفون منها شـيئًا، لا المثقف يعرفها ولا رجل الشارع. نحن في نحو لغتهم أبرع منهم، هذه حقيقة، لعلك سمعتها

مـن قبـل. اللغة شـيء غيـر القواعد. نقـول لواضـع منهـاج الإنجليزية في مدارسـنا: ضع وسائل توضيح تجعلهم يسـمعون اللغة الأجنبية في سياق حيـوي، واجعلهـم ينطقـون عباراتهـا عـن طريـق التـرداد والتنغيـم، ترداد جماعـي أو فـردي، واجعلهم يتحادثـون بها في ألعاب بسـيطة، واجعلهم يقـرأون حكايات ونوادر بالإنجليزية، وعيِّن لتدريسـها معلِّمات ومعلِّمين يتقنون التمثيل ولديهم روح فكهة. وليكن هؤلاء المعلِّمون ممن يفهم أن الإنجليزيـة مجـرد أداة، وأن الهـدف ليس الوصول إلى مرتبـة أهل اللغة. صحيح أن من الجيد أن تجعل الطلبة يتعرفون على بعض المظاهر الحياتية والحضارية في البلاد الناطقة بالإنجليزية، ولكن لا تنس أنه يوجد هنا لغم.

نحـن نريـد اللغـة الإنجليزيـة لنتفاهـم مـع الماليزييـن، والصينييـن، والإنجليز. نريدها أداة. ولسـنا مغرمين بحضارة الإنجليز بأكثر من غرامنا بحضـارة الإسـبان. لا، ليـس مجديًا أن ينفق التلميذ وقتـه وهو يدرس عن ساعة بيج بن، وعن قصر الملكة، وعن تاريخ الملك هنري الثامن.

نعم، وبوقاحة، نريد أن نتعلم اللغة الإنجليزية ولسنا مهتمين جدًّا بتعلم حضارة أهلها. هكذا تريدني أن أقول؟ فها قد سمعتها.

أنـا رجل معقد. أعرف الكثير عن مراسـم تنصيـب الملك في بريطانيا، وعـن افتتـاح البرلمان، وعـن تبديل الحرس وكل هـذا. ولا أعتبر كل هذه المعارف ذات قيمة. فقط أنا أغذِّي بها عقدتي التي سأموت عليها.

لكن، يهمني من جهة أخرى أن يسـتعمل أبنـاءُ بلادي اللغة الإنجليزية في التعرف إلى مسـاوئ ومحاسـن النظام السياسي في بريطانيا وفي الهند وفي كل مكان. أما شكسبير والأدب الإنجليزي المعاصر فهو يهمني بقدر

ما يهمني الأدب الفرنسي والجنوب-إفريقي. ولا أومن بأن المرء يستمتع بالأدب استمتاعًا كاملًا بلغة أجنبية، والشعر بالذات عَصِيٌّ على المرء في اللغة الأجنبية. فاللغة الشعرية لها تقاليد عجيبة.

نسمع بيت شعر عربيًا:

السيف أصدق إنباءً من الكتب   في حَدِّه الحَدُّ بين الجد واللعب

فتثور في قلوبنا مشاعر. نحن قوم في مواجهة مع الروم، والمعتصم لا يُلقي بالًا لما وجده المنجِّمون في «كتبهم». تعود إلى عقولنا قصة «وامعتصماه». ونشعر بمتعة فنية في هذا الجناس الكامل بين (الحدّ والحدّ)، وما يمازجه من جناس ناقص بين (الحدّ والجدّ)، ونشعر بلذة الطباق، أي التضاد في المعنى، بين الجد واللعب. ونتلذذ بأسلوب التمييز في (أصدق إنباءً)، فهو غير كثير الدوران في النثر. هذا عن التاريخ والبلاغة. ونحن نتذوق وزن الشعر العربي، مع أننا في هذا العصر فقدنا هذه الحاسة كثيرًا. هذا البيت يشبه في وزنه نوعًا من المواويل العامية. خذ بيتًا لأحمد فؤاد نجم:

يا بحر قل للسمك طول ما الشبك فوقك

لا العشق كارَك ولا رمل الشطوط شوقك

هذا من البحر نفسه، البسيط. ولو قرأ العربي بيت أبي تمام السابق ببعض التنغيم لشعر بوزنه، وتلذذ به.

كل هذه الأشياء في الشعر تضيع في الترجمة. وحتى لو قرأ الأجنبي البيت بالعربية فهو لن يتذوقه كأهل اللغة.

فلا تتعب نفسك بشكسبير في لغته الأصلية. يضيع عمرك يا هذا! ولا تقرأ من أدباء الإنجليز بالإنجليزية من يتفنن في استعمال اللغة فيحمّل المفردات أكثر من معانيها المعجمية. حسبك سومرست موم؛ فهذا الأديب، وأظن أنني قرأت ثلاثة أرباع ما كتبه في حياته التي امتدت إلى ما بعد التسعين، ولد في فرنسا ونشأ ينطق الفرنسية، وانتقل إلى إنجلترا صبيًا. فعندما صار يكتب الروايات والقصص القصيرة بالإنجليزية كتب بلغة سلسة وبدون التواءات بلاغية.

منهاج المدارس للغة الإنجليزية -وهو موضوع لم نغادره بعد- يجب أن يسمح بهامش واسع من التفاوت. فمن الطلبة من هو موهوب لغويًا ومنهم العكس. ولا يجوز لنا أن نربي في نفوس أبنائنا عقدة من اللغة الأجنبية. هذا يعطل تحصيلهم في العلوم الأخرى. ويجعل غير الموهوب لغويًا ينفق ساعات طويلة وهو يدرس اللغة الأجنبية على حساب الرياضيات التي قد يكون موهوبًا فيها.

نأتي إلى مسألة مهمة هي تدريس العلوم بالإنجليزية. هذا معناه ببساطة أننا لا نعترف بلغتنا. هذا معناه أننا نجهز لغتنا للذهاب إلى المتحف. هذا يعني أن اللغة العربية يجب أن تموت قريبًا.

كان اسم كتاب الأحياء كتاب الأحياء، ثم طبعوا طبعة جديدة وسموه كتاب البيولوجي، ثم في طبعة أخرى كتاب البيولوجيا، وشحنوه شحنًا بالكلمات الإنجليزية. السبب الرئيسي أن مؤلّفَي الكتاب الجديد درسا في أمريكا، وهما ضعيفان في اللغة العربية، وليس عندهما نظرة تربوية.

كل غدة لها في العربية اسم أصيل أو مُعَرَّبٌ. فالدرقية درقية، والنخامية نخامية. لماذا نريد إلغاء هذه الأسماء؟ ثم إن هناك أسماء لاتينية كثيرة اصطلح العلماءُ على استخدامها، فنحن نستخدمها مثلما يستخدمها كل البشر، هي مصطلح علمي، وقد نستخدمها بحروف لاتينية إن لم تكن رسَّخت وجودها في العربية. وهناك المعادلات الكيميائية ورموز العناصر؛ هذه جربنا تدريسها بالعربية في مصر، ووجدنا أن هذا يعطل التحصيل العلمي للطلبة فيما بعد. فالأفضل هنا استعمال الحروف اللاتينية.

لا نريد تذكير الشرق والغرب بأن الرياضيات علم له في اللغة العربية قدم ثابتة، نريد فقط أن نقول: «إن تدريس الرياضيات بالعربية يجعل الطالب أقرب إلى فهمها. ويجعله يحترم لغته أكثر؛ لأن هذه اللغة تحمل علومًا، وليست لغة دين فقط». رأيناهم يدرسون الطب بالعربية ويفلحون. ويذهبون إلى الخارج ويكملون دراسة الطب بلغات أخرى ويفلحون. لم لا؟ على الأقل يكون الطبيب قادرًا على شرح الأعراض لمرضاه بلغة يفهمونها، ولا يرطن لهم بكلام غريب عنهم، والطبيب صاحب مهنة اجتماعية. فليدرس الطبيب الطب بالعربية مع تقويته بالإنجليزية لكي يقرأ ويزداد علمًا. الناس تثق بالطبيب الأجنبي منذ ألف ومائتي سنة على الأقل: يخبرنا الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) أن أسد بن جاني الطبيب العربي كسدت صناعته رغم تفشي الأوبئة، فسئل عن ذلك فقال: «أما واحدة، فأني عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب، لا بل قبل أن أخلق، أن المسلمين لا يفلحون في الطب، واسمي «أسد» وكان ينبغي أن يكون اسمي صليبا وجبرائيل ويوحنا وبيرا».

فهل نريد تخليد هذه الصورة؟

نحن اليوم أيضًا نثق بالطبيب المسيحي -ويستحسن أن يكون أجنبيًا أيضًا- أكثر من ثقتنا بالطبيب المسلم؛ ذلك لأن المسيحيين أغزر علمًا وأصدق لسانًا من المسلمين. هيا انصبوا لي المشنقة على هذه الكلمة، لكنها كلمة قلتها وأنا مؤمن بها.

هذا أمر لا يتعلق باللغة. هذا شيء في التربية. هذا سببه مختلف. سببه أن المسيحيين العرب تلقوا تعليمًا أفضل، وتلقوا تربية أفضل في بيوتهم، وعلَّمَهم أهلُهم الصدق أكثر مما علَّم المسلمون أولادهم الصدق. فإن عمل المسلمون بالحديث الشريف: «إياك والكذب ولو مازحًا» فقد حلوا نصف المشكلة، وإن ازدادوا علمًا في الطب فقد حلوا النصف الثاني. وليس للغة العربية شأن في الموضوع. إنها لغة عظيمة تستطيع أن تحمل كل علم.

نحن العرب لا نملك الكثير من المعرفة، وحتى نملك الكثير يجب علينا أن نستعمل لغتنا نحن. يجب أن نحترمها، وأن نستعملها، وأن نعلمها لأبنائنا، وأن نجعلها أداةً من أدوات نهضتنا.

لو كان استبدال المرء بلسانه بمثل سهولة استبداله بجوربه المثقوب لقلتُ لنا جميعًا: «فلنتكلم الإنجليزية بقرار رسمي ولنبدأ في الأول من يناير/ كانون الثاني العام المقبل». لكن اللغة ليست الغلاف فقط؛ إنها الغلاف والكتاب معًا.

بلغم

حضـرات القـراء الكرام، قـد لا تعرفون كتابة مقالـة كمقالتي هذه؛ لأن الموضـوع لا يسـتهويكم، أو لأن بعـض الكلمـات التـي أسـتخدمها غيـر موجودة في قاموسـكم الذهني، أو لأن الأفكار الموجودة في هذه المقالة لـم تخطـر ببالكـم، أو لأنها -وهذا شـيء وارد جدًّا- تمثل بالنسـبة إليكم صدمـة. لكنكـم، بالتأكيـد لن تجـدوا في مقالتـي صعوبة مـن ناحية النحو والصرف، ولن تجدوا أنني تقيَّدت أصلًا بالنحو والصرف.

ومقالتـي هـي عن النحـو والصـرف والبلاغـة والعَروض، وهـي أيضًا -وهـذا هـو الأهم- عـن مفردات اللغـة العربيـة. والباعث لي علـى كتابة المقالة باعث الغَيرة على اللغة. فهل يمعن الذي يغار على اللغة في تجاهل قواعدها؟

ربما عليَّ في البداية أن أشرح طبيعة غَيرتي. أنا غيور على اللغة العربية غيـرةً نفعيـةً، فليس في قلبي غضب على مـن يحتقرونها من أبنائها، وليس عندي حنينٌ إلى اللغة في عهودها الباكرة، ولست شديد التمسك بصفائها ونقائها، ولسـت -في مقالتـي هذه- مولعًا بالترنم بكلمـات اللغة العربية، ولا التمطق بمخارج حروفها، ولا التلذذ بنطقها نطقًا جميلًا معبِّرًا.

الآن مهمتـي مختلفـة. مهمتي أن أكتب إليكم كتابة فيها تكسـير لبعض المفاهيـم، وفيها ترتيب لبعض الأفكار. ولكم -وقد أحسسـتم أنني أطيل

كثيرًا في المقدمات- أن تنصرفوا عني وتكفوني شر تعليقاتكم واتهاماتكم. ولكم، أيضًا، أن تمضوا معي في هذه الرحلة القصيرة.

غيرتي على اللغة العربية غيرة انتفاعية. أغار على هذه اللغة لأني أحب أهلها، فأهلها هم أهلي. وأغار عليها لأني أحب نفسي. أريدها لغة حية زاخرة بأساليب التعبير القوية التي تنقل إلي وإلى أبناء وطني العربي العلوم والفنون. وأريدها لغة غنية بالكلمات السهلة والصعبة، والأصيلة والمقتبسة من اللغات الأخرى. أريد من اللسان العربي أن يخدمني. ولأن النحو والصرف يمنعان الكتَّاب من التعبير بحرية عن كوامن نفوسهم، ولأنهما -أي النحو والصرف- يجعلوا المتكلمين يتعثرون في كلامهم، ويجعلوا الكاتبين قليلي الثقة في صحة ما يكتبوا، أريد التخلص من تعقيدات النحو والصرف. وبالطبع ليس هناك لغة بدون قواعد. ولكنني لمست أن قواعد اللغة العربية كما نعرفها وكما ندرسها في المدارس تشكِّل للناس عقدة.

أنا لا عقدة عندي، بسبب ما أخذت به نفسي من انكباب على هذين المبحثين، ولأنني اشتغلت مذيعًا ردحًا من الزمن. ولكنني كنت أعاني من العقدة النحوية حتى سنٍّ معينة، وقد علَّمتُ اللغة العربية ولمست وجود هذه العقدة عند الطلبة أيضًا. أقول: «لمستُ» وجودها، وكأنها شيء صغير يتلمسه المرء. هل «يلمس» الإنسان وجود المحيط الهادىء؟ أو جبال الهملايا؟

لعلكم لاحظتم أنني أضع الهمزات بشكل صحيح فوق الكلمات. ولكنني سأحاول أن أجبر نفسي على «الغلط» وأن أهمل الهمزات بقدر ما أستطيع. فهذا شيء آخر أريد تكسيره.

إلى الجحيم أيضًا بالنحو والصرف. ويسارع بعضهم إلى اتهامي بعدم احترام اللغة العربية. مستعدٌّ لاستقبال التُّهم. وقد يسارع بعضهم إلى اتهامي بالدعوة إلى العامية. لم يعد يهمني هذا الاتهام. ليس مهمًّا عندي العامية والفصحى، ولا ضبط النحو. لكن، لا أريد تفتيت اللغة العربية إلى لغات. لهذا لست من دعاة العامية، وإن كنت من دعاة الاقتباس منها بكثرة. وهذا بالطبع موضوع شائك؛ لأن العاميات في العالم العربي كثيرة ومليئة بالكلمات المحلية. ربما أقتبس قليلًا فقط من عامية بلدي فلسطين، وكثيرًا من عامية مصر لأن العرب كلهم يفهمونها، وكذلك عامية لبنان والشام. فقط ما يهمني أن يكون كلامي مفهومًا.

ولعلك لمست من سياق حديثي أنني ما زلت محافظًا على الفصحى!

بشكل عام الفصحى لغة سهلة وتؤدي المعاني وتخدم الأفكار، ولهذا لا أريد التخلي عنها. لكن النحو لا يخدم الأفكار ولذلك أريد تكسيره. هكذا ببساطة. هو قيد غير نافع، قد يكون قيدًا من الحديد الصدئ أو من الذهب اللامع، لكنه قيد، وهو غير مفيد.

وسأتوقف لحظة للدفاع عن الحرف العربي. لقد قرأت كتيب محمود تيمور المتأفف من صعوبة الطباعة بالحرف العربي، وأزفُّ إلى الكاتب المصري الكبير وهو في دار الحق بشرى: لقد جعلت برامج الحاسوب الطباعة بالحرف العربي أسهل من الطباعة بالحرف الإنجليزي، نم هادئًا. وقرأت كتاب أنيس فريحة الذي دافع فيه عن العامية ودعا بحرارة إلى الحرف اللاتيني؛ لأنه يسمح لك بتمثيل لفظ الكلمة بدقة. وردي عليه هو: نحن لا نريد هذه الدقة أصلا؛ لأن كلماتنا العربية تعتمد على الأحرف الصامتة كأساس وتأتي الصوائت تنغيمات عليها. أعني بذلك أن العرب

ينطقون الفتحة والكسرة والضمة بأشكال عديدة بحسب مناطقهم، وكانوا طول عمرهم ينطقون الحركات بحسب قبائلهم.

كتب اللغة تقول لك في ياء كلمة «يكتب»: إنها مفتوحة، وتقول لك أيضًا: إنها مكسورة في لهجة عربية فصيحة. وأريد أن أطرفك بكلمة أخرى: كلمة «حر». اسمع هذه الكلمة باللهجة السورية. «حر». انطقها لنفسك واسمع الحركة الموجودة فوق حرف «الحاء». هل سمعت؟ هي حركة غريبة حقًّا: إنها مزيج فريد من الضمة والكسرة والفتحة. تخيل نفسك ممثلًا سوريًّا في مسلسل من تلك المسلسلات السورية ... وقل: «أنا حر». لعلك لاحظت أن «الحاء» تحتمل الحركات الثلاث في الوقت نفسه. هي مخيرة إلى هذه الدرجة.

ولماذا نشغل أنفسنا بالحركات. لينطق كل شخص الكلمات بطريقته. أقول هذا وقد عملت نحو سبعة عشر سنة من عمري في محطات إعلامية يعمل فيها الموريتاني والمغربي بجانب المصري والفلسطيني واللبناني والخليجي. ووجدت كل أولئك الزملاء يتفاهمون بعربية بسيطة، ووجدتهم يقتربون بكلامهم من منطقة وسطى يتلمسونها بالحدس، وبلا عناء.

زاملت سيدة مصرية، وكان يدور بيننا كلام. يحسبها السامع عندما تكلمني فلسطينية، ويحسبني عندما أكلمها مصري؛ ذلك أن مستوى اللياقة ومراعاة الآخر فيما بيننا كان كبيرًا، فكأننا كنا نتبادل هذه المجاملة اللطيفة، ودام ذلك بضع سنوات.

أقول لأنيس فريحة وهو في دار الحق: «نم مطمئنًا. لا نريد الحرف الأجنبي لكي يضبط حركاتنا، ولا نريد حتى وضع تشكيل على كلماتنا. لا

يلزمنـا. نحـن نلفظ الكلمـة الواحدة بطرق كثيرة، ولـم لا مـا دمنا نتفاهم». يـا أخـي بين العراق وليبيا آلاف الكيلومترات، وبين فرنسـا وألمانيا نصف كيلومتر، فهل تشـك في أن العراقي والليبي يتفاهمان بالعربية لو التقيا في طائرة؟ وهل تشـك في أن الألماني والفرنسـي لا يتفاهمان ولو تساكنا في غرفة إلا أن يتخلى أحدهما عن لغته.

حرفنـا العربـي مـن مزاياه أنـه مختصر، ومـن مزاياه أيضًا أنـه يقدم لك الكلمـة وحروفها مشـبوكة أحدها بالآخـر فترى الكلمـة وكأنها «صورة». انظر إلى كلمة «سبب» وكلمة «سَبع». فكلمة «سبب» شكلها مثل الشخص المسـتلقي علـى الشـاطئ، وكلمة «سـبع» شـكلها مثل رجـل جالس فوق السور ويدلّي رجليه. بلاش! يكفي أن توافق معي على أن تشبيك الحروف في كل كلمة يعطيها «صورة» مميزة. إنني لأزعم أن التقاط عينك للكلمات العربية أسرع من التقاط عين الإنجليزي للكلمات الإنجليزية. وبالطبع فإن إقامة برهان تجريبي على ذلك أصعب من مجرد تأييده بحجَّة عقلية.

أنا أدعو إلى الحرف العربي بشدة، هذا حرف يناسبنا وكفى. وأرجو ألا نتيـه في صحـراء المقارنـة بيننا وبين الأتـراك عندما ألغوا الحـرف العربي وشرعوا يكتبون باللّاتيني.

نحن نتمنى بالطبع -على الأقل أنا أتمنى- أن نحطم التعلق بالكثير من إرث الماضي، لكن لا أرى ذلك عن طريق حيلة ميكانيكية مثل التخلي عن الحرف العربي. كما أنني لا أتمنى تحطيم التراث نفسه، فهذا صنيع من لديه عقدة نفسية. أحب التراث وأومن أنه حديقة رحبة جميلة ... لكنها الحديقة الخلفية للمنزل التي زرعنا فيها الورد والفل والياسمين، ولكنها لا تنتج شيئًا

نضعـه علـى مائدتنا. ومن قال: «إن كل حديقة يجب أن تثمر شـيئًا يؤكل؟» وهكذا التراث.. فهو مجال استرخاء، وتفكر، وفيه منافع نفسية، وروحية.

لقد حشـرت فـي مقالتي هذه من الأخطاء في النحـو وفي كتابة الهمزة بقـدر ما اسـتطعت. لكننـي أحسسـت أن لغتي ظلت فصحـى، ولـم أحس بأننـي مكبـل فـي التعبير عن أفـكاري. أريـد تقديم دليل علـى أن النحو لا يساعد في الفهم، بل هو زينة.

سيقول بعضهم: النحو زينة جميلة، فلماذا تزعم أنك تحب التراث لأن فيه الجمال والاسترخاء ... إلخ، ثم ترفض النحو بحجة أنه زينة؟! أقر بأن هـذه محاججة مقبولـة. ولكنني، في حالة النحو أدرك مقدار ما يسـببه من إعاقة، وأدرك أنه زينة مصطنعة كأزهار البلاسـتيك التي مضت عليها بضع سنين في المزهرية فأفصحت عن بلاستيكيتها.

أنا مستعد لقبول الحلول الوسط، ومستعد لقبول مقدار معين من النحو القديم، شرط أن يكون سهلًا سلسًا.

الذين يدعون إلى العامية يقولون لك: «الفرنسـية والإيطالية والإسبانية كانت عاميات للغة اللَّاتينية، ثم استقلَّت وأصبحت لغات». ونحن نقول: «والعاميات الألمانية الكثيرة تتلاقى وتتقارب وتشـكل لغة ألمانية فصحى يفهمها الجميع». ونقول: «أنت تقرأ كتابًا أمريكيًا وآخر بريطانيًا، ولا تكاد تشعر بوجود فارق في اللغة». ومثلما فرَّقت العصور الوسطى اللغة اللاتينية إلـى لغات فإن العولمة بمقدورهـا أن تجمع عددًا من اللهجات في منطقة وسطى. والمدار في ذلك على المنفعة.

ولنا منفعة كبرى في أن تكون لغتنا ذات متكلمين كثر، فهذا ينشِّط عملية نقل العلم وعملية التواصل. وحتى في المسلسلات التلفزيونية ستجد قريبًا عددًا أكبر من المسلسلات التي يختلط فيها الشامي بالمغربي.

لست حريصًا على الوحدة العربية بأي شكل أيديولوجي. حريص فقط على أن أظل قادرًا على الانتفاع بما ينتجه كل العرب من أدب ومن علم؛ لهذا أقول لهم جميعًا: «لا تدعوا النحو والصرف يعطلانكم عن التعبير. اكتبوا وانسوا الممنوع من الصرف، فهذا لا يعيق التواصل. لكن، نريد للغتنا العربية أن تكون غنية بالمفردات. ونريدها لغة دقيقة في المعاني، لا في النحو والصرف».

لا نخوض في الشعر كثيرًا ولا في الغناء. بل نقول: «أجمل شيء أن يكون للمطرب وللشاعر كل الحرية، وليأت الطوفان». وستفعل الظروف، التي ليست بيدنا ولا بيد كل مجامع اللغة، فعلها؛ هذه الظروف مثل عوامل الطبيعة التي لا نستطيع التحكم فيها.

كما تستطيع المعدة استيعاب الحلو والحامض والدسم والتعامل معها كلها في نفس الوقت يستطيع دماغ الإنسان أن يضم أشتات اللهجات واللغات. فإن كنتم فعلًا تؤمنون بأن الله نزَّل الذكر وأنه كفيل بحفظه، فاتركوا حكاية تجميد اللغة والإصرار على العودة بها إلى نقائها الأول. فلن تعود. وسيظل الناس يعبرون عن أنفسهم بأساليب مستحدثة وكلمات جَديدة، وستظل الكلمات تخلق وتموت. ومثلما مات جدك ورحت تصفق كفًّا بكفٍّ مدعيًا الحزن وتقول: «الموت حق!» عليك أن تصفق كفًّا بكفٍّ، أو كفًّا بخدٍّ -أنت حر- وتقول: «كذلك المفردات في كل لغات الدنيا... تولد وتموت. وكذلك قواعد النحو والصرف فإنها تولد وتموت».

الشـيء الـذي أريد للعربيـة أن تنهض فيـه: المفردات. فـي الإنجليزية وضعـوا مسـردًا للكلمـات يعـرف بــ «بيسـك إنغلـش» أي «الإنجليزيـة الأساس»، وجعلوا مسردهم مكونًا من ٨٥٠ كلمة، وزعموا أن معرفة هذا القـدر مـن المفردات يكفي للتعبير عن كل شـيء. والمسـرد موجود على غوغل، فقط اكتب بالأحرف اللاتينية (Basic English) وستراه أمامك.

ونأتي إلى لغتنا العربية. لقد أحصى المستشرق فرايهِر هامر بورغشتال فـي كتابـه المنشـور في فيينا عـام ١٨٥٤ والموسـوم بــ «داس كاميل» أي (الجَمَل) ٥٧٤٤ كلمة في اللغة العربية تتعلق بالجمل وحده. فهل يمكننا الاحتفـاظ بـكل هذه «الثـروة» اللفظيـة؟ لا، بل من الأفضل لـي أن أحفظ الكلمات الـ ٨٥٠ في «إنجليزية الأساس» لكي أعبر عن نفسي بتلك اللغة. افتح **القاموس الوسيط** أو **المنجد** واقرأ بضع صفحات، وستجدك أمام لغة ميتة.

حياتنـا المعقـدة تجعلنا نحتـاج إلى كلمات كثيرة لكـي نعبر عن دقائق المشـاعر، وعن المعلومـات الكثيرة. نحتاج إلى عدد كبيـر من المفردات أكثـر مـن الـ ٨٥٠ كلمة التي هي كلمات «إنجليزية الأسـاس». نحتاج إلى ثـروة هائلـة من المفردات. لكننا نريدها ثروة فعالة وحيَّة. ونريد أن نكتفي من آلاف الكلمات عن «الجمل» بكلمتي جمل وناقة.

بالطبـع يحتـاج البدوي إلـى كلمات أكثر مني تخـص الجمل. ويحتاج المهتمين بالخيل إلى كلمات كثيرة عن الحصان. والبنَّاء يحتاج إلى كلمات كثيـرة تعبـر عن اختصاصه، وقد نقتبس، نحن النـاس العاديين، بعض هذه الكلمات ونرددها. قال لي البنَّاء عندما بنى لي بيتًا: إن «الشـمعة» سـتكون فـي وسـط الصالـة. وعرفـت أن «الشـمعة» مصطلـح يقصـد بـه العمـود

الإسمنتي. واستمتعت بالكلمة، ولا أزال؛ وشقيت بتلك الشمعة اللعينة، ولا أزال.

لا بد لكل حرفة من مفردات، ولا بد لهذه المفردات من أن تتغير مع الزمن: ينقرض بعضها، ويولد بعض. ولا بد للغة المثقف من كلمات تعبر عن بعض المفاهيم، يقول لك المثقف: «لئن أفضت قاعدة سد الذرائع إلى التضييق، فإنها ساعدت المجتمع المسلم في الحفاظ على هويته». فهذا المثقف استعار من أصول الفقه عبارة «سد الذرائع»، التي يقصد بها عدم القيام بعمل مباح لأنه ذريعة ووسيلة للوقوع في الحرام. وقد ينقل بعضهم عبارة «سد الذرائع» إلى السياسة، والاقتصاد. والعبارة مؤدية وموجزة. ومثلها عبارة «المستطيع بغيره» التي قرأتها عند المعري واصفًا حالته في كفّ بصره، فهو مستطيع أن يؤلّف ولكن بمساعدة من غيره، ولعله أخذها من الفقه حيث هناك المستطيع بغيره وهو الشخص الذي يرسل من يحجّ عنه لعلّة تمنعه من الرحلة إلى مكة. وأذكر أنني في تقرير إذاعي استخدمت عبارة: «بعد اعتقالهم سيقوا إلى مقر المخابرات لكي تُبلى سرائرهم». وكان أجدر بي أن أقول: «لكي يتم التحقيق معهم»، ولكن المرء يحب أن يزين كلامه، وأن يتفاصح. ولا بأس ببعض ذلك شرط أن يؤدي إلى نفع، وتلوين في التعبير. لستُ ضد قليل من الحذلقة.

نريد عربية عامرة بالمفردات المعبرة، قوية من حيث التفريق بين المعاني المتقاربة. نريد عربية فيها تفريق بين (الانتشاء واللذة والحبور والفرح واللهفة والمتعة والسرور والانبساط والغبطة والسعادة والبهجة). وما يحدد المعنى الدقيق لمثل هذه الكلمات المتقاربة هو الشعر، أو النثر الوجداني. اللغة التي فيها الكلمات الأساس فقط لغة كسيحة وجدانيًا. ولا

أريد للغتنا العربية تبسيطًا تكسيحيًا في المفردات. بالطبع أريد لها أن تضع آلاف الكلمات الميتة على الرف، وأن تتجدد. وأريد لها أن تغترف من هذا الرف بعض الكلمات لكي تلبسها معاني جديدة، فمثلما فعل القديم عندما استعار لفظة «العقيلة» ومعناها الناقة المربوطة بحبل، وجعلها تعني «الزوجة»، يمكننا استعارة كلمات أخرى وإلباسها معاني جديدة. وأريد أيضا للعربية أن تستعير بلا وجل من اللغات الأخرى.

لا نريد للغتنا أن تكون باهتة. نريدها غنية أدبيًا، وعفيَّة علميًا. وقد أفلحنا في تسمية «الأتوم» الإفرنجية «الذرة»، وسمينا البارتكل فيزيكس «فيزياء الدقائق». من الممتع أن نساعد لغتنا في استيعاب العلوم والمخترعات بأن نستقي من القديم. فكلمة «ذرَّة» مثلًا معناها الأصلي «النملة الصغيرة». ومن الممتع أيضا أن نترك لغتنا تستقي الكلمات الأعجمية بحرية، وأن نلاحظ بعين نصف مفتوحة كيف تطوّع لغتنا الألفاظ الأجنبية بعض التطويع لكي تناسب النطق العربي، فكلمة «هوسبيتال» صارت اسبيطار، ثم نجحنا في إحلال الكلمة العربية «مستشفى» محلها. وكلمة «كاثيتير» صارت «قسطرة». وهو تعريب طريف وجميل.

عندما ننشط علميًا وطبيًا، ونعلّم العلوم بالعربية، ويكون لدينا إعلام جيد، ويكون لدينا طبقة كبيرة من المتعلمين، ستأخذ المفردات أماكنها وستستقر بعض استقرار، وستزيد، وستكون اللغة العربية أجمل وأغنى.

نحن نرى كثيرين يقولون: إن «عمّي أجرى عملية أوبن هارت». وهم بالتاكيد يعرفون أن اسمها عملية «القلب المفتوح». هم يتفلسفون طبعًا، ويستعرضون ما يعرفون من كلمات أجنبية. لا نريد تشديد النكير عليهم، خصوصًا عندما يتجنبون ذكر أسماء بعض الأمراض بالعربية ويستعملون

الكلمة الأجنبية. هذا مفهوم تمامًا، فنحن نهرب من اسم المرض الصعب ونعبر عنه باللغة الأجنبية. هذا شيء، والتجمل بإدخال كلمات أجنبية شيء آخر.

عندي فكرة أثيرة رددتها كثيرًا. فإن كنت من قرائي فاقفز فقرتين.

الإنسان محتاج إلى تلقي كميات هائلة من المعلومات في مقتبل حياته. محتاج إلى مطالعة المجلات والجرائد، والكتب، وتصفح مواقع الإنترنت الكثيرة والمنوعة، كل هذا وهو ما زال في سن التلمذة. وكلما بدأ مسيرة الاطلاع باكرًا كان أحسن. حتمًا، سينسى كثيرًا من المعلومات، ولكنه سيفتح خانات كثيرة في دماغه ويجعلها قابلة لاستيعاب المزيد والمزيد. قد يقرأ كتابًا معينًا وهو في الخامسة عشرة مثلًا، ويعود إلى الكتاب نفسه وهو في الثلاثين، فيكتشف أنه يقرأ الكتاب وكأنه لم يفتحه أبدًا من قبل. فهل ذهبت القراءة الأولى هباء؟ لا. في الواقع أنه وزع معلومات الكتاب، على مدى السنوات التي تفصل بين القراءتين، على أماكن كثيرة في دماغه، وانمحت صورة الكتاب الأصلية من ذهنه، ولكن معلوماته وأفكاره تحولت إلى عناصر أخرى. لقد هضم الكتاب في المرة الأولى، وساعده الكتاب في تنمية عقله. غير أن صفحات الكتاب تفرقت في مناطق مختلفة من وعيه. وفي القراءة الثانية يقوم بعملية مشابهة. ولا بأس على المرء أن يقرأ الكتاب الجيد مرتين وثلاثًا.

ما زالت اللغة خير وعاء لاستقاء المعلومات. فمجالسة الناس والسياحة والرحلات لن تفتح للتلميذ أبواب الأيديولوجيات المختلفة، ولن تجعله قادرًا على معرفة فكر الإمام الغزالي وفكر جون ستيوارت ميل، والنقد الأدبي لطه حسين، ولن تجعله يعيش في أجواء روسيا القيصرية من خلال

روايات تولستوي، ولن تدخله في العوالم الغريبة التي خلقها عزيز نيسين وجلال أمين وجاك لندن، وجورج أورويل. أريد من الفتى العربي أن يعرف هذه العوالم. الثقافة العالمية رحبة، ومن البؤس أن يكتفي الفتى بمناهجه المدرسية حتى لو كانت ممتازة، ومن البؤس أن يكتفي بالتجارب الحياتية التي تأتيه من السفر والبيع في دكان أبيه. المنهج المدرسي يعطيك الأساسيات، وأقل من الأساسيات، وهو في الغالب أغبى من أن يتعرف على الأساسيات. والعلم -سواء أكان المعلومات العلمية أم الأجواء الأدبية أم التعرف على النفس البشرية- يأتيك من مصادر كثيرة. وكثير من هذا العلم الذي تستقيه في صغرك يكون عن طريق اللغة الأم.

ومن أكثر الأشياء تضييقًا للدماغ وتضييعًا لفترة الطفولة والشباب أن تنحرف عن لغتك الأم، وتتخذ اللغة أجنبية لغة دراسة في المدرسة. فاللغة الأجنبية ستوفر لك معلومات المنهاج الدراسي وبعض القصص المبسطة. وستوفر لأهلك مجالًا للتفاخر بأنك: «ضعيف في العربي، بس ما شاء الله ممتاز في الإنجلش!» الذي يهمل لغته الأم في مقتبل عمره يخسر هذا الدفق الهائل من المعلومات التي تنحفر في ذهنه وهو صغير. يخسر الجريدة، ويخسر الكتب المتنوعة، ويخسر انتماءه لقومه. وهذا البعد الوجداني الانتمائي مهم. فالطفل الذي يبدأ مسيرته الحياتية باحتقار لغته، واعتبارها مجرد لهجة يستعملها في البيت ويشتم بها أقرانه يخسر اعتزازه بقومه وبتاريخه. الطفل الذي ينظر إلى لغته الأم كلهجة «سكان محليين» يخسر شموخه. ولغتنا العربية كانت بالنسبة للمستعمر الفرنسي والبريطاني مجرد «لهجة هؤلاء السكان المحليين»، وظل المستعمرون -وليوم الناس هذا، نعم ظلوا حتى الآن- يتعاملون مع الفصحى كلغة نصف ميتة،

ويصِفون لغة مصر بأنها «عربية مصر»، ولغة سـوريا بأنها «عربية سـوريا». ونحـن نقـول: «لا، بل الفصحـى لغة كبيـرة وعظيمة. وفيها وسـائل رائعة للتعبيـر عن خلجات النفـس، وعن العلوم، وهي قادرة، ومرنة، وهي أيضًا ذات تاريخ».

واقـف هنـا لكي أرد ردًّا لطيفًا على مقولة لأنيس فريحة فصلها تفصيلًا في كتابه الرائد **نحو عربية ميسَّرة** الذي نشره سنة ١٩٥٥ . يقول فريحة: «إن من الغلط العلمي أن نعتبر العاميات المختلفة مشتقة من الفصحى، بل هي لغات قائمة بذاتها. ويؤيد كلامه بحجج جيدة».

المسألة دقيقة. ولكي ننظر إليها بعين واعية يحسن بنا أن نقارن. يقولون لـك: فـي الهند ألف لغة. والناس لا يتفاهمون مع بعضهم إلا بالاتكاء إلى الإنجليزيـة، أو إلى لغة هندية وسـطى تتغير مـن مكان إلى آخر. ونحن في العالم العربي عندنا لغة وسـطى للجميع. وهي ببسـاطة الفصحى. ولست أقصـد بالفصحـى تلـك اللغة التي كتب بهـا مصطفى صـادق الرافعي، بل أقصـد اللغـة التي تقرأهـا في الجرايد. مهما اقتبسـت عامياتنـا من اللغات العتيقـة كالسـريانية، ومهمـا اتكأت إلى لهجـات قَبَلية قبل-إسـلامية، فإن الفصحى هي المحور.

لقـد وافقـت -بعـد قليـل مـن العنـاد- أنيـس فريحة علـى مقولتـه بأن نحو اللهجـات العاميـة مسـتقل عن نحـو الفصحـى. فعلًا، لو كنـت أريد التحدث بالعامية مع شخص أمي لكنت استعملت طرقًا في التعبير شديدة الاختـلاف عـن هذه العبارات التـي تقرأها الآن في مقالـي، ولكنتُ قلبت مواضع الكلمات، ولكنت عبَّرت عن نفسي بأنصاف جُمل، وليس بجُمل مفيدة. وهذا شأن كل العاميات في الدنيا.

على أنني متمسـك بالفصحى جدًا. ليس بإطارها النحوي الدقيق -فها أنت تراني أحشـر الأغلاط النحوية عامدًا- ولكنني متمسـك بسـياقها في ترتيـب الكلمات وصولًا إلى التعبير بحرية وانطلاق. متمسـك بالفصحى لأنها وعاء المفردات.

سـلَّمت لفريحـة بـأن قواعـد العاميات مختلفـة عن قواعـد الفصحى. ولكننـي مـا فتئت منـذ صفحات أقـول: إن النحو زائدة دوديـة. والإعراب وتشكيل أواخر الكلمات ظفر طال.. ومن الخير تقليمه. إذن فماذا بقي من الفصحى؟ بقيت المفردات.

ومـن تجربتـي مع اللغات الأخرى فإن إنفاقـك الوقت الثمين في تعلم القواعـد ليـس جيدًا. اعرف مفـردات اللغة، وسـتترتب القواعد في ذهنك بالتدريـج. وفـي اللغة العربيـة يكفي أن يعرف الطفل معانـي الكلمات في سـياقات جميلة ... في قصة وحكمة وشـعر، وسـيقرأ كثيرًا، وسيكتسـب القواعـد وحـده. لتكن قواعد العاميات المختلفة مسـتقلة تمامًا عن قواعد العربية الفصحى، فيكون ماذا؟ مفردات العاميات العربية هي ابنة الفصحى. وكلمـا ارتقـى المـرءُ قليـلًا فـي تعليمـه واختلاطـه بالآخرين اسـتعار من الفصحى مفردات أكثر. الفصحى هي الخزان الكبير للمفردات. وأريد لها أن تبقى، وأن تتوسع في هذا المجال. الفصحى هي معجمنا، وهي محورنا الثقافي. وما يعطلها بعض التعطيل أولئك المتزمتون الذين يشـترطون أن ننطـق بالفصحى مشـكَّلة تشـكيلًا كامـلًا، والذيـن يريدون العـودة بها إلى أساليب تعبيرية ميتة، وإلى مفردات ميتة.

حتى بعد كل هجومي السابق على النحو والصرف، وبعد كل أغلاطي النحوية في هذه المقالة، فإنني أريد من ابن اللغة العربية أن يعرف المتنبي

ومحمود درويش ونزار قباني. نقول: «علّموا الطفل العربية، واجعلوه يقرأ بها، ويحبها». ثم يأتينا، ويأتيكم، المتزمتون الذين يربطون النحو والصرف حجرَ طاحون في رقبة الطفل ويقولون له: «هيا نتعلم العوم».

أريد لفتيان بلادي أن يستعملوا العربية، وأن يكتبوا بها كثيرًا ويعبروا عن أنفسهم. معلش خليهم يغلطوا في القواعد وفي الإملاء. ومعليش خليهم يكتبوا شوية عامي وشوية فصحى. لكن، بالتأكيد عندما يداومون على المطالعة، وعندما يستمتعون بالقصص القصيرة ليوسف إدريس وبروايات نجيب محفوظ، وبكتابات الماغوط وروايات الطاهر وطار فسوف تستوي الفصحى على ألسنتهم وأقلامهم، وتصبح جميلة. وقد يستمر بعضهم في «ارتكاب» الأغلاط النحوية، ولكن لغتهم ستكون غنية.

وماذا عن اللغة الأجنبية؟ هي في رأيي ضرورة. ويجب على المدارس أن تعتني بها، وبلا قواعد، فمعرفة قواعد الإنجليزية لا تساهم في فهمنا لها. المدخل السهل للغة الأجنبية هو القصة. قصص قصيرة جدًّا، تضعهم على طريق الفهم. وليحفظوا معاني الكلمات. لكن بالتأكيد ليس باستعمال قاموس إنجليزي-إنجليزي كما يفعل الأساتيذ الكرام في طول العالم العربي وعرضه. ما هذا البؤس؟ يريدون لنا أن ندرس الإنجليزية بدون الاستعانة بلغتنا الأم؟ هذه سفاهة. وأفيدكم بأن الألمان ليست عندهم هذه العقدة. هم يعلمون أولادهم الانجليزية بقواميس وبكتب فيها الإنجليزي والألماني معًا. لماذا نصرُّ على تعليم الإنجليزية بالإنجليزية؟ لماذا نريد من التلميذ أن ينغرس في لحم اللغة الأجنبية انغراسًا؟ عقدة الخواجا أيها السادة، لا غير.

بالطبع يجب تعليم الإنجليزية بالاستناد إلى العربية. ليس فقط لأن الألمان يفعلون ذلك. بل لأن عقل النملة يدرك أن هذه هي الطريقة الأسهل. ويجب أيضا أن تكون العربية هي المرجع، وأن تبقى هي السيدة في عقل التلميذ ووجدانه. إنها اللغة التي يستقي بها زاده العقلي للمستقبل.

سنعيش عقودًا من الزمن ومعنا في مجتمعاتنا العربية بضعة آلاف من المشوهين وجدانيًّا الذين أصرَّ آباؤهم -وأصرَّت أمهاتهم أكثر- على تحقير اللغة العربية في نفوسهم. سنعيش مع هؤلاء بضعة عقود صعبة حتى يموتوا.

يصرُّ لبنان على أن يعيش دور الوسيط بين الشرق والغرب. ويريد أن ينسى الفصحى وأن يتقن الإنجليزية؛ ذلك أن الفرنسية تراجعت هناك الآن. حسنًا، هذا شغل ... بزنس. هذا دور تجاري سمسري يُدِرُّ ربحًا، ولبنان سعيد به. وكي تكون سمسارًا جيدًا يجب أن تنخلع من عمق التراث، وأن تتقن التسويق. ولبنان بلد صغير. معليش، ليكن له ذلك. والأردن يريد ذلك. ومصر تريد، والمغرب يريد. كل العرب يريدون أن يكونوا سماسرة. حسنًا، فماذا سيبيعون؟ المصنع الجيد يكون فيه ألف عامل ومدير تسويق واحد. فلماذا يريد كل عربي أن يجعل من ولده سمسارًا؟

كل العرب يريدون أن يكونوا سماسرة. والغرب (أوروبا وأمريكا) والشرق (الصين وروسيا) جميعًا يريدون مصالحهم عندنا، يريدون البترول، والحديد، والفوسفات، ويريدون سرقة العقول أيضًا. فإذا نبغ عندنا شخص أخذوه. وسفارة كندا وأستراليا وفرنسا تشتغل على هذا الأساس، يريدون الخبرات. ونحن نؤهل أطفالنا للهجرة، أو -لمن تتعسر

عليه الهجرة- للبقاء في البلاد العربية لخدمة البلدان المتقدمة ومساعدتها في امتصاص خيرات بلادنا.

نريد أن نخلق الثروة داخل مجتمعاتنا، وأن نتاجر مع العالم تجارة ندية. نبيعهم ونشتري منهم بموازين معقولة. لا أن نبيع كراسي البيت للحصول على أساور بلاستيك.

نريد أن نكسر عقلية السمسرة. وهي عقلية قديمة جدًّا في أعماق نفوسنا. فالعربي في صحرائه لم يكن يجد مجالًا إنتاجيًّا واسعًا. فالنياق تنتج الحليب في أجسامها، والعشب ينتجه المطر القليل، والتمر على نخلاته. فاشتغل العرب في التجارة. ينقلون التوابل في قوافل. واشتغلوا بالغزو كوسيلة مناسبة لتوزيع الثروة في أيام القحط خاصة. ومنذ القديم احتقروا الحدَّاد بقدر احترامهم السيف الذي يصنعه ذلك الحدَّاد (ديوانا جرير والفرزدق عامران باحتقار مهنة الحدادة). وقد استمرت هذه الحال في بوادي الشام والعراق. كانت المهنة المحترمة مهنة القيادة: قيادة المجتمع عبر الوظائف. كان المهم «المنصب». لأن الناس في هذه المدن كانوا محكومين من أطراف خارجية. كان بنو عثمان يرسلون الحكام الإداريين إلينا لكي يشكلوا مع بعض الفقهاء وبعض المتعلمين طبقة حاكمة، تمامًا مثلما كان المماليك طبقة من البشر لا شغل لها إلا الحكم والإدارة. ظل الإنتاج شيئًا محتقرًا. فأنت أيها الترزي، والنجار، والفلاح، مِجرد «دهقان» تنتج لكي تدفع الضرائب، ولكي تأكل من القليل الذي يبقى لك. لقد استمرت علاقة الدهاقين بالحكام حتى اليوم.

الذي يخلق الثروة في المجتمع يخلقها وهو سجين ضمن قوانين تجعله لا يتحكم في توزيعها. ولا رأي له. هو فقط مسخَّر. وقد شهدت

بنفسي انقلابًا جميلًا لهذه الحال في سنوات الطفولة. فقد تحسنت أحوال «الدهاقين»، وكان بينهم أبي الذي كان يملك مخيطة. كانت مرتبات موظفي الحكومة ضئيلة، ولم تكن الظروف السياسية مهيئة كي تسلب الدولة الدهاقين ثرواتهم عبر ضرائب كبيرة. وصار كبار موظفي الدولة يعيشون عيشة متوسطة، بينما أبي أوسع منهم رزقًا. ولم يكن يندر أيامئذ أن ترى تاجرًا أحسن حالًا من وزير. وقد روت لي أمي أن الأسرة المالكة الأردنية كانت تعاني من ضيق الحال في عمَّان عاصمة الأردن، في الثلاثينيات. كان عصرًا انتقاليًّا شهد زوال الحكم التركي وبدء انتداب بريطاني أعقبه اغتصاب يهودي لقطعة كبيرة من أرض فلسطين. وبسرعة عاد العرب إلى عادتهم مع حلول الاستقلال في الأردن. فقد تكونت منظومة الحُكَّام الذين يجمعون ثروات البلد بين أيديهم عن طريق الضرائب أو الأشكال الجديدة التي تسمى الفساد: الاستفادة من معلومات سرية بشأن التطوير العقاري لشراء الأراضي بسعر بخس وبيعها بسعر كبير، والسيطرة على الوكالات التجارية، وأخذ عمولات على السلاح، وشفط أموال الدعم الأجنبي بعدة طرق.

إن عقلية السمسرة ليست مسألة ذهنية بحتة، فالأمر كما أوضحتُ في الفقرة السابقة منوط بواقع اقتصادي وسياسي. كان هارون الرشيد يقول للغيمة: «اذهبي أنى شئت، فخراجك لي»، والحاكم العربي اليوم يقول لواشنطن: «سأبيعك موطئ قدم في بلدي مقابل كاش أحصل عليه وأوزِّعه على فئة من الناس محيطة بي، وسأبيعك ولائي السياسي وخامات بلدي، ولا بأس بسرقة العقول؛ فأنا لا أهتم بوجود مستشفيات جيدة في بلادي، وعندما يمرض أحد من الفئة المحيطة بي فسوف نرسله للعلاج عندكم».

سأعود في فقرة أخيرة إلى الوضوع الرئيسي للمقال.

آن للغة العربية أن تصبح أداة في سبيل التعلُّم، وفي سبيل التجذر. وهي محتاجة في سبيل ذلك إلى التخلي عن كل ما هو قشري. رأيت شخصًا ذا منصب مهم يبالغ في تقريع موظف عنده لوجود غلط إملائي في خبر منشور على الموقع الإلكتروني للمؤسسة. والخبر كله مصوغ بطريقة بائسة وفيه دجل ومعلومات خطأ. ولكن ما لفت نظر السيد المدير هو الخطأ الإملائي. كثير من أخبار التلفزيون والراديو قيء. لكنه قيء صحيح من ناحية النحو والصرف.

وكثير من «العلم» في كتب المدارس والجامعات بلغم. وخير منه الجهل. وكثير من الوسطية والاعتدال رخاوة فكرية وخَوَر وجبن.

إبريل/ نيسان ٢٠١٢

توفل عربي

المشهور الآن أكثر من التوفل امتحان الآيلتس البريطاني. وهو معتمَد في ١٣٠ دولة. وما زال التوفل الأكثر اعتمادًا في أمريكا. وكلاهما ببساطة: امتحان مستوى معياري في اللغة الإنجليزية.

ومشهور عن اللغة الإنجليزية أنها تتغير باستمرار، وهذان الامتحانان الدوليان يواكبان التغير الحادث على اللغة. ومشهور عن الإنجليزية أن عامياتها تزحف على الفصحى باستمرار، وهذا أيضًا يؤخذ في الاعتبار.

لماذا لا يوجد آيلتس عربي؟

السبب هو أن الامتحانات اللغوية المنضبطة بمعايير معلومة يجب أن تستند إلى أبحاث وقواعد معلومات مدروسة لدى جامعات محترمة كي تنال الثقة. فالآيلتس الشهير يستند إلى جامعة كيمبردج، والتوفل انطلق من ستانفورد. فهل هناك جامعة عربية محترمة؟

هل هناك أصلًا اتفاق بين العرب على مستوى صوابي معتدل ومعاصر؟

سنظل نحاول أن نفرض على لغتنا قيودًا وضعها القدماء. سنظل نحاول الاحتفاظ بالممنوع من الصرف، وبكثير من قواعد النحو بقوة دفتر العلامات، وبقوة الطاقة الرجعية الكامنة في نفوسنا. ولكن الممنوع من الصرف سيذهب إلى الجحيم قريبًا، وستصحبه في هذه الرحلة غير الميمونة قواعد كثيرة لا لزوم لها.

عن الكسائي والأخفش أن من العرب من كان يصرف كل ما لا ينصرف. وقد صرف الكسائي سلاسلًا، وقواريرًا، وبالتنوين، وهو من أصحاب القراءات، وسوى ذلك فثلاث قراءات أُخرى فعلت فعله. وقريش جاءت منصرفة، واحتالوا لها بأن «قريش» اسم جدٍّ القبيلة. لا جرم، فالقرآن نزل قبل أن «ينزل» النحو.

دنيا العرب تتصحر: الأرض تتصحر، وازدياد الفارق بيننا وبين البلدان المتقدمة هو تصحر معرفي، ونسبة الزيادة السكانية تصحر، وازدياد التعصب تصحر. وفي هذه البيئة المتصحرة، ينشعب العرب شعبتين: شعبة تكفر بكل القيم، ولغويًا تكفر بالفصحى وتروِّج للعامية، وشعبة تريد أن تعيد اللغة إلى سابق عهدها. والشعبتان تعانيان من مشكلة، فالعاميات المختلفة فيها تبديد للجهود المعرفية، وفيها إفقار للغة. ولأضرب لك مثالًا على ذلك: لو أعدتُ كتابة هذا المقال باللهجة العامية، لفقد كثيرًا من أفكاره، ولاستعصى عليه التعبير عن كثير من الأمور. والعودة إلى اللغة القديمة فيها أيضًا إفقار للغة وتبديد للجهود المعرفية. فلو كتبنا مقالاتنا بلغة الجاحظ، لاضطررنا إلى التنازل عن كثير من الأفكار؛ لأن لغة الجاحظ تناسب زمنه، ولا تنهض بعبء معارفنا الآن. وبين هاتين الشعبتين المتطرفتين، هناك طريق ثالث، وهو في زمننا طريق واسع ويسلكه الكثيرون، وهو اللغة السهلة، المعاصرة، التي لا تعقيد فيها، والتي لا تحشد المفردات العتيقة، ولا تستخرج من بطون النصوص الأساليب القديمة. هذا الطريق يسلكه كُتَّابُ المقالات في المواقع الإلكترونية وفي الجرائد، والمتحدثون عن شتى القضايا في التلفزيون والراديو في بلدان العرب المختلفة.

لا حاجة بنا إلى انتظار استقرار اللغة العربية؛ فلن تستقر، ولن تستقر أي لغة أخرى في العالم.

قبل أن تبادر جامعة أوروبية «محترمة» بوضع امتحان مستوى في اللغة العربية، جدير بنا البحث عن مثل هذا الخيار عربيًّا. ولماذا؟ فقط تجنبًا للفضيحة.

فهل هناك جامعة عربية «محترمة»؟ دعونا نستثني الجامعات «العربية» التي تدرّس العلوم والطب بالفرنسية والإنجليزية، فهذه الجامعات لا خير فيها، وهي لا تثق بالعربية. ونستثني أيضًا الجامعات العربية التي يتخرج منها طلبة قسم اللغة العربية وقد حفظوا بضعة أبيات من ألفية ابن مالك، وعندما يشتغلون في المدارس والجرائد، تراهم يخطئون في أبسط الأشياء. هذه الجامعات لم يصلها بعد الخبر بأن اللغات تتغير. الجامعة التي لا يتمتع قسم اللغة العربية فيها بالعنفوان والمعاصرة ولا يجرؤ على أن يمسك باللغة من قرنيها ويتعامل معها ببراعة، لا تستحق أن تصنع امتحان مستوى للغة العربية.

هل بقي شيء أيها السادة؟

انسوا الجامعات. هل أنا بحاجة إلى تذكيركم بمقياس شنغهاي للجامعات المحترمة في العالم؟

ولماذا أصلًا نريد امتحان مستوى في اللغة العربية؟ هل نريده تذكرة دخول إلى الجامعات العربية؟ ألم نقل: «إن الجامعات العربية لا تستحق أن ننظر في شأنها في هذا الموضوع من الأساس؟»

كثُرت علامات الاستفهام. لكن، السؤال ملحٌّ، ولا بد من تكرار علامة الاستفهام الأولى: «لماذا نريد امتحان مستوى في اللغة العربية؟»

هل نريده للأجانب الذين يريدون الالتحاق بالجامعات العربية؟ الأفضل أن ننصحهم بعدم الالتحاق بهذه الجامعات.

هل نريده للصحفيين الذين تقتضي مهنتهم إتقان اللغة والتعامل معها بيسر؟ حسنًا، ثمة حاجة في هذا المضمار.

المطلوب من الصحفي أن يعرف من النحو والصرف ما يكفي لكتابة وإلقاء خبر أو تقرير، أو إجراء مقابلة بلغة فصحى سليمة. ومطلوب منه أيضًا أن يعرف من مفردات اللغة الكثير. فلئن كان يكتفي في أدائه الصحفي بعدد محدود من المفردات، فهو بحاجة إلى معرفة أكثر من ذلك بكثير حتى يقرأ الروايات والتحليلات الاقتصادية والسياسية وكتب التاريخ والعلوم ليكون حسن الثقافة.

ومطلوب من الصحفي، ثالثًا، أن يكتب كتابة حسنة، واضحة، خالية من الثرثرة، تصيب الهدف وتصل إلى المعنى من أقصر طريق.

وثمة متطلب رابع، يقتصر على المذيع والمراسل الناطق، وهو ذلاقة اللسان بالفصحى، والتحدث بسلاسة وبسرعة معقولة وببديهة طيبة. فهل يمكن اختبار ذلاقة لسان الشخص؟

كل شيء ممكن إذا عرفنا الهدف النهائي.

هناك اختبارات أخرى يمكن صوغها لقياس المعلومات العامة، ولقياس المعلومات السياسية، ولقياس البراعة التحريرية. وهي ليست

موضوعنا الآن. فنحن هنا نتحدث عن اللغة وقياس البراعة فيها. وقد انصرفنا عن الجامعات انصرافًا يائسًا قبل قليل. واتجهنا إلى مهنة الإعلام.

التوفل والآيلتس مفيدان لغرض معين، وليس لكل غرض.

بعد جهد بذلته في البحث والتأليف والتعليم ورياضة النفس، وإزالة خبائثها أيضًا، توصلت إلى شيء يشبه أن يكون مقياسًا معقولًا للقدرات اللغوية للإعلامي. ولعلك تطالبني بشرح خبائث النفس!

قد علقت بذهني شوائبُ جمة وأنا في طريقي إلى تعلُّم ما تعلمته من قواعد النحو والصرف. فجمعت معلومات جانبية كثيرة، هي إلى تبرير الشواذِّ أقرب منها إلى نصب القاعدة. وكلما ازداد إتقاني للنحو، ازدادت مطالبتي للشباب بأن يتقنوا أكثر. صرت تقليديًا. غير أنني في الوقت نفسه رأيت تيارًا من الكفر بالنحو يسير في جهة مختلفة من عقلي. وكتبت كثيرًا في هذا الموضوع. واختبرت حقيقة مشاعري كثيرًا. ورضتُ نفسي على الوصول إلى وسط مقبول.

إصرار الأكاديميين على السلامة المطلقة للغة إصرار أناني. فهم قد تعبوا في اكتساب هذه المعلومات ويريدون الاحتفاظ بمواقعهم في هذا الكهنوت الذي اسمه النحو. فهل لي أن أتخلص من هذه العقدة؟ ساعَدَني في التخلص منها أنني لم أُغرق إغراقًا في حفظ قواعد النحو. وظللت أسبح قريبًا من الشاطئ. وساعدني أنني رأيتُ كبار الناثرين في لغات أخرى، من صحفيين وأدباء، يقتنصون من قواعد النحو ما يكفيهم لا أكثر.

ولو قُيضت لي بضع سنوات أخرى قبل الألزهايمر الممكن، لوضعت خريطة مفصلة لتوفل عربي للإعلاميين يتناول النحو، والمفردات،

والكتابة الحسنة، وذلاقة اللسان. الفائدة الخفية من وضع هذا المقياس أهم من الفائدة المباشرة. فأما الفائدة المباشرة فهي أنه يساعد المؤسسات الإعلامية في التحقق من المستوى اللغوي لمن يتقدم للعمل بها. ولكن الفائدة الخفية تتمثل في نصب مستوى صوابي جديد ومعاصر ومرن، وفي تعريف الطلبة والفتية بما هو مهم في اللغة. وثمة فائدة خفية أخرى، وهي تعريف الأساتذة الذين يضعون مناهج الدراسة ويؤلفون كتب اللغة العربية بأنهم رجعيون وتقليديون، وبأنهم يعيشون في عصور غابرة، وبأنهم يرتكبون جريمة بحق التلاميذ.

كتبت هذا المقال قبل ثلاثة أيام من عقد امتحان كبير سميته «الكفاءة النحوية وضبط النص». وقد تقدم إليه نحو خمسة وسبعين إعلاميًا. وعقد هذا الامتحان في أواسط إبريل/ نيسان ٢٠١٥. ولك أن تتوقع أن يكون لهذا المقال ذيل[١]

(١) **ملحوظة تحريرية في إبريل/ نيسان ٢٠٢٢**: ذلك الذيل المذكور كان نتائج الامتحان، وقد نجح من الخمسة والسبعين مشاركًا أربعةُ أشخاص، خرجوا بإجازة بوصفهم مُدقِّقين لغويين. وذلك الامتحان (الكفاءة النحوية وضبط النص) تكرر في كل سنة -عدا سنة ٢٠٢٠ أولى سنوات الوباء- وأصبح تقليدًا من تقاليد مركز تطوير الإعلام بجامعة بيرزيت. وهذا المقال «توفل عربي» وضع على موقع المركز ولم يناقشه أحد، ولا أظن أحدًا قرأه ... طويل ... لا ألوم.

للمؤلف

- **قواعد اللغة العربية** (عمّان: دار الشروق، ٢٠٠١).
- **المسألة الفلسطينية** (فلسطين: نشر ذاتي، ٢٠٠٣).
- **الكتابة للراديو** (فلسطين: معهد الإعلام بجامعة بيرزيت، ٢٠٠٤).
- **زُبدة النحو** (فلسطين: معهد الإعلام بجامعة بيرزيت، ٢٠٠٤).
- **موجز النحو** (الدوحة: قناة الجزيرة، ٢٠٠٦).
- **عزيزي المستمع** (فلسطين: معهد الإعلام بجامعة بيرزيت، ٢٠١٤).
- **مفاوضات أوسلو** / مترجم عن الإنجليزية (القدس - بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠١٤).
- **غلط غلط**: ٢٦٨ حديثًا إذاعيًا، تم بثها من راديو أجيال، (فلسطين: راديو أجيال، ٢٠١٤).
- **اللغة العالية** (الدوحة: قطاع ضبط الجودة بشبكة الجزيرة، ٢٠١٤).
- **حياتي في الإعلام** (الدوحة: مركز الدراسات في شبكة الجزيرة، ٢٠١٥).
- **سلسلة الزُّبدة، أنطولوجيا الشعر العربي في خمسة أجزاء** (القاهرة: دار المشرق، ٢٠١٦).
- **الرخيصة والرخيص**، قصص قصيرة (القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠١٧).
- **إعصار في الهلال الخصيب**، رواية (بيروت: دار ثقافة، ٢٠١٨).
- **العَروض: العلم اللّاعلم** (السويد: دار صفحات، ٢٠٢٠).

هَكَذا أكتُبُ

مجموعة مقالات موزَّعة بين التجارب التربوية، والإعلامية، والمغامرات اللغوية. كُتبت هذه المقالاتُ على مدى نحو ثلاثين عامًا، ولم يُنشر أيٌّ منها في كتاب، وأكثرها لم يُنشر في أيِّ موقع.

عمِل المؤلف في التعليم المدرسي والجامعي، وعمِل في حقل الإدارة الإعلامية، وقدَّم برامج إذاعية وتلفزيونية. ومن وحي حياته العملية جاءت مادة هذا الكتاب.

مدارات للأبحاث والنشر
٥ ش ابن سندر - الزيتون - القاهرة
جمهورية مصر العربية
(+٢) ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢
info@madarat-rp.com
مدارات للأبحاث والنشر

ISBN 978-977-6459-50-2
9 789776 459502